روح الحياة

وصية المرتضى للمجتبى عليهما السلام

مصدر الفهرسة: IQ-KaPLI ara rda

رقم تصنيف LC : BP١٩٣.١.A٢ M٨ ٢٠٢٠

المؤلف الشخصي : المعلم، محسن علي، ١٣٧٢ للهجرة- - مؤلف.

العنوان: روح الحياة وصية المرتضى للمجتبى عليهما السلام /

بيان المسؤولية : تأليف محسن علي المعلم ؛ تقديم كاظم السيد محمد جواد الخرسان.

بيانات الطبع: الطبعة الاولى.

بيانات النشر: كربلاء، العراق: العتبة الحسينية المقدسة، مركز الامام الحسن عليه السلام للدراسات التخصصية، ٢٠٢٠ / ١٤٤٠ للهجرة.

الوصف المادي: ٤٧٢ صفحة ؛ ٢٤ سم.

سلسلة النشر: (العتبة الحسينية المقدسة ؛ ٧١٩).

سلسلة النشر: (مركز الامام الحسن عليه السلام للدراسات التخصصية ؛).

تبصرة ببليوجرافية: يتضمن هوامش.

موضوع شخصي: علي بن أبي طالب عليه السلام الامام الاول، ٢٣ قبل الهجرة-٤٠ للهجرة -وصية.

موضوع شخصي : الحسن المجتبى، الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام الامام الثاني، ٣-٥٠ للهجرة.

مصطلح موضوعي : الوصايا الدينية.

مصطلح موضوعي : الوعظ والارشاد (الشيعة الامامية).

مؤلف اضافي: الخرسان، كاظم محمد جواد - مقدم.

اسم هيئة اضافي : العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق)، مركز الامام الحسن عليه السلام للدراسات التخصصية. جهة مصدرة.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية

روح الحياة

وصية المرتضى للمجتبى عليهما السلام

تأليف

محسن علي المعلم



العراق - النجف الأشرف
www.imamhassan.org
info@imamhassan.org
+964 7803358020

هوية الكتاب

اسم الكتاب:........................ روح الحياة / وصية المرتضى للمجتبى عليهما السلام

المؤلِّف:.. محسن علي المعلم

الطبعة:.. الأُولى

سنة الطبع:...................................... ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

عدد النسخ:.. ١٠٠٠ نسخة

الناشر:........................ مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصصية

التصميم والإخراج الفني: .... وحدة الإخراج الفني

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق العراقية ببغداد ١٨٩ لسنة ٢٠٢٠



مقدّمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الخلق أجمعين محمّد وآله الطيِّبين الطاهرين، واللعن الدائم علىٰ أعدائهم أجمعين إلىٰ قيام يوم الدين، آمين ربَّ العالمين.

أهل البيت عليهم السلام شخوصٌ نورانيَّة وأشخاصٌ ملكوتيَّة، منها ولأجلها وُجِدَ الكَوْن، وإليها حسابُ الخَلق، يتدفَّقون نوراً وينطقون حياةً، شفاههم رحمة وقلوبهم رأفة، وُضِعَ الخير بميزانهم فزانوه عدلاً، ونَمَت المعرفة علىٰ ربوع ألسنتهم فغذّوها حكمةً.

أنوارٌ هداة، قادةٌ سادات (ينحدرُ عنهم السيل ولا يرقىٰ إليهم الطير)، ألفوا الخَلق فألفوهم، تصطفُّ علىٰ أبوابهم أبناء آدم متعلِّمين مستنجدين سائلين، وبمغانمهم عائدين.

لا يُكرِهون أحداً علىٰ موالاتهم ولا يجبرون فرداً علىٰ اتِّباعهم، يُقيِّد حبُّهم كلَّ من استمع إليهم ويشغف قلبَ كلِّ من رآهم، منهجهم الحقُّ وطريقُهم الصدق وكلمتُهم العليا، هُم فوق ما نقول ودون ما يُقال من التأليه، هُم أنوار السماء وأوتاد الأرض.

والإمام الحسن المجتبى عليه السلام هو أحد هذه الأسرار التي حار الكثير في معناها وغفل البعض عن وجه الحكمة في قراراتها وباع آخرون دينهم بدنيا

غيرهم فراحوا يُسطِّرون الكذب والافتراءات عليه والتي جاوز بعضها حدَّ العقل ولم يتجاوز حدَّ الحقد المنصبِّ علىٰ بيت الرسالة.

وقد اهتمَّ مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية بكتابة البحوث والدراسات وتحقيق المخطوطات التي تُعنَىٰ بشأن الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام ونشرها في كتب وكتيّبات فضلاً عن نشرها علىٰ مواقع الانترنت وصفحات التواصل الاجتماعي التابعة للمركز.

بالإضافة إلىٰ النشاطات الثقافيَّة والإعلاميَّة الأُخرىٰ التي يقوم بها المركز من خلال نشر التصاميم الفنّية وإقامة مجالس العزاء وعقد المحاضرات والندوات والمسابقات العلميَّة والثقافيَّة التي تثرىٰ بفكر أهل البيت عليهم السلام وغيرها من توفيقات الله تعالىٰ لنا لخدمة الإمام المظلوم أبي محمّد الحسن المجتبىٰ عليه السلام.

وهذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ هو أحد تلك الثمار التي أينعت والتي لا تهدف إلَّا إلىٰ بيان شخصيَّة الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام بكلِّ أبعادها المضيئة ونواحيها المشرِقة، ولرفد المكتبة الإسلاميَّة ببحوث ودراسات عن شخصيَّة الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام ومن الله التوفيق والسداد.

العتبة الحسينية المقدَّسة

مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية

كاظم السيد محمد جواد الخرسان

مقدمة الكتاب

بسمِ اللهِ وله الحمدُ والمجد، والصلاةُ والسلامُ على صفوةِ الخلق، وهداةِ الحق، محمدٍ وآلِهِ الكرام، واللعنةُ الدائمةُ على أعدائِهم أجمعين.

وبعد..

فإن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالبعليه السلام باكورة ثمرة الشجرة النبوية والدوحة الهاشمية، والسبط الأول المجتبى للنبيِّ المصطفى، والإمام الثاني بعد أبيه المرتضى، ونتاج سيدة النساء، وشقيق والد الأئمة النجباء.

فليس في الوجود من يدانيه أصلًا ومحتدًا، وجلالًا وشرفًا.

١. فله المقامُ الشامخُ الأرفعُ

أ) تولّى أمرَه اللّهُ:

أعدّه الله ـ جلّت حكمته ـ للإمامة والخلافة، فأمدّه وأهّله وفضّله، فنشر مدحته في محكم كتابه، وشريف وحيه وخطابه.

فطالما ينزل وحي الله على قلب رسول اللهصلى الله عليه وآله حاملًا أجمل الإشادة والتعريف، وأكمل التوصيف والتشريف.

فتلكم آية (المباهلة) وما تكتنزه من عمق المعنى وسموِّ الدلالة، وهاتيكم آية (التطهير) وما تبلغ به من الامتياز والتفضيل، واعطف عليها آية (المودَّة)

وما تنصّ عليه من اللحمة والوشيجة، وترمي إليه من امتداد مهمّة الرسالة متمثّلة في (الإمامة).

واقرأه في سورة (الإنسان) فهو المجتبى مادام الدهر والإنسان[١].

ولافت حقًّا ورائع صدقًا:

أن تنبسط شامخ الأوصاف على الصفوة الأشراف، تتساوى أصولُهم والفروعُ، وإن تنوّعت وشيجة القربى من نبعة الخير وأصله ومعدنه.

أجل.. إنهم مصطفون من بارئهم، رتّبهم مراتبهم التي ارتضاهم لها وارتضاها لهم.

فاختار وجعل محمدًا رسولًا نبيًّا، وأقام وجعل عليًّا إمامًا ووصيًّا، كما استخلف وأقام الحسن والحسين وتسعة من سلالته أئمة أوصياء، واختار واصطفى (فاطمة) أمًّا للأئمة المعصومين وسيدةً لنساء العالمين.

(ولعمري أفضلُ الخلقِ من حواهُ الكساءُ)

ب) وبلَّغَ النبيُّ رسالتَه:

ولقد بلّغها في (الحسنين) الزكيّين كما بلّغها في أبيهما (عليٍّ) الوصي، أفصح بذلك في قوله صلى الله عليه وآله:

«ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا»[٢].

---

(١) فالسورة المباركة تسمّى (الدهر) و(الإنسان).

(٢) بحار الأنوار ٤٣/ ٢٧٨.

«**الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما**»[١].

كما جهر في كلّ موقف بفضلهما ومآثر أهل بيته والطيّبين من أرومته نصًّا عليهم بأعيانهم وأسمائهم.

ولقد تجلّى في الحسن المجتبى خُلُقُه كما شاكله خَلْقُه.

«عن الغزالي في الإحياء والمكي في قوت القلوب أن النبيﷺ قال للحسنؑ: **أشبهتَ خِلقتي وخُلُقي**. وقال المفيد في الإرشاد: كان الحسنؑ أشبه الناس برسول اللهﷺ خلقًا وهيأة وهديًا وسؤددًا. وفي أسد الغابة بسنده عن أنس بن مالك: لم يكن أحد أشبه برسول اللهﷺ من الحسن بن علي. وروى البغوي الحسين بن مسعود في كتابه مصابيح السنة عن أنس بن مالك مثله وزاد: وقال في الحسينؑ أيضًا كان أشبههم برسول اللهﷺ»[٢].

فالحسنُ محمدٌ خَلْقًا وخُلُقًا ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[٣]، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾[٤].

وتلكم إرادة المولى الحكيم، والخبير العليم، وحكمته في تدبير أمره، وإقامة دينه، حيث اصطفاهم وفضّلهم على من خلق تفضيلًا، وجعلهم أئمة يدعون بأمره، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٥].

---

(١) بحار الأنوار ٤٣/ ٢٦٣.

(٢) أعيان الشيعة ٢/ ٣٦٥.

(٣) سورة آل عمران / ٣٤.

(٤) سورة الأعراف / ٥٨.

(٥) سورة الأنعام / ١٢٤.

٢. الزمن العنود والتأريخ المرّ

فقد كانت الأمة تتخبّط في دياجير الجاهلية الجهلاء، ويلفّها الجهل المطبق، يهلكها الكفر، ويغمرها الفقر.

«فأنارَ اللهُ بأبي محمدٍ صلى الله عليه وآله ظُلَمَها، وكَشَفَ عن القلوبِ بُهَمَها، وجَلَا عن الأبصارِ غُمَمَها، وقامَ في الناسِ بالهِداية، فأنقذَهُمْ من الغِواية، وبصَّرَهُمْ من العَمَاية، وهداهُمْ إلى الدينِ القويم، ودعاهُمْ إلى الصراطِ المستقيم»[1].

فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وجعلهم خير أمّة.

ولكنهم سرعان ما انقلبوا، كما أنبأ عنهم الله عز وجل في قوله الحق وإخباره الصدق:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

ولكن ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[3].

وتمّ الانقلاب، وعمّ الاضطراب، وثارت هوج العواصف القواصف، واستبدّت بالأمور زمرة تحكّمت، فأخّرت وقدّمت وأقامت وأقعدت، وغيّرت وبدّلت، وصنعت الأفاعيل «**ودَعْ عنكَ نَهْبًا صِيحَ في حُجُراتِهِ**».

---

(١) مقطع من الخطاب التأريخي للسيدة الزهراء عليها السلام.

(٢) سورة آل عمران / ١٤٤.

(٣) سورة سبأ / ١٣.

فقد جرى لآل الله وثقل رسول الله ما جرى من المحن والخطوب ومرّ الغصص ما لا يوصف شناعة وفظاعة وتنكُّرًا وإعراضًا.

والناسُ عادتْ إليهِمْ جاهِلِيَّتُهُمْ كأنَّ من جاء بالإسلامِ قد أفكا

٣. وفاءَ الحقُّ إلى أهله

وفزعت الأمة بعد حين من الدهر مترع بالويلات، مثقل بالمعضلات، مثخن بالرزايا القاتلات، فزعت إلى:

«**عليٌّ مع القرآن، والقرآنُ مع علي**»، «**عليٌّ مع الحقِّ، والحقُّ مع علي**».

فقام فيهم مقام من استخلفه، فالوصيّ نفس النبيّ، وأوقفهم على نهجه وهديه، وأنه حاملهم على الجادة القويمة، وإقامة شرعة ربّه ومنهاج رسوله، وإحياء دينه وتطبيق أحكامه.

«**دَعُونِي والْتَمِسُوا غيرِي، فإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لهُ وجوهٌ وألوان، لا تقومُ لهُ القلوبُ، ولا تَثْبُتُ عليهِ العُقُولُ، وإِنَّ الآفاقَ قَدْ أَغَامَتْ، والمَحَجَّةَ قَدْ تَنكَّرَتْ، واعْلَمُوا أَني إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ ما أَعْلَمُ، ولَمْ أُصْغِ إلى قَوْلِ القائِلِ وعتبِ العاتِبِ**»[1].

وقال عليه السلام فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان:

«**والله لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّساءُ، ومُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ، فإِنَّ في العَدْلِ سَعَةً، ومَنْ ضاقَ عليهِ العَدْلُ فالجَوْرُ عَلَيهِ أَضْيَقُ**»[2].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٩٢/ ١٣٦.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٥/ ٥٧.

وكم لهعليه السلام في الحكم والحاكمين من بيان ونقد وإيقاف على الحقائق.

فلم يَرُقْ للأمة وقد انحرفت مسيرتها، وتشعّبت بها السبل فضلّت وأضلّت، لم يَرُقْ لها فكره ومنهاج هديه، وسبيل جدد هو سالكه وحاملهم عليه.

فاندلعت عليه الفتن، وتظاهرت المحن، وانعقدت في القلوب الإحن، حتى فغرت الفاغرة، وهتف بهم الغواة المضلّون، فألفاهم الشيطان لدعوته مستجيبين، فركبوا الصعب، وصعدوا الجبال وهبطوا الوديان، فتحزّبوا لمحاربة الحقّ مستميتين.

فكانت الجمل، وأتباعه هم من هم، وما إن حسمت بالنصر المؤزّر، حتى نجم شيطان الشام، وهم الشآم الحاقدون، واعصوصب الخطب، وتفاقم البلاء.

وما إن أزف النصر بتقهقر القاسطين واندحارهم حتى استعرت نار الحرب من الداخل، وعمّت المحنة، وتفاقمت الفتنة، ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾:

الجمل، وصفين، والنهروان، ناكثون، وقاسطون، ومارقون، فتن متلاحقة، وبلاء مبرم، وعصيان مستشرٍ، وخذلان موهن في زمن عنود، ووضع كنود.

فما إن آب الحقُّ إلى نصابه فاعتدل ميزانه، وشرع في إقامة العدل، حتى

انداحت الفتن واستعصى عليه إخمادها، فتلكم الفجائع والفظائع استوعبت أيام حكمه وخلافته، وخُتمت بقتله شهيدًا في محراب ربِّه صائمًا مصلّيًا.

قتلـــتُمُ الصـــلاةَ في محرابِهـــا   يـــا قاتِلِيـــهِ وهـــو في محرابِـــهِ

٤. الإمام الممتحن أبو محمد الحسن

فهو الإمامُ من قبل الله ـ جلّت حكمته ـ وخليفةُ جدِّه رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيُّه، ووصيُّ أبيه عليه السلام وخليفتُه، ومن بايعته الأمة.

التركة الثقيلة:

فلمّا قضى عليٌّ شهيدًا في سبيل مبادئه قام وليّه وخليفته من بعده، والأُمَّة موزَّعة الأهواء، قد عصف بها الطوفان، والحق ثقيل، والدنيا آسرة معشوقة.

فما عسى الإمام الحسن أن يصنع وهو الوارث لتلكم التركة المثقلة بالأرزاء؟!

ولعلّ خَطْبَهُ فيها أشد، ومحنته أعظم، والبلاء أدهى وأمرّ.

٥ . هُدى الله وهَوى الناس

ولقد أراد المولى عزّ وجلّ لعباده دينًا قويمًا وفكرًا سليمًا، وصراطًا مستقيمًا، وخلقًا كريمًا.

وقد كتب ـ تقدَّست آلاؤه ـ على نفسه الرحمة، فوسعت العباد والبلاد لطفًا وحكمةً وعناية ورعاية، وضمان سعادة في النشأتين.

فأنزل الصحف والكتب السماوية من عنده، وبعث الرسل من قِبَلِه، واختار الأئمة الهداة من لدنه، ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[1].

وأمّا هوى الناس..

فالجهل والخفّة، والأنانية والاستئثار، وطول الأمل وحب العاجلة، والظلم، وكافة ما يمتّ إلى تحقيق ما تعشقه النفس وتهواه، كلها علل للانجذاب إلى الحياة الدنيا والتنعّم بمتعها ومتاعها.

هذه هي السمة المستولية، والصبغة العامة، والواقع الدائم القائم، وصَدَقَ سيد الشهداء الحسين بن علي، حيث كشف الحقيقة:

«الناسُ عبيدُ الدنيا، والدينُ لعقٌ على ألسنتِهِمْ، يحوطونَهَ ما دَرَّتْ معايِشُهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاءِ قلَّ الديّانون»[2].

والقارئ الحرُّ للتأريخ يقف على:

الحقبة الزمنية الحافلة بجلائل الشؤون وعظائم القضايا، وأعني بها: (منذ انبثاق نور النبوة في رحاب البيت الحرام إلى مصارع آل رسول الله في كربلاء المقدسة في الشهر الحرام)، سنة إحدى وستين للهجرة.

فكيف كان نشؤ الإسلام وارتقاؤه، ومن أبطاله ورجاله، وأولياؤه وخصماؤه؟؟!

وما حال الأمة وآل بيت نبيِّها في أيامه وبعد وفاته؟؟!

---

(١) سورة الحديد / ٢٥.

(٢) بحار الأنوار ٤٤/ ٣٨٣.

وكيف تقلّبت الأمور وتبدّلت الأوضاع وتغيّرت الأحكام، فتنقّلت دفّة الخلافة إلى: تيميّ، وعدويّ، وأمويّ، وهاشميّ، وأمويّ؟؟!

وقد أتخمت تلك الفترة على قصرها (١١هـ ـ ٦١هـ) بالمثقل المتراكم من الأحداث وألوان الصراع، وبشاعة الأطماع، وتلوّن الطباع، وشتات الأوضاع.

أجل..

إنه المنحى الخطير، حيث إقامة بناء معوجّ على غير قواعده، فكلّما امتدّ بدا انحرافه وتجلّى عواره، وآل إلى الخراب والدمار والاضمحلال.

وبكلمة..

ماذا أراده الله ـ جلّت حكمته ـ لعباده ومن عباده؟

وماذا يريد الناس بأهوائهم لحياتهم، وما يعدّون لآخرتهم؟

٦ـ لم يكن بدٌّ مما ليس منه بدٌّ

والإمام المجتبى عليه السلام ممدودٌ بلطف المواهب الإلهية، محبوٌّ بسابغ النعم الربّانية، مكلوٌّ ببصيرة وعصمة وقدرة ملكوتية، وعقل كله[1]، وحكمة متجسّدة، يعيش في عمق الحدث، ويرقب الأحداث، نافذ الرؤية والبصيرة، فهو إمام الأمة، وثاني الأئمة، وقائدها وهاديها.

فماذا يقضي به الحكم وتدعو إليه الحكمة؟

(١) فقد جاء في حديث رواه الخوارزميّ: ولو كان العقل رجلًا لكان حسنًا. مقتل الحسين / ١٠٠.

فطفق كما طفق أبوه عليهما السلام:

«أَرْتَئِي بينَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ على طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ... فرَأَيْتُ أَنَّ الصبرَ على هاتَا أَحْجَى، فصَبَرْتُ وفي العينِ قَذًى، وفي الحَلْقِ شَجًى، أَرَى تُراثِي نَهْبًا»(١).

فضرع إلى حقن الدماء، وإشاعة السلم، فهو إمام الحرب والسلم، والسلم في موطنه بطولة، كفؤ بطولة الحرب في موطنها.

وامتدّت محنة الإمام موغلة عمقًا واتّساعًا واستشراءً من أوليائه وأعدائه.

فطالما أبان وكشف عن وجه الحكمة، وأزاح الشبهة، وشرح وأوضح، ولكن البلاء المبرم أن لا تركن الأمة إلى قادتها وهداتها، فلا يروق لها إلّا أهواؤها، فتتنازعها أوهامها، فتضطرب مواقفها.

وحسبك نظرة إلى التأريخ المرّ وما عاناه الأئمة الكرام عليٌّ والحسنان ابناه من عصيان الأمة وتمرّدها، فلا ينهضون إذا دُعوا إلى حرب، ولا يستريحون إذا حُمِلوا على هدنة في سلم، فشأنهم اللجاج، وسليقتهم الاعوجاج، فكأنهم ما طبعوا إلّا على الشقاق والنفاق ورديء الأخلاق.

٧ ـ جَهْدُ الأَقَلِّ المُقِلِّ

امتثالًا لأمر سماحة العلّامة الكبير والمحقق الخبير السيد محمد مهدي الخرسان، أدام الله عليه وارف ظلّه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة وكافأه

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣ (الشقشقية)/ ٤٨.

بالحسنى كفاء ما قدَّم من تحقيق وتدقيق وتأليف وتصنيف، وأمتع بها أسمع، ولما يحمله وتنطوي عليه جوانحه من شرف الأرومة، وزكاء المنبت، وطهارة الأعراق، وطيِّب السريرة، وجميل السيرة، وبما له عليَّ من واجب الحق، فسماحته ـ دام مجده ـ شيخي، والسيد الشيخ في الرواية والإجازة، وقد غمرني لطفه وعطفه، فقرأ كتبي فقوّم وأرشد وسدّد، فلم يسعني إلّا الإجابة معترفًا أن دلوي في الدلاء صغير، وحبلي قصير، والموضوع جليل خطير.

فشرعت في شرح وصيّة الإمام المرتضى للإمام المجتبى عليهما السلام مستمدًّا من روح كريم آل محمد العناية والتوفيق.

وينضمّ عملي المتواضع هذا إلى عملين سابقين: (العقائد من نهج البلاغة)، و(الأخلاق من نهج البلاغة).

و(نهج البلاغة) معين لا ينضب، وكنز لا ينفد، ومنبع ثرّ، وتيّار هادر، جمع كمال التوحيد وخالصه، وجلال القرآن والصادع به، وسرّ النبوة والرسالة، وشرف الإمامة، وتأريخ الأنبياء وأممهم، وهدي الإسلام وأهدافه، وحربه وسلمه، والأخلاق الكريمة، والمواعظ العظيمة، وأسرار الكون وبديع الخلق وعالم الأفلاك والأملاك إلى ما يعيا فيه الفكر، ولا يوفّيه عظيم الوصف.

ووقفت في عملي هذا على جملة من الجهود مشكورة تناولتِ الوصية شرحًا وتحليلًا، فألفيتها متفاوتة المشارب، مختلفة المذاهب، تطنب وتقتضب، وتَعرض لجملة وتُعرض عن أخرى، وربما استرسلتْ كثيرًا في سرد قصص،

واستطردتْ طويلًا إلى أنماط شتّى.

فرأيت أن الأجدر والأجمل العناية بجوهر الوصيّة وجليل مضمونها وشريف أهدافها، فذلك أجدى نفعًا، وأعظم أثرًا وعقبى.

فإن وُفِّقْتُ فيما قدّمت فبفضل الله ـ عمّ لطفه وخيره ـ ويمن مولانا الإمام الزكيّ المجتبى ـ عليه سلام ربّه وبركاته.

وإلّا فهي أولًا وأخيرًا بضاعة الأقلّ المُقِلّ، وجهد العاجز، ولي وطيد الأمل وخالص الرجاء أن لا يردّني مولاي وكريم آل محمد عن بابه خائبًا، وعن عطائه محرومًا، فهو الجواد حتى على أعدائه.

وخير الختام ومسك الكلام إهداء الصلاة والسلام إلى روحه الطاهرة وذاته القدسية، فكما افتُتح به الكتاب فبه يُختم.

«اللهمَّ صلِّ على الحسنِ والحسينِ عَبْدَيْكَ ووَلِيَّيْكَ، وابْنَي رسولِكَ، وسِبْطَي الرَّحمةِ، وسيِّدَي شبابِ أهلِ الجنة، أفضلَ ما صلَّيْتَ على أَحَدٍ مِنْ أولادِ النبيِّينَ والمُرْسَلِينَ».

«اللهمَّ صلِّ على الحسنِ بنِ سيِّدِ النبيِّينَ ووصيِّ أميرِ المؤمنينَ، السلامُ عليكَ يا ابنَ سيِّدِ الوصيِّين».

«أَشْهَدُ أَنَّكَ يا ابنَ أميرِ المؤمنينَ أمينُ اللهِ وابنُ أمينِه، عِشْتَ مظلومًا، ومَضَيْتَ شهيدًا، وأَشْهَدُ أَنَّكَ الإمامُ الزكيّ، الهادي المهديّ، اللهمَّ صلِّ عليهِ، وبلِّغْ رُوحَهُ وجَسَدَهُ عنِّي في هذهِ الساعةِ أفضلَ التحيَّةِ والسَّلامِ».

وبعد..

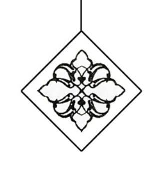
فخالص دعائي ووافر شكري وثنائي لمن آزرني وأرشدني إعدادًا ومراجعةً وتوجيهًا، فلهم جميعًا بالغ تقديري، راجيًا توفيتهم حقَّهم من عطاء الإمام الزكيِّ الحسن المجتبى عليه السلام وسابغ نواله.

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمدٍ وآلِهِ الهداة الميامين.

محسن علي المعلم

ميلاد الصديقة الزهراء عليها السلام

١٤٣٩هـ



الفَصلُ الأَوَّلُ

جَولةٌ في مَحَاوِرَ

* حول النصِّ الشريف
* الوصيُّ المرتضى... الكمال مجسدًا لف
* الإمامُ الموصى إليه المجتبى

المحور الأول: حول النصِّ الشريف

أ) جوهر النص:

وهو وثيقة تربوية، ودستور أخلاقي، وسجل مترع بالمعارف، ووصية أبوية موغلة في بلورة أنماط من السلوك، واستخلاص الأمثل لإصلاح الذات، وإقامة أود النفس وما يعصف بها من هائج الهوى، ونوازع التمرد، ومرديات الإغراء، وظلمات الجهل، وما يرين على القلوب فيقلبها ميالة للشهوات ويهوي بها إلى حضيض الضلال ومنحدر الهاوية السحيق، وهدايتها لمنهج السلامة، ومسلك الاستقامة، فلا عِوَجَ ولا أَمْتَ.

قوامها الفكر، ودعوتها الحق، ولسانها الصدق، يكتنفها جناحا رحمة وحنان، وجوهرها الإيمان، تتفجر ينابيعَ حكم، وتزخر بمكنون علم لا ينفد، بل يزداد على تعاقب وراده وفرةً واتساعًا.

وقالبها جمال الصورة والمضمون في بلاغة فائقة، وبراعة رائقة، وإبداع في المعنى والمبنى، وإعجاز في الفكر والعرض.

فلا غرو فتلكم فكرة اخترعها، ومادة انتهجها من أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب.

ب) سند الكتاب والوصية:

والحديث عن (نهج البلاغة) وسنده مما عَنِي به الباحثون من علماء ومؤلفين، وعالجوا ما أثير حوله من شبه وبواعث لتلكم الشبه والشكوك.

وقد عرضت لجملة وافرة منها فيما كتبت كما تناولها بالدراسة آخرون بأوسع مما تناولت.

وقد انبرى عدة من أرباب التحقيق لتوثيق نصوص الخطب والرسائل والكتب والوصايا والحكم فأفادوا وأبلوا البلاء الحسن الجميل ـ شكر الله مسعاهم.

فدونك:

١ـ مصادر نهج البلاغة وأسانيده للمحقق المتتبع الخطيب الشهير المرحوم السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب.

٢ ـ مصادر نهج البلاغة للعلامة المرحوم الشيخ عبد الله نعمة.

٣ ـ مسند نهج البلاغة للعلامة المتتبع السيد محمد حسين الجلالي.

٤ ـ مدارك نهج البلاغة للفقيه المرحوم الشيخ هادي كاشف الغطاء.

٥ ـ بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة للفقيه المتتبع المرحوم الشيخ محمد تقي التستري.

٦ ـ استناد نهج البلاغة للأستاذ امتياز علي عرشي.

وفيما يخص موضوعنا فأعرض لجملة مما تناوله الباحثون:

فأولًا: السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب[١]:

فقد قال في صدر حديثه: هذه الوصية من أشهر وصايا أمير المؤمنين عليه السلام رواها جماعة من أكابر العلماء قبل أن يتنسّم الرضي روح الحياة.

وعدّ منهم:

ثقة الإسلام الكليني في كتاب (الرسائل)، وأبا أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري من مشائخ الصدوق في كتاب (الزواجر والمواعظ)، وأحمد بن عبد ربه المالكي، ذكر شيئًا منها في (العقد الفريد)، ونبّه السيد المؤلف رحمه الله إلى مسلك ابن عبد ربه من التقديم والتأخير والاختصار والحذف، كما هي عادته فيما ينقله من كلام أمير المؤمنين عليه السلام[٢].

والشيخ الصدوق روى طرفًا منها، وابن شعبة الحراني في (تحف العقول)، وأشاد بجهد السيد ابن طاووس وإشباعه القول في أسانيد هذه الوصية ثم أورد ما ذكره في (كشف المحجة إلى ثمرة المهجة).

وثانيًا: السيد محمد حسين الجلالي[٣]:

وقد أورد ما ذكره الشيخ هادي كاشف الغطاء، وفيه أن من جملة من روى الوصية صاحب كتاب (منتخب كنز العمال) ثم عقّبه بكلام ابن طاووس بطوله المتضمن لنص الكتاب برواية الشيخ الكليني، وأردفه بما جاء

---

(١) مصادر نهج البلاغة وأسانيده ٣/ ٣٠٧ ـ ٣١٢.

(٢) مصادر نهج البلاغة وأسانيده ٣/ ٣٠٨.

(٣) مسند نهج البلاغة ٣/ ١٣٢ ـ ١٦٣.

في (تيسير المطالب) بالإسناد عن الهاروني وعرض في ثنايا ذلك مواطن التقاء الروايات واختلافها، كما نقل جملة من الفقرات عن الكافي وتأريخ دمشق لابن عساكر، وأورد ملخصًا طويلًا عن (كنز العمال) للمتقي الهندي.

وثالثًا: الشيخ محمد تقي التستري[١]:

وتقرب معالجته للنص مما ذكره السيد الجلالي، فقد ذكر خمسة طرق روته موجهًا للإمام الحسنعليه السلام وطريقًا واحدًا نسبه إلى محمد بن الحنفيةرضي الله عنه غير أنه استبعد نسبة الوصية من الإمام لابنه الإمامعليه السلام وسأعرض لذلك لاحقًا.

ب) الوصية لمن؟

وانطلاقًا من (مناسبة الحكم للموضوع) فإن الوصية والتوجيه والتربية والإرشاد والتعليم وبيان الحقائق منعًا للانزلاق في مهاوي الردى، واتباع الهوى، وغلبة الشهوة، والاسترسال في المنى وهي بضائع النوكى وأخلاق الحمقى.

والإمام المجتبىعليه السلام مصون عن كل ذلك بالعصمة الإلهية الكبرى، متحلٍّ بالإمامة العظمى فلا يدنو منه رجس ولا سبيل إلى الشيطان والإغراء، فلا تنسجم نصوص الوصية مع رحاب الكمال المتجسد في الإمام المعصوم المصان.

ومن ثم رأينا من برّر عدم توجيهها أو بعض فقراتها للإمام السبط أو استبعد ذلك لذلك:

---

(١) بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ٨/ ٢٣٠ ـ ٢٣٣.

١ ـ قال الشيخ التستري بعد ما مر من رأيه من كثرة طرق نسبتها إلى الإمام الحسن الزكي:

«إلا أن الذي يبعد كونها إلى الحسن فضلًا عن مقام إمامته وعدم احتياجه إلى تلك الوصية بل إلى عهد الإمامة أنه كان في ذلك الوقت ابن ست وثلاثين سنة، لأن مولده كان في سنة اثنين أو ثلاث، وصفين كانت في سنة (٣٧)، وفي الوصية أنها كانت بعد صفين، ومن فقرات الوصية «وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية»[١].

٢ ـ العلامة المتبحّر الحجة الشيخ محمد علي الأوردبادي وقد ذكر نص رأيه العلامة الخطيب الشهير السيد القبانچي في شرحه على الوصية (علي والأسس التربوية)، (الفصل الخامس) الذي عرض فيه الإمام سيد الأوصياء من خشيته ألا يعجل بوصيته لابنه الإمام وقد علت سنه وما يستتبعه من نقص الرأي كما نقص الجسم، أو خوفه على ابنه من سبق بعض غلبات الهوى.

أقول:

لقد حفل المأثور الديني بالوافر من الوصايا الموجهة إلى سادات الأولياء وهي تحمل نمط هذه الوصية وأغراضها إلى من لا يحتمل في حقه الجنوح إلى ما فيها من سيء الأخلاق ورديء الطباع وشائن الأوضاع.

---

(١) بهج الصباغة ٨/ ٢٣٢.

وقبل ذلك هدي الله عزّ وجلّ لخُلّص أوليائه والمصطفين من أصفيائه، فيما أوحى لأولي العزم من الرسل ومن ذلك ما خوطب به سيد الرسل وأفضل خلق الله كافةً صلى الله عليه وآله كقوله سبحانه ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

وقد عني السادة الهادون المهديون عليهم السلام بإذاعة وصايا الأنبياء الكرام والحكماء العظام كلقمان عليه السلام.

وما ذاك إلا أنها حقائق راهنة، وهدي جامع وفكر رصين، وتربية روحية وأخلاقية فذة متلقاة من نظر المولى ـ جلّ وعلا ـ لإصلاح عباده وتبصيرهم وإقامتهم على الصراط المستقيم ومنهج الحق القويم.

فهي وإن نُسِبَتْ إليهم عليهم السلام وبثها عنهم من هو أسمى مقامًا وملكات منهم فلأنها تربية المولى الأجل ـ تبارك وتعالى ـ القائل في محكم التنزيل: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، فكل خير مصدره الخير كله والخير المطلق المحض، فلتكن هذه الوصية الشريفة على هذا الغرار والنسق.

فجاء تعقيبه رحمه الله:

«هذه الفقرات مما تسلب الثقة عن صدورها عن مبدأ الخلافة الكبرى، لأن الإمام المعصوم عن الخطأ والزلل وعن كل ما يَصِمُ مقامه ويُنَفِّر عنه القلوب من الخبل والعطل الذي هو النقص في الرأي»، وقد عرّض بالشيخ ميثم البحراني قدس سره وقال عنه: «فخبط آخر خبط عشواء بقوله: إن القوى النفسانية تضعف عند علوّ السن لضعف الأرواح الحاملة لها...وهذا من الأغلاط الشائنة...الخ».

ونحو ذلك قال في نفيها عن الإمام الموصى إليه:

«أفمن المعقول أن يكون الإمام السبط المجتبى تعترضه غلبات الهوى على عقله الواسع ويسفر عنه الخور في مقاومة النفس الأمارة... إلى آخر ما قال في هذا الصدد»[١].

٣ ـ العلامة المعتزلي ابن أبي الحديد:

فإنه وإن نحى منحىً آخر في تناوله للفقرة: «**أو أَنْقَص في رأيي**» فقال: هذا يدل على بطلان قول من قال إنه لا يجوز أن ينقص في رأيه، وأن الإمام معصوم عن أمثال ذلك، وكذلك قوله للحسن: أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا يدل على أن الإمام لا يجب أن يعصم عن غلبات الهوى ولا عن فتن الدنيا[٢].

أقول ومن الله الهداية والسداد:

١. النظرة الأولى:

أ) فقد نظر العلمان المحققان ـ أعلا الله قدرهما ـ أن ظاهر جمل الوصية وحديثها وضمائرها وكل ما فيها تحمل الخطاب لشخص الإمام المجتبى عليه السلام وتحكي بالتالي أساليب الإرشاد الموجهة.

كما ترجم ذلك الشيخ التستري في عرضه لميلاد الإمام وعمره في صفين،

---

(١) علي والأسس التربوية / ٢٣٣ ـ ٢٣٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦/ ٦٦.

وإن كانت جملة «**وإِنَّما قَلْبُ الحَدَثِ كالأرْضِ الخَالِيَةِ**» يجري فيها ذات المقال وإن تمايز مقام الإمام السبط عن أخيه محمد فقد كان آنذاك بطل الحرب وقائدًا معلمًا في حرب الجمل ينضح شجاعة وفتوة.

وتجلّى ذلك في حديث الشيخ الأوردبادي وإن كان رده أشد وسيفه أحد.

وقد مثّلا في نقدهما مقالة الإمامية الحقة في شرائط الإمامة وسمات الإمام وتبوئه الكمال في كافة شؤونه وأدواره.

٢. النظرة الأخرى:

فالوصية منهاج تربوي شامل، تعالج قضية الإنسان الكبرى، وتعرض الأدوار والأطوار وملابساتها على نسق (القضية الحقيقة).

فلا ينظر إليها بنحو (القضية الخارجية) فلا تصدق حينما نفترض أن موضوعها الإمام الحسن عليه السلام.

إذن ثمت (قلب الحدث) و(نقص الجسم) و(وهن الرأي) و(غلبات الهوى) وكافة شؤون الحياة بشجونها ليست نعتًا ولا حكاية لفترات يحياها الإمام مبتلى بوهن القوى وعرضة لغلبات الهوى، فلا نقص ولا انتقاص، ولا خوف ولا اعتراف بل ولا حديث عن ذات الإمام، وكمالاته، وما يجوز نسبته إليه وما لا يصح.

بل إنما هي حكاية الحياة وعوادي الدهور وصروف الزمان وتقلب الأحوال في مهب عاصفات الرياح، وصرعات النزعات والرغاب، وسبل

السلامة والاستقامة والأمان والإطمئنان.

١ ـ قال السيد القبانچي رحمه الله معقبًا على مقالة الشيخ الأوردبادي:

«وهذا الرأي مع حظه العظيم من المتانة والإنصاف مدفوع بأن الإمام عليه السلام فرد من أفراد المجموعة البشرية يجري عليه ما يجري على الفرد منها، إلا إن الصارف الإلهي الذي تحلى به الإمام يصرفه عن كل ما يشين وينفر.

وهذه الفقرات صادرة منه عليه السلام على أصول العظات والقواعد التربوية لبيان ما عليه البشر من حيث هو بشر، من الانتكاس في بدنه ورأيه في أخريات وجوده، وإن كان هو ومن في مرتبته بحسب المنصب الإلهي، والخلافة الكبرى مصونًا من أمثال هذه المزريات...إلخ»[1].

وأحسب أن الوصية لو قُرئت بهذا النظر لم يعد للاستبعاد أو النفي باعث ملزم.

هذا والطرفان متّحدا العقيدة متفقا القول والإذعان واليقين بالمنزل الأسمى والمقام الأجل الأعلى الذي يتربع كمالاته الموهوبُ المفاضُ عليه بألطاف من اصطفاه واجتباه، وأنه في عصمة عن كل وصمة.

٢ ـ وأما ما يتعلق بابن أبي الحديد وزعمه وفهمه النص فقد تناوله بالرد العلامةُ المحقق الشيخ محمد باقر الكمره إي فقال:

«أقول: مع إظهاره للإخلاص بعليٍّ وغلوه في توصيفه في غير مورد من

---

(١) عليٌّ والأسس التربوية / ٢٣١.

الشرح وفي قصائده المشهورة كأنه غلب عليه النصب في هذا المقام فاستفاد من كلام له وللحسن عليه السلام ما ليس بمقصود لما قلنا من إن إخراج هذه الوصية ينظر إلى حال عامة الوالدين وأبنائهم مجردًا عن الخصوصيات الشخصية ليكون مثالًا نافعًا للكل، ولا تنافي في عصمته وعصمة ولده ومقام الإمامة والقداسة فيهما وكيف؟! وعمر الحسن في هذا الوقت يزيد على الثلاثين وقد استأهل للخلافة عند عامة الناس ونص عليه بالإمامة في غير مورد، فلا بقصده عليه السلام أن يربيه بعد ذلك بهذا الكلام وإنما المقصود «إياك أعني واسمعي يا جارة»[1].

٣. ونظرة ثالثة:

وتلك قضية الرواة واختلافها وتداخلها وتكرر فقرات مشتركة بينها وما اعتورها من حذف أو تصحيف أو رواية بالمعنى وما إلى ذلك من شؤون الرواية والدراية.

وسيدنا الشريف الرضي رضي الله عنه عُنِي باختيار المنتقى فصاحة وبلاغة وبُعْدَ معنى وجلالَ مضمون ومغزى «ومن ذلك كله يبدو أن الوصية المذكورة في النهج ملتقطة من عدة وصايا جمعها الرضي في سياق وصية واحدة، لاتحادها نسقًا ومقصدًا، وهذه عادته رحمه الله يورده في مجموعه النهج ما كان داخلًا في غايته التي وضع النهج لأجلها»[2].

---

(١) تكملة منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ٢٠/ ١٢.

(٢) مصادر نهج البلاغة / ٢٤٠.

وهذا ما عرضه جملة من المحققين وشراح النهج، فقد ذكر الشيخ التستري جملة من النصوص نسبتها المصادر موجهة إلى الإمام المجتبى وأخرى إلى محمد بن الحنفية[١].

وقد أسندها الشيخ ميثم البحراني اعتمادًا على رواية الشيخ ابن بابويه القمي إلى محمد بن الحنفية.

قال الشيخ الحكيم العظيم ميثم البحراني:

أقول: روى جعفر بن بابويه القمي ـ أن هذه الوصية كتبهاعليه السلام إلى ابنه محمد بن الحنفيةرضي الله عنه[٢].

وقال الفقيه الهادي من آل كاشف الغطاء:

«والأصح الأشهر ما قدمناه»[٣]، ويعني به إسنادها إلى الإمام المجتبىعليه السلام.

وسواء خَلُصت لأحد نجلي الإمام أو اشتركت أو تكررت بعضهما لهما فهي هدي إمام التربية الربانية ونهج بلاغتهعليه السلام.

قالوا عن الوصية الباهرة:

١ ـ قال شيخ الأمة المفيدرحمه الله (ت ٤١٣هـ):

«وكتب إليه عهدًا مشهورًا ووصية ظاهرة في معالم الدين وعيون الحكمة والآداب، وقد نقل هذه الوصية جمهور العلماء، واستبصر بها في دينه ودنياه

---

(١) بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ٨/ ٢٣١ ـ ٢٣٣.

(٢) شرح النهج ٥/ ٢. والصحيح: أبو جعفر ابن بابويه.

(٣) مدارك نهج البلاغة ودفع الشبهات عنه / ٢٥١.

كثير من الفقهاء»[١].

٢ ـ قال العلّامة المحقّق علي بن عيسى الإربلي (ت ٦٩٢هـ): «وقد أورد السيد الرضي الموسوي رحمه الله وألحقه بسلفه الطاهر في نهج البلاغة وصية لأمير المؤمنين عليه السلام كتبها إلى ابنه الحسن عليه السلام، وهي طويلة، جامعة لأدب الدين والدنيا، كثيرة الفائدة والجدوى، نافعة في الآخرة والأولى، قد أخذت بمجامع الفضائل، وأعجزت بمقاصدها الأواخر والأوائل، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي إذا قال بذَّ كلَّ قائل، وعاد سحبان عنده مثل باقل، فإن أنكرت فسائل، وليس هذا الكتاب موضعًا لإثباتها، وقد دللتك عليها فإن أردتها فأتها، تجد البيان والبلاغة، وتشاهد آداب الدنيا والآخرة، ببدائع ألفاظ تريك ورد البيان صافيًا، وبرد الفصاحة ضافيًا، وحظَّ السمع والقلب وافيًا، وليكن هذا القدر في صفتها وإن لم يكن كافيًا كافيًا»[٢].

٣ ـ قال العلامة الحكيم الشيخ ميثم البحراني رضي الله عنه: «وهي من أفصح الكلام وأبلغه وأشمله (وأجمعه خ) لدقائق الحكمة العملية ولطائفها، وأكمل عبارة يجذب بها إلى سبيل الله»[٣].

٤ ـ العلامة المحقق الشيخ محمد باقر الكمره إي:

«وهذه وصية عامة تامة، أخرجها إلى ابنه الحسن عليه السلام وجمع فيها أنواع

---

(١) الإرشاد / ٨٨.

(٢) كشف الغمة ١/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥.

(٣) شرح نهج البلاغة ٥/ ٢.

المواعظ والنصائح الكافية الشافية وصنوف الحكمة العملية الوافية، وكفى بها دستورًا إرشاديًا لكل مسلم بل لكل إنسان، فكأنه‌عليه السلام جرد نفسه الزكية والدًا للكل أو أنموذجًا لجميع الوالدين، وجرد من ابنه الحسن‌عليه السلام ولدًا لكل الأولاد أوأنموذجًا لجميع أبناء الأبناء في كل بلاد. ثم سرد النصائح ونظم المواعظ لتكون وصيته هذه إنجيلًا لأمة الإسلام وتوجيه هذه الوصية إلى ابنه الحسن يشير إلى زعامته بعده واهتضامه واعتزاله، فلا يكون إلا إمامًا مبشرًا منذرًا بلا سلاح ولا اقتدار»[١].

٥ ـ العلامة السيد محمد تقي النقوي القايني:

«هذه الوصية الجامعة النافعة مما أوصى بها أمير المؤمنين‌عليه السلام ظاهرًا ابنه الحسن المجتبى وباطنًا جميع شيعته ومن يحذو حذوه إلى يوم القيامة... ولم يترك‌عليه السلام في هذه الوصية شيئًا مما فيه خير الدنيا والآخرة إلا ذكره، فمن عمل بها يرتقي إلى أعلى الكمالات، ويصل إلى أفضل الخيرات، ويبلغ إلى غاية الآمال والمقامات.

فقال‌عليه السلام: من الوالد، والتعبير به إشارة إلى نقطة خفية وهي أن الوالد بالنسبة إلى ولده شفيق، لا يرى لولده إلا ما يراه لنفسه، ولا يرضى له إلا ما يرضى لنفسه، وقد قال رسول الله‌صلى الله عليه وآله: أنا وعلي أبوا هذه الأمة ثم وصفه بأمور كثيرة لا مرية فيه»[٢].

---

(١) تكملة منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ٢٠/ ٣ ـ ٤.

(٢) منهاج السعادة في شرح نهج البلاغة ١٥/ ٧٢.

٦ ـ العلامة الكبير الشهير الشيخ آغا بزرگ الطهراني:

«وصية أمير المؤمنين عليه السلام رسالة له إلى ابنه الإمام الحسن عليه السلام، وفيها الهداية إلى مكارم الملكات والإرشاد إلى طرق التخلص من المهلكات وهو أول كتاب في الإسلام كتب في الأخلاق»[1].

٧ ـ أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري:

«لو كان من الحكمة ما يجب أن يكتب بماء الذهب لكانت هذه»[2].

٨ ـ السيد حسن القبانچي:

فقد تحدث عنها وأفاض القول في جلالة موقعها، وغزارة مضامينها، وسمو مقاصدها، وجامعتها لأسس التربية القويمة فإنها المنهل العذب الذي لاينضب.

فقال: «لما لهذه الوصية من الأهمية ما لم يكن لغيرها من الوصايا، إذ كل فصل منها منهج تربوي، ومنهج سلوك، ومنهج تفكير، ومنهج حياة.

قبسات كل منها يصلح أن يكون أحد مفاهيم الفكرة الإسلامية، مفاهيمها الواقعية الضاربة في مناكب الأرض، المتلبسة بصميم الحياة.

تلك هي الخاصية الواضحة التي تمتاز بها وصايا الإمام علي عليه السلام عن سائر وصايا المخلوقين، وتلك هي المقادير المحدودة التي تقتبسها الأفهام المحدودة

---

(١) الذريعة ٢٥/ ١٠٥.

(٢) مصادر نهج البلاغة وأسانيده ٣/ ٣٠٥.

من البحر اللجّيّ العظيم.

وحسب الذهن الواعي أن يلم بناحية واحدة أو أكثر من هذه النواحي الكثيرة، والآفاق المترامية، وحسب الأذهان البشرية أن تتساند وتتساعد فتكشف منها أنواعًا كثيرة من العلم، وجوانب كثيرة من الهداية والإرشاد.

إن هذه الوصية لم تلاق من الكتّاب والشرّاح العناية التي تستحقها، فقد بعدوا عن كثير من مطالبها المهمة الثريةالتي يجد فيها الإنسان سعادته واطمئنانه لو أحسن استعمالها، ولم يعطوها نصيبها كما أعطوا غيرها ممن هي دونها ودونها بأشواط.

ولقد كان حريًّا أن يحتفل بها كما احتفلت هي ببطاقات الحياة كلها، ووجهت القلوب لكل منحة منحها الله، وكل آية من آيات الله»[١].

وعاد للحديث عن جلالها وجمالها وكمالها صدر شروعه في شرحها[٢] فأفاد وأجاد، شكر الله سعيه وأجزل مثوبته.

٩ ـ قال العلّامة السيد علي مكي ـ أيّده الله:

«ومثالًا على ذلك كلمات الإمام علي عليه السلام في وصيته لولده الحسن، تلك الوصية الفريدة في نوعها، والتي وضع فيها مناهج التربية والسلوك، والأخلاق والروحانيّات.

---

(١) علي والأسس التربوية / ٢٠.

(٢) علي والأسس التربوية / ٢٥ ـ ٢٦.

ومن الضروري لكلّ مؤمن الاطّلاع عليها»[١].

وأكّد مقالته ثانيًا فقال:

«وهذه الوصية من محاسن الأقوال والوصايا، جمعت مختلف الأمور والعقائد والهدى، والأخلاق والآداب والاجتماع، وكان بعض العلماء يلزم بقراءتها وحفظها وخاصّة لأهل العلم، لما فيها من بلوغ الأدب، والهداية الكاملة إلى الحق، والخُلق الرفيع، فمن الضروري قراءتها والأخذ بما ورد فيها من محاسن الآداب والخُلق والمواعظ»[٢].

قال العلّامة المرحوم الشيخ القرشي:

«وللإمام أمير المؤمنين عليه السلام وصايا تربوية لولده الحسن عليه السلام حافلة بالقيم العليا، والمثل الإنسانية الكريمة.

وأهمها وصيته الخالدة التي كتبها بحاضرين، حال انصرافه من صفّين، وقد حفلت بالدروس القيّمة، والآداب الاجتماعية، وحقًّا أن ترسم على صفحات القلوب، وأن يجعلها المسلمون دستورًا لهم في سلوكهم الفردي والاجتماعي»[٣].

وبعد..

«ودخل إليه (الإمام الصادق عليه السلام) سفيان الثوري يومًا فسمع منه كلامًا

---

(١) الهداية والتربية الإيمانية ٢/ ٥٦.

(٢) الهداية والتربية الإيمانية ٣/ ٢٢.

(٣) حياة الإمام الحسن بن علي، للقرشي ١/ ٣٤٠.

أعجبه، فقال: هذا والله يا ابن رسول الله الجوهر، فقال له: بل هذا خير من الجوهر، وهل الجوهر إلا حجر»[١].

٤. العناية بالوصية الشريفة:

وقد أولاها الأعلام والباحثون اهتمامًا مميّزًا، فقد شرحها شرّاح (نهج البلاغة) على وفرتهم وعمق نتاجهم الثرّ، وأفردها جملة منهم بالتحليل والترجمة إلى عدة لغات.

١ ـ منثور الأدب الإلهي:

وجاءت تسميته في الذريعة ج١٤/ ١٢٩: (منثور الأدب الإلهي ودستور العمل كار كاهي).

للمولى محمد صالح الروغني القزويني ـ وهو بالفارسية.

٢ ـ الأخلاق المرضية في شرح الوصية[٢]:

أو (هدية الأمم) للحاج محمد صادق المعروف بغازي، وجاء اسم شرحه

---

(١) بحار الأنوار ٤٧/ ٢٩.

(٢) مصادر نهج البلاغة وأسانيده ٣/ ٣١٢.

وجاء في الذريعة ١٣/ ٢٢٥ ما يلي: «(شرح خطبة الوصية)، وصية أمير المؤمنين إلى ولده الحسن عليهما السلام، يأتي في حرف الكاف باسم (كتاب الأخلاق النفسية في شرح خطبة الوصية)، يأتي باسمه أيضًا (هدية الأمم)».

ولم أجده في حرف الكاف من الذريعة، ولعله المعنون بـ(الأخلاق النفسية في شرح خطبة الوصية) في حرف الألف رقم ١٤٨، كما في الذريعة ٢٦/ ٣٤.

والملاحظ تعدد التسمية للكتاب الواحد، واعتماد نهج خاص في تحديد موضعها.

كاملًا: (هدية الأمم ومجلة الآداب والحكم)[(١)].

ونظمها بالفارسية السيد حسين بن إبراهيم القزويني، ويظهر من الذريعة ج٢٥/ ١٠٥ أنهما شرحان مستقلان.

ثم ذكر عنوانًا آخر: وشرح خطبة الوصية، يأتي باسمه أيضًا (هدية الأمم).

٣ ـ السيد حسن القبانچي:

وقد شرح الوصية في مجلد كبير (علي والأسس التربوية) حفل بمعارف جمة.

٤ ـ الميرزا جهانكير خان ناظم الملك الآذربيجاني «نظم الوصايا الثلاث المدرجة في النهج من أمير المؤمنين عليه السلام إلى ولده الحسن عليه السلام بالفارسية سنة ١٣٢٩ مشروحًا مفصلًا»[(٢)].

٥ ـ ضيائي مرندي:

ونظم وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام بالفارسية[(٣)].

٦ ـ السيد عباس الموسوي:

(الوصية الخالدة).

٧ ـ الدكتور جعفر علي عاشور:

(وصية الإمام علي عليه السلام إلى ولده الإمام الحسن عليه السلام).

(دراسة نحوية وصرفية).

---

(١) الذريعة ٢٥/ ٢٠٦. وفي ٢٥/ ١٠٥ من الذريعة ذكر شرحًا باسم (هدية للأمم).

(٢) الذريعة ١٤/ ١٢٢ وقد وصف الشارح بأنه: الأديب الشاعر الماهر.

(٣) الذريعة ٢٤/ ٢٣٢.

المحور الثاني: الوصي المرتضى... الكمال مجسدًا

ولقد شملته العناية الإلهية، وغمرته الألطاف الربانية، فحبي خير الحباء، وتواترت عليه سحائب النعماء، وخص بالكمال، وتفرد بالشأو الذي لا يلحق ولا يدرك، وامتاز عن الكل، فكان عليًّا.

وناهيك عن مقام يتبوَّؤه فلا يعرفه إلّا (الله) ﷻ وهو خالقه وواهبه، وإلا رسول الله وهو روحه وجوهره وقلبه ونفسه ـ صلى الله عليهما وآلهما.

كما لا يعرف جلال (الله) إلّا رسول الله ووصيّه، وكما لا يعرف شأن رسول الله إلا (الله) وعلي ولي الله، قالﷺ: «يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت، وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرفك إلا الله وأنا»، «يا علي ما عرف الله حق معرفته غيري وغيرك، وما عرفك حق معرفتك غير الله وغيري»[1].

يغنيكَ قولُ اللهِ عن كلِّ قائلٍ ... وحديثُه عمَّنْ أطالَ وأَطْنَبا

فهل يبقى بعد ذلك مقال لقائل، وتعريف لمعرِّف، ووصف لواصف؟!

أجل.. لقد غمرت الدنيا وعمرت بذكر (علي)، فانبرت أقلام العلماء، وجاشت عواطف الشعراء، وقرائح الأدباء، من كل ملّة ونحلة تسبر شؤونه في ملكاته وكلماته ومواقفه وبطولاته وحربه وسلمه وأولياته وأيام حكمه.

فهل أحاطت بأمره، وهل وقفت على سره، وهل نفذت إلى جوهر ذاته، وكنه سماته وصفاته؟!

---

(١) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ٨/ ١٨٥ عن عدة مصادر.

كلاّ..

بل حارت في شأنه العقول، وخشعت لجلال قدسه الألباب، واعترفت بالقصور، وأذعنت بالحسور، بل اضطربت حتى قال القائل:

إِنْ قلتُ ذا بشرٌ فالعقلُ يمنعني ... وأختشي اللهَ في قولي هو اللهُ

وقال آخر:

تَحِيرُ بمعناكَ عشرُ العقولْ ... ولولا ابنُ عمِّكَ كنتَ الرسولْ

ولولا الغلوُّ لكنتُ أقولْ ... جميعُ صفاتِ المهيمنِ لكْ

فـ«علي بن أبي طالب عليه السلام: محنة المتكلم، إن وفاه حقه غلا، وإن بخسه حقه أساء، والمنزلة الوسطى دقيقة الوزن، حادة اللسان، صعبة المرتقى إلا على الحاذق الذكي»(١).

فما عساني أسطر وأحبر، وعباقرة الدهر بالعجز معترفون، وأفذاذ البشر في جلاله متحيّرون.

وقد لطف بي ربي المنعم المفضل والمحسن المجمل فبعث روحي وشرح قلبي فوفقني لأن أشرف قلمي بالحديث عنه عليه السلام فحرّر بناني (علي إمام الدين والدولة).

وقد قرأت عن عليٍّ كثيرًا مما سطره جهابذة العلم ورجال الحديث والشعراء الفطاحل المطبوعون، وأيقنت بعدما قرأت وكتبت أن (عليًّا) بعيد عن يد المتناول، ولم يَعْدُ ما سطروا أو صوروا لمحة خاطفة وومضة باهتة.

---

(١) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ٨/ ٤٥٣.

وعـلى افتتـانِ الواصـفينَ بوصـفِهِ تفنى النعوتُ وفيـه مـا لَمْ يُوصَـفِ

ورأيت ـ هنا ـ أن الأجدر تلاوة جمل من مسيرة حياته، ونبذ من أحواله وصفاته تنسجم والتقديم لوصيّته الباهرة.

علي في العالم الأعلى والملأ الأدنى:

ففي ذلك العالم خلقه باريه نورًا فجعله محدقًا بعرشه يلقن ملائكته الكرام التهليل والتسبيح والتكبير.

ولا يحيط بكنه ذلك العالم وسره إلا الله نور النور، وأنّى للملأ الأدنى الوقوف على حقيقته وغيبه إلا بالتلقي من مصدره.

وقد عرضت طرفًا من حديث من أطلعه مولاه على أمره فعرفه بسره، وذلكم أمين الله على وحيه حبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وآله[1].

وفي الملأ الأدنى:

١ ـ الإشارة وعظيم البشارة:

قال أبوعبد الله عليه السلام: «**إن فاطمة بنت أسد رحمها الله جاءت إلى أبي طالب رحمه الله تبشره بمولد النبي صلى الله عليه وآله فقال لها أبو طالب: اصبري سبتًا أبشرك بمثله إلا النبوة، وقال: السبت ثلاثون سنة، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام ثلاثون سنة**»[2].

(١) علي إمام الدين والدولة / ٢٩ ـ ٤٣.

(٢) بحار الأنوار ٣٥/ ١٣٧.

وعنه عليه السلام قال: «**كان حيث طلقت آمنة بنت وهب وأخذها المخاض بالنبي صلى الله عليه وآله حضرتها فاطمة بنت أسد امرأة أبي طالب، فلم تزل معها حتى وضعت، فقالت إحداهما للأخرى: هل ترين ما أرى؟ فقالت: وما ترين؟ قالت: هذا النور الذي قد سطع ما بين المشرق والمغرب، فبينما هما كذلك إذ دخل عليهما أبو طالب، فقال لهما: من أي شيء تعجبان؟ فأخبرته فاطمة بالنور الذي قد رأت، فقال أبو طالب: ألا أبشرك؟ فقالت: بلى، فقال: أما إنك ستلدين غلامًا يكون وصي هذا المولود**»[1].

٢ ـ الذي كان بيت الله مولده:

وذلك من خصائصه المفردة، لم يشركه سواه قبل وبعد:

قال الفقيه العالم الشيخ حسين نجف من مقطوعة فريدة:

جعـــلَ اللهُ بيتَــــهُ لعــــليٍّ ... مولـدًا يـا لـه عُـلًا لا يُضـاهى
لم يُشـــارِكْهُ في الـــولادةِ فيـــهِ ... ســـيدُ الرُّسْـــلِ لا ولا أنبياهـــا
وإلى الحـــشرِ في الطـــوافِ عليـــهِ ... وبـــذاك الطـــوافِ دامَ بقاهـــا[2]

وقد أبدع وألهم السيد رضا الهندي فقال:

لمـــا دعـــاكَ اللهُ قِـــدْمًا لِأَنْ ... تُوْلَـــدَ في البيـــتِ فلَبَّيْتَـــهُ
جَزَيْتَـــهُ بـــينَ قـــريشِ بـــأنْ ... طَهَّـــرْتَ مِـــنْ أصـــنامِهِمْ بَيْتَـــهُ

---

(١) بحار الأنوار ٣٥/ ٧٧.

(٢) الغدير ٦/ ٢٩.

وقد صدرتُ أبياته بتأملات ثمان. علي إمام الدين والدولة / ٩١ ـ ٩٢.

ولقد أولاها المؤرخون والباحثون والشعراء اهتمامهم وسجلت شطرًا من ذلك في:

(الحج معالمه ومعارفه)[١].

(علي إمام الدين والدولة)[٢].

وتحمل تلكم الولادة عمق وعظم الدلالة، فسبحان الحكيم واضع الأشياء مواضعها، وما أحظى المحبوّ وأكرمه على مولاه.

٣ ـ سنة الولادة الميمونة:

«ولقد هبط علي جبرائيل عليه السلام في وقت ولادة علي وقال لي: يا حبيب الله: إن الله يقرأ عليك السلام ويهنيك بولادة علي ويقول لك: قد قرب ظهور نبوتك وكشف رسالتك، وقد أيدتك بأخيك ووزيرك وخليلك وشددت به عضدك (أزرك) وأعلنت به ذكرك»[٣].

«لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبوابًا كثيرةً من النعمة والرحمة»[٤].

٤ ـ وعَلِقَ عليٌّ بمحمد:

«أجل هذا ما حبي به علي عليه السلام فقد شملته العناية الكبرى فغمرته بفيض من الرعاية.

---

(١) الحدث الأعظم / ٦٥ ـ ٧٨.

(٢) إطلالة الإشراقة / ٨٣ ـ ٩٨.

(٣) إحقاق الحق ٥/ ١٠، أوردها ابن حسنويه في كتابه (در بحر المناقب)، ورواها في بحار الأنوار ٣٥/ ١٩ ـ ٢٣ عن روضة (الكافي)، وروضة (الواعظين) وهي طويلة جليلة تجدر مراجعتها.

(٤) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٤/ ١١٥ .

فبعد أن مهدت له من الأسباب ما أوجب الانفراد في الامتياز، والتوحد في الاختصاص، تولت تربيته كما تشاء وبما تشاء، وعلى يد من تشاء، وسبحانه من حكيم يضع الأشياء مواضعها، ويحكمها كما يريد، وهو الحكيم الخبير»[1].

وقد أرخ الإمام عليه السلام فترة حياته الأولى بأروع تصوير وأصدق تعبير وأدق حكاية.

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله بِالْقَرَابَةِ القَرِيبَةِ وَالمَنْزِلَةِ الخَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ صلى الله عليه وآله مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ المَكَارِمِ وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ العَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نُورَ الوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الوَحْيُ عَلَيْهِ صلى الله عليه وآله فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ وَلَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ»[2].

---

(١) عليٌّ إمام الدين والدولة، التربية الإلهية / ١٠٥ ـ ١١٠ .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، خطبة رقم ١٩٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠١.

وكم هو هذا النص خصب بالتحليل، فيّاض بالمعاني الكبار، وبواعث الانبهار.

ولقد سبق لي أن حمت حوله في باكورة إنتاجي، وعدت لضفافه مرة أخرى.

ولا يسمح هذا التقديم بالإيغال في أبعاده مكتفيًا بالإحالة، مقتصرًا على هذه الوقفة:

«لئن قرن الله بنبيه صلى الله عليه وآله أعظم ملائكته منذ أن كان فطيمًا يسلك به طريق المكارم فلقد قرن الله بعلي أعظم أنبيائه وخاتمة رسله وسيد خلقه وبريته محمدًا صلى الله عليه وآله فكان ـ كما قال عليه السلام ـ يقفو أثره ويقتدي به ويلازمه»[١].

وبعد:

«أنا أديبُ الله وعليٌّ أديبي».

ربيبُ طـه حبيـبِ الله أنـت ومَـنْ كـان المـربِّي لـه طـه فقـد برعـا[٢]

أوَّليات ودلالات:

نسبر التأريخ، ونسير في سيرة حافلة بفيض المعطيات، تستوقف التأمل، وتسترعي الفكر، وتفضي بالتحليل لبلوغ أهدافها وغاياتها وبطولاتها وأبطالها.

يبزغ نور الإسلام في ربوع مكة، وفناء الكعبة ومواطن القدس ومولد الدين بدعوة للحق المحض والفكر الجديد، والشرع الفريد.

---

(١) علم الغيب عند الأئمة / ١٣٤، علي إمام الدين والدولة / ١٠٨.

(٢) من رائعة لعبد الباقي العمري.

والحق لا بد له من قوة، والدعوة لا محيص لها من ناصر ومؤازر، والكفر قد اعصوصب، وردة الفعل حمقاء شوهاء، فمن يا ترى البطل الفذ المضحي في نصرة ما يؤمن به من فكر ومعتقد غريبين في محيط الصدع بتلكم الدعوة الإلهية؟

أجل..

إنه أبو طالب (شيخ الأباطح) وإنه ابن أبي طالب ولا فسحة لاستعراض أحداث تلكم الحقبة وما ناءت به من خطوب جسام، وشؤون عظام.

وحسبي العرض الحثيث لمشاهد ومواقف معبرة تحمل في طياتها أنباء مثيرة وأعمالًا خطيرة، تدعو كل مفردة منها إلى البحث الدقيق والتأمل العميق، لدراسة ملابساتها واستكناه حقائقها.

وقد سبق لي الحديث عنها بتفصيلٍ ما في غضون كتابي (علي إمام الدين والدولة).

فإلى نبذة من تلكم السيرة والمسيرة في عرض موجز.

١ ـ أبو طالب حامي النبي وناصره:

وإنها الحقيقة التأريخية لا تشوبها شائبة، ولا يعتريها ريب، ولا يعرض فيها شك وإن استمات المغرضون وتكالب الحاقدون لطمسها وإطفاء نورها ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

فأبو طالب عليه السلام ناصر الإسلام الأول وشاعره الأمثل، وداعيته الأكمل.

ومواقفه في نصرة دين الله، ومواقفه في حماية رسول الله واستماتته في ذلك وبما يحمل من شامخ المقام، والإيمان الحق، واللباقة النادرة، والكياسة الباهرة سخّرها بأجمعها للدين وفي سبيله فجاد بالنفس والنفيس.

أجل: هبط الوحي الأمين من الله على رسوله «لما توفي أبو طالب رضي الله عنه نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد أخرج من مكة فليس لك بها ناصر، وثارت قريش بالنبي صلى الله عليه وآله»[١]، «وأقبل رسول الله حتى دخل المسجد ورآه أبو جهل فقال: يا معشر قريش هذا محمد وحده وقد مات ناصره فشأنكم»[٢].

وأما شعره فقد أفرغ فيه فكره، وسجل فيه تأريخ بزوغ فجر الإسلام وأيامه الحرجة الأولى بما أوتي من براعة وبلاغة وسعة أفق.

فكان شعره جيشًا وقوة دفاع تحوط الدين وترصد وقائعه وتدعو إليه، وتباهل من أجله.

فلا غرو لو حكم نجله الإمام بما قال فيه وعنه:

عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**كان أمير المؤمنين يعجبه أن يروى شعر أبي طالب وأن يُدَوّن، وقال: تعلّموه وعلّموه أولادكم فإنه كان على دين الله وفيه علم كثير**»[٣].

---

(١) بحار الأنوار ١٩/ ١٤.

(٢) بحار الأنوار ١٩/ ٧.

(٣) بحار الأنوار ٣٥/ ١١٥.

الموقف المعبر ليالي الشعب الرهيبة:

«وكان النبي صلى الله عليه وآله إذا أخذ مضجعه ونامت العيون جاءه أبو طالب فأنهضه من مضجعه وأضجع عليًا مكانه ووكل عليه ولده وولد أخيه، فقال علي عليه السلام يا أبتاه إني مقتول ذات ليلة، فقال أبو طالب:

اصبرنْ يا بني فالصبرُ أحجى   كلُّ حيٍّ مصيرُهُ لِشعُوبِ
قد بلوناك والبلاءُ شديدٌ   لفداءِ الحبيبِ وابنِ الحبيبِ
لفداءِ الأعزِّ ذِي الحسبِ الثا   قبِ والفناءِ الرحيب»[١]

أ رأيتم نظير هذه المفاداة، والروح الحانية، وتقديم فلذة كبده المميز حفاظًا على بقاء النبي صاحب الشريعة المرسل.

هذا شأن أبي طالب عليه السلام.

وأما علي الفادي فتخبره من جوابه لأبيه:

أتأمرني بالصبرِ في نصرِ أحمدٍ   فوالله ما قلتُ الذي قلتُ جازعا
ولكنني أحببتُ أن ترى نصرتي   وتعلمَ أني لَمْ أزلْ لك طائعا
وسعيي لوجهِ اللهِ في نصرِ أحمدٍ   نبيِّ الهدى المحمودِ طفلًا ويافعا[٢]

أجل.. والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

وبعد..

---

(١) بحار الأنوار ٣٥/ ٩٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٤/ ٦٤.

فهذه لمحة خاطفة، ونظرة سريعة تنمّ عما تضمّه جوانح بطل الأبطال (أبو طالب)عليه السلام، وتكشف عمق روح الإيمان والهمّ العظيم لحفظ نبي الإسلام والدين الذي صدع به.

وكم له من لداتها مواقف مشرفة وتفانٍ مستميت.

هـذه مـن عـلاه إحـدى المعـالي وعـلى مثلِهـا فقِـسْ مـا سـواها

٢ ـ فتى الإسلام شريك أمر نبيّه:

﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي * وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي * كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا * وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾[1].

عـليٌّ مـع الهـادي كشِـقَّي يَراعـةٍ همـا واحـدٌ في العـدِّ ليسـا بـإثنينِ

فتأريخ الإمام تأريخ الإسلام في نشوئه وارتقائه وتمام سيرته منذ فجر الدعوة حتى غروب شمس الرسالة.

وحسبي أن أقف هنيئة عند حدث (مفتتح الدعوة) وحديث الإنذار، ثم أسرد مجملًا جملة من مواطن التفاني في النصرة وشركة الأمر.

الإنذار يوم الدار:

قال الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله:

«**يا بني عبدالمطلب إني والله ما أعلم شابًّا من العرب جاء قومه بأفضل ما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وإن ربي أمرني أن أدعوكم،**

---

(١) سورة طه / ٢٩ ـ ٣٥.

فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعًا، وإني لأحدثهم سنًا، فقلت: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي، ثم قال: هذا أخي ووصيي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

ثم قام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيع»[(١)].

فماذا تعني دعوة (بني عبدالمطلب)؟ وكم هو عمر الإمام مقارنًا بعمر المشيخة والقوم؟ وما هو الوسام؟

إنها المشاركة في الأمر، والمشاطرة في القضية الإلهية الكبرى، وإنها (الإمامة) والاستخلاف، وكما قلت:

«ويدل دلالة جلية على أن نجم الخلافة سيلمع لو آذنت آنذاك شمس النبوة بالغروب»[(٢)].

وقد عني الباحثون بتوثيقها سندًا ودلالة، وأولوها اهتمامًا خاصًا وأفاضوا في تحليلها وتجليتها.

فدونك ما دونه المفسرون، وحررها المحدثون، ونظمه الشعراء، وسجلها المؤرخون من مسلمين وغيرهم.

---

(١) إحقاق الحق ١٥/ ١٤٦.

(٢) علي إمام الدين والدولة / ١٢٧.

ولقد عرضت لاستنطاق مفرداتها، وجمع جملة من مآثرها مما لا مجال لاستيعابه هنا محيلًا لراغب الوقوف على الحقائق الرجوع إليها[1].

السجل الحافل

«أتت فاطمةعليها السلام النبيصلى الله عليه وآله فذكرت عنده ضعف الحال، فقال لها: أما تدرين ما منزلة علي عندي؟ كفاني أمري وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وضرب بين يدي بالسيف وهو ابن ست عشرة سنة، وقتل الأبطال وهو ابن تسع عشرة سنة، وفرج همومي وهو ابن عشرين سنة، ورفع باب خيبر وهو ابن اثنين وعشرين سنة وكان لا يرفعه خمسون رجلا، قال: فأشرق لون فاطمةعليها السلام ولم تقر قدماها حتى أتت عليًّاعليه السلام فأخبرته، فقال: كيف لوحدثك بفضل الله علي كله؟»[2].

ورحم الله الصاحب بن عباد:

مَـــنْ لـــه في كـــلِّ يـــومٍ وَقَفَـــــاتٌ لا تُضـــــاهى
كـــم وكـــم حـــرب عصـــامٍ قَـــدَّ بالصمصـــامِ فاهـــا
حالُـــــهُ حالَـــــةُ هـــــارو نَ لموســــى فافهماهـــــا[3]

وقال السيد رضا الهندي رحمه الله:

(١) علي إمام الدين والدولة / ١١٤ ـ ١٣١.
(٢) بحار الأنوار ٤٠/ ٦.
(٣) تحت راية الحق / ١١٣ ـ ١١٤.

إِنْ كنـــتَ لجهلِـــكَ بالأيّـــامِ جَحَـــدْتَ مقـــامَ أبي شُـــبّرْ
فاســأَلْ بــدرًا واســأَلْ أُحــدًا وسَلِ الأحزابَ وسَـلْ خيـبرْ
مَنْ هَدَّ حصونَ الشركِ ومَـنْ شـادَ الإسـلامَ ومَـنْ عَمَّـرْ

قال عليه السلام: «**ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أني لم أردّ على الله ولا على رسوله ساعة قط، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص منها الأبطال، وتتأخر فيها الأقدام، نجدة أكرمني الله بها**»[1].

«وسجّل التأريخ عليًّا صورة نادرة لنصرة الحق والاستماتة في سبيله من منطلق قويم وإعداد إلهي لبطل يأتي تاليًا لنبيه العظيم فلا غرو لو انصهرت ذاته بذاته فاتحدتا»[2].

الأخلاق الربانية:

وخلائق المرء حكاية ذاته، وترجمة ملكاته، ومرآة نفسه، ودلائل انصهاره بهدي ربه، وبرهان مدى إجلاله لمولاه، وصدق عبادته له، وحق انقياده وإطاعته في كافة شؤونه يسره وعسره، وسلمه وحربه، وتماسك شخصيته في كل ما يتبلى فيه بأمره.

وعلي عليه السلام المثل الأروع، والأنموذج الأمثل، والإنسان الأكمل في كافة مواقفه، وما حفلت به أيامه في عموم أدوار حياته.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٧/ ٣١١.
(٢) علي إمام الدين والدولة / ١٣١.

فلنقرأ عليًّا الإمام في تحليه بأدب ربه ﷻ لنقف على شواهد ومشاهد ومواطن ومواقف تنم عما تزخر بهما ذاته القدسية، وخبيئته الروحية.

وإني في حيرة أ أطنب أم أجمل في المقال؟ غير أني أرى في الإجمال بلوغ الغاية حيث الإطناب بمنأى عن الإدراك، فإليك من ذلكم شذرات معبرات:

الأولى: الاقتداء بالله:

«يا عجبًا للناس قد مكنهم الله من الاقتداء به، فيدعون ذلك إلى الاقتداء بالبهائم»[1].

فالمولى ﷻ هو الكمال المطلق، وقد أبدع ـ سبحانه ـ الإنسان وكرمه فوهبه العقل ومنحه الاختيار والنزوع إلى الكمال بما يتسامى به على مقام الملائكة.

ومحور ذلك الاستجابة الحقة الخالصة المطلقة لتربيته ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[2].

فيسعى جاهدًا للتحلي بشرف العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[3]، وبالعدل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[4]، وبالتقوى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠/ ٣٣٢.

(٢) سورة الأنفال / ٢٤.

(٣) سورة طه / ١١٤.

(٤) سورة المائدة / ٨.

تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[١]، وبالاستقامة ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾[٢]، وبالتخلّي عن النقائص ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾[٣]، وعن الظلم ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[٥]، فكل خير من الله وكل شر من الشيطان، ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾[٦]، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾[٧].

فمن حاد عن الجادة القويمة والطريق اللاحب ضلّ سواء السبيل سواءٌ اقتدى بمن ينطق عن الشيطان أو حاكى البهائم من الأنعام.

بل ربما انحدر إلى الحضيض فهو من العجل أخس منزلة، ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ

---

(١) سورة آل عمران / ١٠٢.

(٢) سورة هود / ١١٢.

(٣) سورة الحجرات / ٧.

(٤) سورة البقرة / ٢٢٩.

(٥) سورة المائدة / ٩٠ ـ ٩١.

(٦) سورة الزخرف / ٣٦.

(٧) سورة يونس / ٣٢.

أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[١].

الثانية: الاقتداء بالنبي والإمام عليهما السلام:

أ) ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٢]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣].

ب) ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٤].

«أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»[٥].

الثالثة: صورتان من عدله عليه السلام:

أ) **«وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّدًا أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلَالِ مُصَفَّدًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ العِبَادِ وَغَاصِبًا لِشَيْءٍ مِنَ الحُطَامِ وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى البِلَى قُفُولُهَا وَيَطُولُ فِي الثَّرَى**

---

(١) سورة الفرقان / ٤٤.

(٢) سورة الحشر / ٧.

(٣) سورة الأحزاب / ٢١.

(٤) سورة الإسراء / ٧١ ـ ٧٢.

(٥) نهج البلاغة، كتاب رقم ٤٥/ ٤١٧.

حُلُوهُا وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعًا وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ غُبْرَ الأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّدًا وَكَرَّرَ عَلَيَّ القَوْلَ مُرَدِّدًا فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقَتِي فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا فَقُلْتُ لَهُ ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ أَ تَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ أَ تَئِنُّ مِنَ الأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظَى وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا فَقُلْتُ أَ صِلَةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ البَيْتِ فَقَالَ لَا ذَا وَلَا ذَاكَ وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ فَقُلْتُ هَبِلَتْكَ الهَبُولُ أَ عَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي أَ مُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا»[1].

ب) شكاية سودة بنت عمارة واليه وعزله:

فمن حديثها مع معاوية: «والله لقد جئته ـ تعني أمير المؤمنينعليه السلام ـ في رجل كان قد ولاّه صدقاتنا، فجار علينا.

فصادفته قائمًا يصلّي، فلما رآني انفتل من صلاته ثم أقبل عليّ برحمة ورفق

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٢٤/ ٣٤٦.

ورأفة وتعطّف وقال: أ لك حاجة؟ قلت: نعم، فأخبرته الخبر. فبكى ثم قال: «اللهم أنت الشاهد عليّ وعليهم، وأني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا بترك حقك».

ثم أخرج قطعة جلد فكتب فيها: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فإذا قرأت كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك. والسلام».

ثم دفع الرقعة إلي، فوالله ما ختمها بطين، ولا خذمها، فجئت بالرقعة إلى صاحبه، فانصرف عنّا معزولًا»(١).

الرابعة: من خلقه مع أعدائه وأوليائه:

أ) مع عائشة:

«على أن أمير المؤمنين عليه السلام أكرمها وصانها وعظم من شأنها ومن أحب أن يقف على ما فعله معها فليطالع كتب السيرة ولو كانت فعلت بعمر ما فعلت به وشقت عصا الأمة عليه ثم ظفر بها لقتلها ومزقها إربًا إربًا ولكن عليًّا كان حليمًا كريمًا»(٢).

---

(١) كشف الغمة ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٧/ ٢٥٤.

ب) ومع أبي هريرة:

«وجاءه أبو هريرة ـ وكان تكلم فيه وأسمعه في اليوم الماضي ـ وسأله حوائجه فقضاها، فعاتبه أصحابه على ذلك، فقال: إني لأستحي أن يغلب جهله علمي، وذنبه عفوي، ومسألته جودي»(١).

ج) وحتى مع معاوية:

«إن معاوية كان يرسل ليسأل عليًّا عن المشكلات فيجيبه، فقال له أحد بنيه: تجيب عدوك!، قال: أما يكفينا أن احتاجنا وسألنا»(٢).

د) ومع غلامه:

«ودعا عليه السلام غلامًا له مرارًا فلم يجبه، فخرج فوجده على باب البيت، فقال: ما حملك على ترك إجابتي؟ قال: كسلت عن إجابتك وأمنت عقوبتك، فقال: الحمد لله الذي جعلني ممن يأمنه خلقه، امض فأنت حر لوجه الله»(٣).

هـ) ومع خاصة أهله:

«وعن أم عثمان أم ولد علي قالت: جئت عليًّا وبين يديه قرنفل مكتوب في الرحبة، فقلت: يا أمير المؤمنين هب لابنتي من هذا القرنفل قلادة، فقال: هاك ذا. ـ ونفذ بيده إليَّ درهمًا ـ فإنما هذا للمسلمين أولًا، فاصبري حتى يأتينا

---

(١) بحار الأنوار ٤١/ ٤٩.

(٢) إحقاق الحق ٨/ ٢٤٣.

(٣) بحار الأنوار ٤١/ ٤٨.

حظنا منه، فنهب لابنتك قلادة»[١].

الخامسة: برنامجه كل غداة:

«عن أبي جعفرعليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليعليه السلام كل بكرة يطوف في أسواق الكوفة سوقًا سوقًا ومعه الدرة على عاتقه، وكان لها طرفان وكانت تسمى السبية، فيقف على سوق سوق فينادي: يا معشر التجار قدّموا الاستخارة، وتبرّكوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزيّنوا بالحلم، وتناهوا عن الكذب واليمين، وتجافوا عن الظلم، وأنصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين، يطوف في جميع أسواق الكوفة فيقول هذا، ثم يقول:

تفنى اللذاذةُ ممن نال صفوتَها … من الحرامِ ويبقى الإثمُ والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ في مغبّتِها … لا خيرَ في لذةٍ من بعدِها النارُ»[٢]

السادسة: رد ساعي السوء:

عن موسى بن جعفر، عن آبائهعليهم السلام قال: قال الحسينعليه السلام: **«جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليعليه السلام يسعى بقوم، فأمرني أن دعوت له قنبرًا، فقال له عليعليه السلام:**

---

(١) بحار الأنوار ٤١/ ١١٥.

وجاء في الهامش:

القرنفل: ثمر شجره كالياسمين، نبات بستانيّ طيّب الرائحة، واكتتب القربة ونحوها خرزها بسيرين.

(٢) بحار الأنوار ٤١/ ١٠٤.

اخرج إلى هذا الساعي فقل له: قد أسمعتنا ما كره الله تعالى فانصرف في غير حفظ الله تعالى»[١].

السابعة: رقّة على الأيتام:

«جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام عسل وتين من همدان وحُلْوان[٢]، فأمر العرفاء أن يأتوا باليتامى، فأمكنهم من رؤوس الأزقاق يلعقونها، وهو يقسمها للناس قدحًا قدحًا، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما لهم يلعقونها؟ فقال: إن الإمام أبو اليتامى، وإنما ألعقتهم هذا برعاية الآباء»[٣].

ما إِنْ تأَوَّهْتُ مِنْ شيءٍ رُزِئْتُ بـهِ ... كـما تَأَوَّهْـتُ للأيتـامِ في الصِّـغَرِ
قد ماتَ والدُهُمْ مَنْ كان يكفلُهُـمْ ... في النائبـاتِ وفي الأسـفارِ

الثامنة: سياسة ورعاية:

«استعملني علي بن أبي طالب عليه السلام على بانقيا وسواد من سواد الكوفة، فقال لي والناس حضور: انظر خراجك فجد فيه، ولا تترك منه درهمًا، وإذا أردت أن تتوجه إلى عملك فمرّ بي، فأتيته فقال لي: إن الذي سمعت مني

---

(١) بحار الأنوار ٤١/ ١١٩.

(٢) همدان اليمن، أو (همذان) بالمعجمة: مدينة من بلاد فارس، ولعله الأرجح لوقوعها مع (حُلْوان) على طريق واحد.

حُلْوان: وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد... وأكثر ثمارها التين... ويسمّونه لجودته (شاه انجير) أي ملك التين. معجم البلدان ٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٣) بحار الأنوار ٤١/ ١٢٣.

(٤) بحار الأنوار ٤١/ ١٠٤.

خدعة، إياك أن تضرب مسلمًا أو يهوديًّا أو نصرانيًّا في درهم خراج، أو تبيع دابّة عمل في درهم، فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو»[١].

التاسعة: لطف روحه الشريفة:

«ورئي أمير المؤمنين عليه السلام حزينًا، فقيل له: ممّ حزنك؟ قال: **لسبع أتت لم يضف إلينا ضيف**»[٢].

العاشرة: غاية النبل وكمال الشرف:

«عن الحارث الهمداني قال: سامرت أمير المؤمنين عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين عرضت لي حاجة، قال: **ورأيتني لها أهلًا؟** قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، قال: **جزاك الله عني خيرًا**، ثم قام إلى السراج فأغشاها وجلس، ثم قال: **إنما أغشيت السراج لئلا أرى ذلّ حاجتك في وجهك فتكلم، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الحوائج أمانة من الله في صدور العباد فمن كتمها كتب له عبادة، ومن أفشاها كان حقًّا على من سمعها أن يعينه**»[٣].

الحادية عشرة: حسن الصحبة وجميل العشرة:

«جعفر عن أبيه عليه السلام أن عليًّا عليه السلام صاحب رجلًا ذمّيًّا، فقال له الذمي: أين تريد يا عبد الله؟ قال: **أريد الكوفة**، فلما عدل الطريق بالذمي عدل معه علي،

---

(١) بحار الأنوار ٤١/ ١٢٨.

(٢) بحار الأنوار ٤١/ ٢٨.

(٣) الكافي ٤/ ٢٤.

فقال له الذمي: أليس زعمت تريد الكوفة؟ قال: **بلى**، فقال له الذمي: فقد تركت الطريق، فقال: **قد علمت**، فقال له: فلم عدلت معي وقد علمت ذلك؟ فقال له عليعليه السلام: **هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه وكذلك أمرنا نبينا**، فقال له: هكذا؟ قال: **نعم**، فقال له الذمي: لا جرم إنما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أشهدك أني على دينك، فرجع الذمي مع عليعليه السلام، فلما عرفه أسلم»[١].

الثانية عشرة: وكان همه حمل ولاته والكافة على خلائقه:

أ) إلى ابن عباس واليه على البصرة:

«فَارْبَعْ[٢] أَبَا العَبَّاسِ، رَحِمَكَ اللهُ، فِيمَا جَرَى عَلَى يَدِكَ وَلِسَانِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذلِكَ، كُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلاَ يَفِيلَنَّ رَأَيِي[٣] فِيكَ، وَالسَّلاَمُ»[٤].

ب) إلى عثمان بن حنيف واليه على البصرة:

وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها، فمضى إليها، وهي رسالة

---

(١) بحار الأنوار ٤١/ ٥٣.

(٢) قال الشيخ المجلسيرحمه الله: فأربع: أي توقّف وتثبّت فيما تفعل، والمراد بالشر الضرر لا الظلم وإن احتمله. بحار الأنوار ٣٣/ ٤٩٤.

(٣) وقال الجوهري: فال الرأي يفيل فيولة: [ضعف وأخطأ]. بحار الأنوار ٣٣/ ٤٩٥.

(٤) نهج البلاغة، كتاب رقم ١٨/ ٣٧٦.

عجيبة[١] طفحت معارف ولطائف في شؤون من الأخلاق والاجتماع تتخللها إشارات وذكريات وتعريض ومواعظ وتذكير.

كما أنها ترسم شخصية الإمام وتعرض فكره وروحه وأحاسيسه وذوبانه في الحق وللحق، فصلى الله على ذاته الطيبة.

ج) وإلى أمرائه على الجيش:

«فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الوَالِي أَلاَّ يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَلاَ طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفًا عَلَى إِخْوَانِهِ»[٢].

د) وإلى مالك الأشتر في عهده الجامع:

«وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ الإِقَامَةِ عَلَى العُذْرِ الوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي العِبَادِ وَجَمِيلِ الأَثَرِ فِي البِلَادِ وَتَمَامِ النِّعْمَةِ وَتَضْعِيفِ الكَرَامَةِ وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ»[٣].

هـ) ولمحمد ابنه في حرب الجمل:

«أقدم بها حتى تركزها في عين الجمل، فرشقته السهام وأنفذ إليه أبوه يستحثه حتى جاء بنفسه من خلفه فوضع يسراه على منكبه الأيمن قائلًا: أقدم

---

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم ٤٥/ ٤١٦ ـ ٤٢٠.

(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٠/ ٤٢٥.

(٣) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣/ ٤٤٥.

لا أم لك، فكان محمد يبكي كلّما ذكر ويقول: لكأني أجد ريح نفسه في قفاي والله لا أنسى ذلك أبدًا.

ورقّ عليه أبوه فتناول الراية وارتجز

اطعن بها طعنَ أبيكَ تُحْمَدِ

وصنع ما يصنع من العجائب ثم قال لولده: هكذا تصنع يابن الحنفية»[١].

قال خزيمة بن ثابت لعلي عليه السلام: أما إنه لو كان غير محمد اليوم لافتضح، ولئن كنت خفت عليه الجبن وهو بينك وبين حمزة وجعفر لما خفناه عليه، وإن كنتَ أردت أن تعلمه الطعان فطالما علمته الرجال[٢].

وفي بعض نصوص الحرب: «فغضب أبي عليه السلام وقال: **أقول لك تقدم فتقول: على الأسنة، ثق يا بنيّ وتقدم بين يدي على الأسنة، وتناولَ الراية مني وهرولَ بها، فأخذتني حدة فلحقته وقلت: أعطني الراية، فقال لي: خذها، وقد عرفتُ ما وصف لي»**[٣].

والحديث في عناية الإمام بابنه وتعليمه فن القتال أوسع من ذلك، ومن ذلك ما جرى في صفين:

فقد وجهه في الحرب وأمره بمقارعة الأبطال مرارًا وتكرارًا حتى أثخنته الجراح، فقام إليه أبوه وقبّل ما بين عينيه وقال له: فداك أبوك فقد سررتني يا

---

(١) المجالس السنية ١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠ ملخصًا.

(٢) شرح نهج البلاغة ١/ ٢٤٥.

(٣) مصنفات الشيخ المفيد (الجمل) ١/ ٣٦٠.

بني بجهادك هذا بين يدي، إلى آخر ما قال عليه السلام: **يا بني أنت ابني وهذان ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله، أفلا أصونهما عن القتل**، فقال: بلى يا أبتاه جعلني الله فداك وفداهما من كل سوء[1].

الثالثة عشرة: آهة علي وحسرته:

«أيها النَّاسُ إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ المَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا، للهِ أَنْتُمْ أَ تَتَوَقَّعُونَ إِمَامًا غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ»[2].

«أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الحَقِّ أَيْنَ عَمَّارٌ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى المَنِيَّةِ وَأُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَى الفَجَرَةِ.

قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الكَرِيمَةِ فَأَطَالَ البُكَاءَ، ثُمَّ قَالَ عليه السلام:

أَوِّهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا القُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوا الفَرْضَ فَأَقَامُوهُ أَحْيَوُا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا البِدْعَةَ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ.

ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ:

الْجِهَادَ الجِهَادَ عِبَادَ اللهِ أَلَا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يومِي هَذَا فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى

---

(١) بحار الأنوار ٤١/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٢/ ٢٦٣.

الله فَلْيَخْرُجْ»[١].

٢ـ «عن أبي صالح الحنفي قال: رأيت عليًّا عليه السلام يخطب وقد وضع المصحف على رأسه حتى رأيت الورق يتقعقع على رأسه، قال: فقال: **اللهمَّ قد مَنَعُوني ما فيهِ فأَعْطِني ما فيه، اللهمَّ قد أَبْغَضْتُهُمْ وأَبْغَضُونِي، ومَلَلْتُهُمْ ومَلُّوني، وحَمَلُوني على غيرِ خُلُقِي وطَبيعَتِي وأخلاقٍ لم تكنْ تُعْرَفُ لي، اللهمَّ فأَبْدِلْنِي بِهِمْ خيرًا منهمْ، وأَبْدِلْـهُمْ بي شرًّا مني، اللهمَّ مثْ قُلُوبَهُمْ كما يُماثُ المِلْحُ في الماء**»[٢].

وما تلكم الآهات والحسرات إلا حكاية الذات القدسية وتربيتها الربانية وبطلها الإلهي.

سيان أمرها في سلم أو حرب، فليس لها من هم إلا حمل الخلق على الحق، وحملهم على المحجة والصراط المستقيم، وما وصيته الشريفة التي نحوم حول معارفها وغرر لطائفها إلا من رشح نفسه، ونضح خلائقه، وترجمة من سيرته، وحكاية سريرته.

فاقرأ واعجب لتفانيه في الله فهو الممسوس في ذات الله، وفي رحمة عباده ليتبوؤا مقاعدهم في جنان الخلد.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٢/ ٢٦٤.

(٢) الغارات ٢/ ٤٤٩ ـ ٤٥٨، ووردت في جامع أحاديث الشيعة ١٩/ ٢٢٦ معقّبة بـ«قلت: وروى صاحب كتاب التبر المذاب عن علماء الشافعية نظير هذا الفعل من أبي عبد الله عليه السلام في يوم عاشوراء»، وعن مستدرك الوسائل ٤/ ٣٩٢.

وقد جاءت الرواية في مصادر عدة بتفاوت ما، فذكرها في أنساب الأشراف ١/ ٢٠٠ وأعلام النبلاء ٣/ ١٤٤ كما أورد شطرًا منها ونحوها الشريف الرضي في نهج البلاغة.

استبطأ أصحابه أذنه في القتال بصفين، فأبان لهم جوهر روحه، ولطف نفسه وشريف مقاصده:

«أَمَّا قَوْلُكُمْ أَ كُلَّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ المَوْتِ فَوَاللهِ مَا أُبَالِي دَخَلْتُ إِلَى المَوْتِ أَوْ خَرَجَ المَوْتُ إِلَيَّ وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكًّا فِي أَهْلِ الشَّامِ فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الحَرْبَ يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا»[1].

وبعد فهذه صورة معبرة لما تحمله خلائقه من معان كبار باعثة الانبهار، أقامها باريها برهانًا لقدرته، وغامر فيضه وحكيم اختياره لمن يخلف رسوله في إقامة دينه وإحياء أمره وحماية حقوقه وحدوده.

فلم تكُ تصلحُ إلا لهُ ــــ ولم يكُ يصلحُ إلا لها

ولو قلَّدُوا الموصى إليه زمامها ــــ لَزُمَّتْ بمأمونٍ من العثراتِ[2]

وقد تناولت حديث مدرسة الأخلاق العلوية في ما أوعيته في (الأخلاق من نهج البلاغة).

فما أجلَّ من أعطى وما أعطى، وما أكرم الُمعطَى على واهبِه، منزلةً ومقامًا!!!

وصلوات الله على روحه الكريمة، وخلقه العظيم، وكماله الباهر، وسره المعجز المحير.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٥٥/ ٩١.

(٢) من تائية دعبل بن علي الخزاعي.

المحور الثالث: الإمام الموصى إليه المجتبى

زيارة الإمام الحسن عليه السلام يوم الاثنين:

«السَّلامُ عَلَيْكَ يَابْنَ رَسُولِ رَبِّ العالَمينَ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يَابْنَ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يَابْنَ فاطِمَةَ الزَّهْراءِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا حَبيبَ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا صِفْوَةَ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا أَمينَ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا حُجَّةَ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا نُورَ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا صِراطَ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا بَيانَ حُكْمِ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا ناصِرَ دينِ اللهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها السَّيِدُ الزَّكِيُّ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها البَرُّ الوَفِيُّ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها القائِمُ الأَمينُ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها العالِمُ بِالتَّأْويلِ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الهادِي المَهْديُّ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الطّاهِرُ الزَّكِيُّ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها التَّقِيُّ النَّقِيُّ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الحَقُّ الحَقيقُ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الشَّهيدُ الصِّدِّيقُ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا أَبا مُحَمَّد الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ ورَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ».

جمال الأسبوع، لابن طاووس / ٣٩

وهو عليه السلام سبط الرسول الأول، والإمام الثاني، ثمرة النبوة والإمامة، وريحانة جده وسيد شباب أهل الجنة.

بزغ نوره في بيت الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي والتنزيل، وتربى في حجر النبوة والإمامة، ورضع من ثدي العصمة والطهارة.

«وأعظم بإنسان جده محمد، وأبوه علي، وأمه فاطمة، وأي فخر بعد هذا

لمفتخر، وأي مجد بعده لإنسان»(١).

اقترنت وما انفكت حياته عن حياة جده سيد المرسلين وأبيه سيد الوصيين وأمه سيدة نساء العالمين، ثم شفع بأخيه سيد الشهداء أجمعين.

وكان لأمين وحي الله جبرائيل ميزة الاختصاص وشرف الهبوط والعروج والزهو والافتخار بأنه سادس أصحاب الكساء.

والحديث عن (كريم آل محمد) سخي، واستيفاؤه بما يليق عصي، وعرض النماذج نهج مرضي، وعذرًا نرجو الكريم قبوله.

البند الأول: ميزة الانفراد في الحديث عن الأئمة:

وتلكم سمة لافتة، واختصاص منحصر في سادات البشر، فالتأريخ رصد وحكاية ليوميات المترجم، وأحداثه الصادرة عنه، وما يملكه من مؤهلات، وما حققه أو أخفق فيه، وعلى ذلك جرى التدوين والتقييم.

وأما الحديث عن (الأئمة الكرام) فيمتاز بالإشادة قبل الولادة، وعن الغيب قبل الشهود، وببيان الوظيفة قبل وقوع حدوثها.

والباحث المتتبع في مجاميع الأحاديث الإسلامية كافة يقف على فيض من روايات عوالم الخلق الأول والملأ الأعلى، كـ(حديث النور) و(انعقاد النطفة المباركة) و(أسماء الأئمة) و(توسل الأنبياء بهم) وعدتهم، و(المهدي آخرهم).

---

(١) العلامة المرحوم السيد محمد جواد فضل الله.

وكذلك ما يجري من خطوب وفوادح على الإمام الحسين السبط وشهادته قبل ولادته، وشؤون جمة في حياة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

القرآن الكريم برهان الحقائق:

وقد تنزلت آياته مقررة لتلكم السمة التي خص بها الأفذاذ:

﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[1].

وفيما حكاه القرآن الكريم عن بشارة عيسى عن النبي العظيم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[2].

وفيما شرحه من شأن نبي الله ـ عيسى ـ وعجيب أمره:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا * يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ

---

(١) سورة مريم / ٧.

(٢) سورة الصف / ٦.

سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(١).

وأقف خاشعًا لجلال كلمات الله في السيد المسيح روح الله وابن الطاهرة مريم، فالله عزّ وجلّ هو الواهب، ومن هباته ومواهبه أنه أنطق (كلمته) وبماذا؟

بالإذعان أولًا بالعبودية ثم بالمنح العظمى وما تحمل من علم المولى وسخي عطاياه من النبوة والكتاب ومحاسن العبادة ومكارم الأخلاق فحق له السلام عليه السلام يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا.

وكم في قرآن الله ووحيه من ركائز الاعتقاد على هذه الشاكلة.

وما تَنَزُّلُ آيات الله في الأئمة الهداة إلا إعلانًا لتلكم الحقيقة: ميزة الانفراد.

وقد انبرى عدة من أعلام الإسلام لجمع (ما نزل من القرآن في حق أهل البيت).

وهذا ما حفل به القرآن الكريم في إجلاله لِعِدْلِه القويم، والثقل الآخر، كتاب الله وعترة رسول الله إمامان وثقلان وخليفتان لا يفترقان حتى يردا على الله وعلى رسوله يوم الحشر الأعظم والعرض الأكبر.

---

(١) سورة مريم / ١٩ ـ ٣٣.

وبعد..

فهذه خاطرة سنحت توًا، وسأعود إليها ـ إن شاء الله ـ في غضون البند الآتي، وهي فيما أحسب جديرة بالتأمل والتملي والله الهادي.

البند الثاني: الإمامة وكمالاتها:

والإمامة الإلهية الكبرى تالية للنبوة الإلهية العظمى فكلتاهما من الله ونصه وتعيينه ابتداءً وامتدادًا.

وقضية الإمامة ركيزة الاختلاف الفكري بين طوائف المسلمين، فهي أصل من الأصول الذي تتشعب منه كافة الفروع (فمرجع الخلاف إلى الخلافة).

و(الإمامية) ترى أن (الإمامة) مقام شامخ تعني القيام بأمر الله عقيب دور النبوة، وتمثل السفارة الربانية، والقيام بهداية الخلق إلى الحق.

وبطلها والقائم بأعبائها من استجمع كمالاتها، وتحلى بآلاتها، وكفؤها من علم الله ﷻ صلاحه لحمل أمانته الكبرى، وثقلها الأعظم، وتحلّى بكل ما يحقق الغاية من نصبه وأقامته.

فكان من قوامها إطلاع المولى على سريرة العبد وقدس الذات وامتيازه عن الكافة في الفضائل والفواضل التي يتفاوت فيها بنو البشر.

فكانت (العصمة)، و(العلم والإيمان)، و(الشجاعة)، و(العدالة) من ضروريات توفر المنصب الأسمى وتحلي المتولي للأمر على كمالها والاتشاح بأبرادها.

وجلال (الإمامة) وعظيم خطرها ودورها والقيام بوظائفها تقضي بذلك.

ومن ثم أوكل أمرها إلى الله وحده، واختياره ـ سبحانه ـ على حذو شأن (النبوة) وجلالها.

فهو ـ جلّت حكمته ـ المطلع على السرائر، العالم بالضمائر، وقدرات خلقه في الوفاء بأمره ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1] وهو الحكيم العليم.

و(الانسجام) يقضي بذلك ويحكم به، وإلا لاعتلّت القضية ولم يتحقّق الغرض.

فذلكم (قرآنه) ووحيه وتنزيله تبيانًا لكل شيء والحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كيف وهو تنزيل الحكيم الحميد.

وهذا صفوة خلقه وخير بريته وأفضل رسله هو المتنزل على قلبه والصادع بحكمه، وخاتم أنبيائه فلا نبي سواه كما لا قرآن غير ما أوحي إليه.

فمن ذا الذي يقوى على خلافته وحفظ أمانته، وحمل الأمة على جادته؟!

أجل.. لا يقوم بأمره إلا من هو نفسه القادر على النهوض بقضيته وترجمان ما حمله عن ربه ـ تباركت آلاؤه.

وقد كشف عن ذلك في مواقف ومشاهد، وكفى بحديث (الثقلين) برهانًا وحجة حق لا ريب فيها ولا شك يعتريها.

---

(١) سورة الملك / ١٤.

«إني مخلف فيكم الثقلين: (كتاب الله) و(وعترتي أهل بيتي) ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما».

وبذلك تتجلى حقيقة النص الإلهي والاختيار الرباني للاضطلاع بالنبوة والإمامة.

ولأجل ذلك تواتر الذكر الحكيم في الجهر والإفصاح عن تلكم الذوات العاليات وبيان علو شأنها وجلال موقعها في بناء الدين العظيم الخاتم.

والمؤمن المنصف السوي يقرأ حديث (الله) عن أوليائه وخزنة علمه وموضع سره وتراجمة وحيه وعدل كتابه.

فآيات (المباهلة) و(التطهير) و(الولاية) و(إكمال الدين) و(من عنده علم الكتاب) ألسنة حق بالتعريف بسادة الخلق وهداتهم إلى الحق.

الإشادة والألطاف:

وتنسجم الإشادة الإلهية بالصفوة المنتجبة والمقام الذي يتبوّؤونه حيث كانوا في سابق علمه ـ سبحانه ـ الوجهاء عنده والكرام لديه والمقربين من ساحة قدسه.

فملأ بشريف ذكرهم سماواته وجعلهم بعرشه محدقين، قبلة لملائكته ووسيلة لأنبيائه، بعد أن عرّفهم بجلال مقامهم وسمو محلهم، وأوقفهم على ما يجري عليهم.

ومن اللافت الطريف أن تقرأ تفصيل ما أشرتُ، وبيان ما أَثَرْتُ في مجاميع حديث المدرستين وزبر الفريقين مما لو جمع لكان سفرًا فخمًا ضخمًا.

ومكمن السر وجوهر الأمر: الاصطفاء لذوات مميزة بالانفراد بالكمالات تولى مولاها الإشادة بها والتعريف بشأوها في أرضه وسمائه، فأوقف أولياءه على حقها وحقيقتها وأنها المدخرة لحفظ دينه وإقامة حكمه وسوق خلقه إلى جنته.

وتنسجم الألطاف مع ثقل الأمانة وإقامة الحجة وسعة الأمر وحاجة العبد إلى مدد الرب في كل ما أنيط به وأوكل إليه، فلا يخذله ولا يسلمه، بل يواتر عليه ألطافه وإتحافه فهو ﷺ الذي أقامه دون سواه مقامًا يظهر فيه حقه، وبرهانًا يتجلى فيه صدقه، ولسانًا يعبر عنه، ودليلًا يدل عليه، ومظهرًا لعلمه وقدرته وحكمته، ومسدّدًا في كافة شؤونه، وإلا لانتقض الغرض وعري عن الحكمة.

وحاشا لله ـ جلّت حكمته ـ أن يفعل ما لا يليق بجلاله وكماله.

هذه مقولة (الإمامية الاثني عشرية) وخلاصة رأيها.

وأما الطائفة الأخرى فلا ترى شيئًا من ذلك بل تعتبر (الإمامة) من فروع المسائل، وأمرها إلى الناس أنفسهم يختارون الذوات والصفات على تفاوت واختلاف بينهم في الشروط والمقاييس والمقدمات والنتائج.

ولقد أفصح عن ذلك ما دونوه في كتب الاعتقاد وحرروه في صحف التأريخ وصححوه في سيرة من تولى أمر الإمامة وحكم الأمة وأذعنوا لسلطانه.

وبعد..

(فالإمامة) إلهية عند الإمامية، وبشرية عند غيرهم ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

البند الثالث: الحسن المجتبى ثاني الأئمة الإلهيين:

فهو ـ عليه صلاة ربه وتسليمه ـ الثاني من أئمة الله الذين اصطفاهم من خلقه واختارهم أئمة لعباده ونشر مدحتهم وأبان فضلهم في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله العظيم صلى الله عليه وآله.

أ) حديث الله عز وجل:

فكل ما نزل من سور القرآن وآياته في شأن أهل البيت عليهم السلام فهو في حقه، يخصه ويميزه عمن سواه.

وما جاء من الله في آل الله مئات ومئات من الآيات وعشرات وعشرات.

وقد عني بذكرها والتنصيص عليها المفسرون، وأفرد فيها كتبًا الباحثون، وأطال الوقوف والبحث المتأمل حقها العقديون والكلاميون.

وكفى بـ(المباهلة) برهانًا وبآية (التطهير) بيانًا وبسورة (الإنسان) تشريفًا وتعريفًا وتوصيفًا وعنوانًا.

---

(١) سورة البقرة / ١٤٧ ـ ١٤٨.

ب) بيان رسول الله ﷺ:

وقد لهج النبي الأعظم بالحديث عن سبطه وقرة عينه وريحانته، ولم تكن نصوصه ﷺ عواطف جيّاشة من محب لمحبوب.

وإنما نقرأ فيها الجهر والإفصاح عن السيادة والإمامة والمقامات الفذة.

ولا يغيبنَّ عن ذهن المؤمن الحصيف أن ذلكم الإجلال والتنويه من الصادق الأمين كان أيام سني سبطه الأولى، فليتأمل المنصف الحر، إذ ليس لذلك علة وباعث إلا ما سبق وأن ذكرناه من التدليل على تمثل الإمامة في أكفائها.

هذا ولم يعهد في أساليب الثناء والتكريم والتعظيم سلوك هذا المنهج من المقال ولا سيما من جدٍ وهو رسول الله لسبطٍ يدرج في سنواته الأولى.

فإلى غيض من فيض:

١ ـ «**الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا**»[١].

«**أنتما الإمامان ولأمكما الشفاعة**»[٢].

وقال للحسين عليه السلام:

«**هذا إمام ابن إمام وأخو إمام أبو أئمة تسعة**»[٣].

٢ ـ «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**»[٤].

---

(١) حياة الإمام الحسن، للقرشي ١/ ١٠٢.

(٢) حياة الإمام الحسن ١/ ١٠٢.

(٣) حياة الإمام الحسن ١/ ١٠٢.

(٤) حياة الإمام الحسن ١/ ٩٨.

٣ ـ «عن حذيفة قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله على جبل أحد في جماعة من المهاجرين والأنصار إذ أقبل الحسن بن علي عليه السلام يمشي على هدوء ووقار، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله فرمقه من كان معه، فقال له بلال: يا رسول الله، ما ترى أحدًا بأحد؟ فقال صلى الله عليه وآله: **إن جبرئيل عليه السلام يهديه، وميكائيل يسدده، وهو ولدي والطاهر من نفسي وضلع من أضلاعي، هذا سبطي وقرة عيني بأبي هو.**

وقام وقمنا معه وهو يقول: **أنت تفاحتي وأنت حبيبي وبهجة قلبي،** وأخذ بيده فمشى معه ونحن نمشي حتى جلس وجلسنا حوله.

فنظرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو لا يرفع بصره عنه، ثم قال: **إنه سيكون بعدي هاديًا مهديًّا، هدية من رب العالمين لي، ينبئ عني، ويعرِّف الناس آثاري، ويحيي سنتي، ويتولّى أموري في فعله، وينظر الله تعالى إليه ويرحمه، رحم الله من عرف له ذلك وبرَّني فيه وأكرمني فيه.**

فلما قطع صلى الله عليه وآله كلامه حتى أقبل إلينا أعرابي... وكان الحسنُ عليه السلام إذا نظرَ إليه الناسُ قالوا: لقد أُعْطِيَ هذا ما لم يُعْطَ أحدٌ من العالمين»[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حسن مني وأنا منه، أحب الله من أحبه**»[٢].

ومما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ولو كان الفضل شخصًا لكان الحسن** عليه السلام»[٣].

---

(١) الثاقب في المناقب / ٣١٦ ـ ٣١٩.

(٢) بحار الأنوار ٤٣/ ٣٠٦.

(٣) مائة منقبة / ١٣٥ ـ ١٣٦.

البند الرابع: كمالاته وخلائق ذاته:

والنصوص وإن تواترت فليست إلا كواشف ومعرفات لمن صدرت في حقه، وقامت حقائقها في ذاته، وصدقتها شؤونه في حياته.

وتلكم جوهرة الامتياز في سيرة وسريرة الهداة المهديين والأئمة الربانيين.

فقد برهنت أحوالهم عن صدق ما وصفوا به، وجهرت بحق أنهم القمة التي لا ترتقى، والشأو الذي لا يبلغ، فلا مطمع لسواهم أن يلحق بهم.

وتلك حقيقتهم في كافّة أدوارهم، سيَّان في ذلك مبتدأ أمرهم او منتهاه.

فإلى شذرات مما حفلت به حياة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام مما يتسع لها هذا التقديم وإلا فهي زاخرة بلداتها أضعافًا وأضعافًا.

١ ـ انزل عن منبر أبي:

«وما استقر في نفس أمير المؤمنين عليه السلام من اللوعة والأسى على ضياع حقه وغصب تراثه، استقر في نفس وليده الإمام الحسن عليه السلام فقد انطلق إلى مسجد جده صلى الله عليه وآله فرأى أبا بكر على منبر الرسول يخطب الناس فالتاع ووجه إليه لاذع النقد قائلًا له: **انزل...انزل عن منبر أبي، واذهب إلى منبر أبيك!!**».

وبهت أبو بكر، وتطلعت أبصار الناس إلى القائل فإذا هو حفيد الرسول صلى الله عليه وآله وريحانته، فأخذته الحيرة والدهشة، وساد عليهم الوجوم واسترد أبو بكر خاطره فتدارك الموقف فقال له بناعم القول:

«صدقت والله، إنه لمنبر أبيك لا منبر أبي.... »[١].

٢ ـ أدبه مع مولاه عزّ وجلّ:

أ) «لم ير إلا وهو يلهج بذكر الله».

«إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم فسأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار»، «إذا ذكر الموت وما يعقبه من البعث والنشور بكى بكاء الخائفين المنيبين».

«إذا ذكر العرض على الله شهق شهقة يغشى عليه منها».

ب) إذا أراد الوضوء تغير حاله، وداخله خوف عميق حتى يصفر لونه وترتعد فرائصه، وسئل عن سر ذلك فقال:

حق على من وقف بين يدي رب العرش أن ترتعد فرائصه، ويصفر لونه، وإذا فرغ من الوضوء وأراد الدخول إلى المسجد رفع صوته قائلًا:

إلهي ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء، فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك ياكريم.

وإذا أقبل على صلاته بدا عليه الخضوع والخشوع، وظهر عليه الخوف حتى ترتعد جميع فرائصه وأعضائه.

وإذا فرغ من صلاة الفجر لا يتكلم إلا بذكر الله حتى تطلع الشمس.

---

(١) حياة الإمام الحسن ١/ ١٦٤، عن جملة من المصادر وذكر أن مثل ذلك وقع للحسين مع عمر بن الخطاب.

ج) «حجّ بيت الله الحرام خمسًا وعشرين حجّة ماشيًا على قدميه ـ وربما مشى حافيًا ـ وكانت النجائب تقاد بين يديه.

وسئل عن كثرة حجّه ماشيًا فأجاب: إني أستحي من ربّي أن لا أمضي إلى بيته ماشيًا علي قدمي».

د) «كان الإمام يتلو الذكر الحكيم تلاوة إمعان وتدبر فلا يمر بآية تشتمل على نداء المؤمنين إلا قال: لبيك اللهم لبيك».

وكان يقرأ في كل ليلة سورة الكهف.

هـ) وقدَّم الإمام في سبيل مرضاة الله كل غال ونفيس، فقد خرج عن جميع ما يملك مرتين، وشاطر الله أمواله ثلاث مرات حتى أعطى نعلًا وأمسك أخرى[١].

٣ ـ خلقه مع مواليه ومعاديه:

أ) استئذان القادم الفقير:

«كان جالسًا في مكان فأراد الانصراف فجاءه فقير فرحّب به ولاطفه وقال له:

ـ إنك جلست على حين قيام منا، أ فتأذن لي بالانصراف؟

ـ نعم يا بن رسول الله»[٢].

(١) حياة الإمام الحسن، للقرشي ١/ ٣٢٦ ـ ٣٢٨، عن مصادر متعددة.

(٢) حياة الإمام الحسن، للقرشي ١/ ٣١٤.

ب) ومع الفقراء والصبيان:

«اجتاز على جماعة من الفقراء يأكلون من طعام فدعوه فأجابهم وهو يقول: **إن الله لا يحب المتكبرين**، ودعاهم إلى ضيافته فأطعمهم وكساهم».

«ومر على صبيان فدعوه لطعامهم فأجابهم ثم حملهم إلى منزله فمنحهم ببره ومعروفه وقال: ال**يد لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني ونحن نجد مما أعطيناهم**»[1].

ج) الغلام الأسود:

«واجتاز عليه السلام على غلام أسود بين يديه رغيف يأكل منه لقمة ويدفع لكلب كان عنده لقمة أخرى، فقال له:

ـ ما حملك على ذلك؟

ـ إني لأستحيي أن آكل ولا أطعمه.

ـ لا تبرح من مكانك.

ثم انطلق فاشتراه من مولاه واشترى الحائط الذي هو فيه فأعتقه وملّكه إياه»[2].

د) وحيَّته جارية:

«إن جارية حيته بطاقة من ريحان، فقال عليه السلام لها: **أنت حرة لوجه الله**، فلامه

(١) حياة الإمام الحسن، للقرشي ١/ ٣١٣.

(٢) حياة الإمام الحسن، للقرشي ١/ ٣١٩.

أنس على ذلك، فأجابه عليه السلام: **أدبنا الله فقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾**(١)، وكان أحسن منها إعتاقها»(٢).

هـ) الفقير الظريف:

«وقف رجل على الحسن بن علي عليهما السلام فقال: يا ابن أمير المؤمنين، بالذي أنعم عليك بهذه النعمة التي ما تليها منه بشفيع منك إليه، بل إنعامًا منه إليك، إلا ما أنصفتني من خصمي، فإنه غشوم ظلوم، لا يوقّر الشيخ الكبير، ولا يرحم الطفل الصغير، وكان متّكئًا فاستوى جالسًا وقال له: **من خصمك حتى أنتصف لك منه؟** فقال له: الفقر، فأطرق عليه السلام ساعة ثم رفع رأسه إلى خادمه وقال له: **أحضر ما عندك موجود،** فأحضر خمسة آلاف درهم، فقال: **ادفعها إليه،** ثم قال له: **بحق هذه الأقسام التي أقسمت بها عليَّ متى أتاك خصمك جائرًا إلا ما أتيتني منه متظلمًا**»(٣).

و) الشامي اللاعن:

«أن شاميًّا رآه راكبًا فجعل يلعنه والحسن لا يرد فلما فرغ أقبل الحسن عليه السلام فسلم عليه وضحك، فقال: **أيها الشيخ أظنك غريبًا، ولعلك شبَّهت! فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو**

---

(١) سورة النساء / ٨٦.
(٢) حياة الإمام الحسن، للقرشي ١/ ٣٢٢.
(٣) بحار الأنوار ٤٣/ ٣٥٠.

استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعًا أشبعناك، وإن كنت عريانًا كسوناك، وإن كنت محتاجًا أغنيناك، وأن كنت طريدًا آويناك، وإن كانت لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضعًا رحبًا وجاهًا عريضًا ومالًا كثيرًا.

فلما سمع الرجل كلامه بكى، ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ والآن أنت أحب خلق الله إليّ، وحوَّل رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقدًا لمحبتهم»[1].

ز) إعتاقُه عَبدًا لأكلهِ لقمة:

«روى الإمام علي الرضا: **أن الحسن المجتبى دخل الخلاء فوجد لقمة ملقاة فمسحها بعود فدفعها إلى رقيقه، فلما خرج طلبها، قال: أكلتها يا مولاي، قال له: أنت حر لوجه الله تعالى، ثم قال: سمعت جدي صلى الله عليه وآله يقول: من وجد لقمة ملقاة فمسحها أو غسلها ثم أكلها أعتقه الله تعالى من النار، فلا أكون أن أستعبد رجلًا أعتقه الله عز وجل من النار**»[2].

البند الخامس: شجاعة الجنان واللسان:

والشجاعة في الإمام الإلهي ركيزة قويمة في إمامته، وحلية يتوفر على

---

(١) بحار الأنوار ٤٣/ ٣٤٤.

(٢) إحقاق الحق ١١/ ١٥٣، وقد جمع الكتاب المستطاب شطرًا وافرًا في شؤون الإمام عليه السلام في ج١٠ وج١١ وج١٩ وفيه كثير مما أوردناه هنا فلتراجع.

أكمل صورها فهو أشجع الخلق على الإطلاق.

فالإمام قائد الخلق إلى الحق، والناصر لدين الله، والمحامي عن مقدساته والباذل مهجته في إقامة دعائمه وسحق أعدائه ومن يبتغي به سوء.

وتتمثل شجاعته في خوضه غمار الحرب ومشتجر الأسنة ومقارعة الأبطال، ولو اعصوصبت على قتاله الخلائق.

وتتمثل في دفاعه عن الحق وإزهاق الباطل وإفحام الخصوم ورد كيدهم في نحورهم في خطبه ومناظراته مع ألد أعدائه رأس الضلال وأتباعه.

وهذا ما حفلت به سيرة أئمة الهدى في حياتهم، وسجله تأريخهم المشرق.

فذاك بطل الإسلام أمير المؤمنين علي عليه السلام جيش الإسلام وقوته وسيفه المسلول على أعدائه، وما قام دين الله إلا بسيفه وجهاده.

«كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله أو نجم قرن الشيطان أو كلما فغرت فاغرة للمشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه مكدودًا في ذات الله، مجتهدًا في أمر الله، قريبًا من رسول الله، سيدًا في أولياء الله»(١).

والإمام الحسن نجل أبيه، وقرة عينه، وروحه التي بين جنبيه، وشريكه في حربه للناكثين والقاسطين والمارقين.

فقد روي أن أباه عليه السلام جعله في الميمنة يوم الجمل وجعل الحسين في

(١) من خطبة السيدة الزهراء عليها السلام.

الميسرة[١].

«قال علي: **أين محمد ابني؟** فقال: هاأنذا، فقال: **أي بني خذ الراية، فابتدر الحسن والحسين ليأخذاها فأخّرهما عنها،** وكان علي يؤخرهما شفقة عليهما»[٢].

«دعا أمير المؤمنين عليه السلام محمد بن الحنفية يوم الجمل فأعطاه رمحه وقال له، اقصد بهذا الرمح قصد الجمل، فذهب فمنعوه بني ضبة، فلما رجع إلى والده انتزع الحسن رمحه من يده، وقصد قصد الجمل وطعنه برمحه، ورجع إلى والده، وعلى رمحه أثر الدم، فتمغَّر وجه محمد من ذلك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام **لا تأنف فإنه ابن النبي وأنت ابن علي**».

بيان: تمغَّر وجهه أي احمرَّ مع كدورة، وأنف منه: استنكف[٣].

«وقال علي عليه السلام في بعض أيام صفين وقد رأى أن الحسن عليه السلام يتسرع إلى الحرب: **املكوا عني هذا الغلام لا يهدّني، فإني أنفس بهذين** ـ يعني الحسن والحسين عليهما السلام ـ **على الموت لئلّا ينقطع بهما نسل رسول الله** صلى الله عليه وآله»[٤].

ولسنا نروم بإيراد شاهد وذكر مشهد التدليل على شجاعته حتى ينتظر تواتر المواقف في مشتجر السلاح ومعترك الكفاح فنحن في غنىً عن ذلك لضرورة مقام (الإمامة) واشتراط تحلّي (الإمام) بكمال الشجاعة.

---

(١) دعائم الإسلام ١/ ٣٩٣.

(٢) الإمام المجتبى / ٧٥، نقلاً عن الإمامة والسياسة ١/ ٦٦.

(٣) بحار الأنوار ٤٣/ ٣٤٥، عن مناقب ابن شهرآشوب ٣/ ١٨٥.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٠٦/ ٣٢٣.

نعم المعارك ومظنة المهالك مواطن تجلّي القدرة وتمايز الأبطال كما سطَّر (سيف ذي الفقار) الأعاجيب وكما أجلت ملحمة (الطف) عن سيد الشهداء صريعًا يُجبِّنُ شجعانها.

وأما شجاعة اللسان في الموقف الصعب والمركب الوعر فقد تجلّت البراعة والبلاغة، فإذا به نسخة من أمير الكلام رب الفصاحة ومالك ناصية المقال ولأجل ذلك أسند إليه أبوه الإمام عليهما السلام مهمة القيام بالتصدي لراغية الشيطان في مثل هذا الموطن ونظيره بما أقر الله به عينه وكما قال فيه كثيرًا: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]، وكما قال فيه عدوه الألد: «إنه ابن أبيه».

وثمَّت مواطن كثر حفلت بحياته المتخمة بالمحن والمكاره.

فمن صور ذلك:

الأولى: في معركة الجمل:

«فقام عبد الله بن الزبير في معسكرهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن هذا ... و... قتل عثمان بالمدينة ثم جاءكم ينشر أموركم بالبصرة وقد غضب الناس أنفسهم ألا تنصرون خليفتكم المظلوم ألا تمنعون حريمكم المباح ألا تتقون الله في عطيتكم من أنفسكم أترضون أن يتوردكم أهل الكوفة في بلادكم، اغضبوا فقد غوضبتم وقاتلوا فقد قوتلتم، إن عليًّا لا يرى أن معه في هذا الأمر أحد سواه والله لئن ظفر بكم ليهلكن دينكم ودنياكم. وأكثر من

---

(١) سورة آل عمران / ٣٤.

نحو هذا القول وشبهه.

خطبة الحسن: فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام وقال لولده الحسن عليه السلام: **قم يا بني فاخطب**، فقام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه وقال: **أيها الناس قد بلغتنا مقالة ابن الزبير، وقد كان والله يتجنّى على عثمان الذنوب وقد ضيّق عليه البلاد حتى قتل، وإن طلحة راكز رايته على بيت ماله وهو حي، وأما قوله إن عليًّا ابتزّ الناس أمرهم فإن أعظم حجة لأبيه زعم أنه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه فقد أقرّ بالبيعة وادّعى الوليجة، فليأتِ على ما ادّعاه ببرهان وأنّى له ذلك، وأما تعجّبه من تورّد أهل الكوفة على أهل البصرة فما عجبه من أهل حق توردوا على أهل باطل، ولعمري والله ليعلمنَّ أهل البصرة وميعاد ما بيننا وبينهم اليوم نحاكمهم إلى الله تعالى فيقضي الله الحق وهو خير الفاصلين .**

فلما فرغ الحسن عليه السلام من كلامه قام رجل يقال له عمر بن محمود وأنشد شعرًا يمدح الحسن»[1].

---

(١) الجمل / ١٧٤ ـ ١٧٦.

وقد ذكر المجلسي في البحار ٣٨/ ٢٣ اسم الشاعر عمرو بن أحيحة وأورد الشعر وهو:

حَسَنَ الخيرِ يا شبيهَ أبيهِ ... قُمْتَ فينا مقامَ خيرِ خَطِيبِ
قُمْتَ بالخطبةِ التي صَدَعَ اللهُ ... بها عن أبيكَ أهلَ العُيُوبِ
وكشفتَ القِناعَ فاتَّضَحَ الأمرُ ... وأَصْلَحْتَ فاسداتِ القُلُوبِ
لستَ كابنِ الزبيرِ لَجْلَجَ في القولِ ... وطَأْطا عنانَ قِيلٍ مُرِيبِ
وأبى اللهُ أن يقومَ بما قامَ ... بهِ ابنُ الوَصِيِّ وابنُ النجيبِ
إِنَّ شخصًا بين النبيِّ ـ لكَ الخيرُ ـ ... وبينَ الوصيِّ غيرُ مَشُوبِ

وما أوقح ابن الزبير وأسمج خطابه وأقل حياءه في كشفه بسيء قوله عن خبث سريرته ودناءة نفسه، وكفى بقوله: «ليهلكن دينكم ودنياكم»، أجل صدق المثل: وكل إناء بالذي فيه ينضح.

الثانية: مع عبيد الله بن عمر:

ومن أحداث وقعة صفين:

«وبعث عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن علي فقال: إن لي إليك حاجة فالقني، فلقيه الحسن، فقال له عبيد الله: إن أباك قد وتر قريشًا أولًا وآخرًا، وقد شنئوه، فهل لك أن تخلفه ونولّيك هذا الأمر؟ قال: **كلّا والله لا يكون ذلك**، ثم قال له الحسن: **لكأني أنظر إليك مقتولًا في يومك أو غدك، أما إن الشيطان قد زيّن لك وخدعك حتى أخرجك مخلّقًا بالخلوق ترى نساء أهل الشام موقفك، وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلًا**.

قال: فوالله ما كان إلا كيومه أو كالغد وكان القتال، فخرج عبيد الله في كتيبة رقطاء ـ وهي الخضرية ـ وكانوا أربعة آلاف، عليهم ثياب خضر، ونظر الحسن فإذا هو برجل متوسِّد رجل قتيل قد ركز رمحه في عينه، وربط فرسه برجله، فقال الحسن لمن معه: انظروا من هذا، فإذا هو برجل من همدان، فإذا القتيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، قد قتله وبات عليه حتى أصبح، ثم سلبه»[1].

---

(١) وقعة صفين، لنصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢هـ) / ٢٩٨.

الثالثة: وفي صفين:

قال الإمام المجتبى عليه السلام:

«الحمد لله لا إله غيره وحده لا شريك له.

ثم إن مما عظم الله عليكم من حقه وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره ولا يؤدى شكره ولا يبلغه قول ولا صفة، ونحن إنما غضبنا لله ولكم فإنه مَنَّ علينا بما هو أهله أن نشكر فيه آلاءه وبلاءه ونعماءه، قول يصعد إلى الله فيه الرضا وتنتشر فيه عارفة الصدق يصدق الله فيه قولنا، ونستوجب فيه المزيد من ربنا، قولًا يزيد ولا يبيد فإنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم واستحكمت عقدتهم. فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده فإنه قد حضر، ولا تخاذلوا فإن الخذلان يقطع نياط القلوب، وإن الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة، لأنه لم يمتنع قوم قط إلا دفع الله عنهم العلة، وكفاهم جوائح الذلة، وهداهم إلى معالم الملة، ثم أنشد[1].

والصلحُ تأخذُ منه ما رَضيتَ بهِ   والحربُ يكفيكَ من أنفاسِها جرعُ[2]

الرابعة: بعد التحكيم:

ولما أذيع الخبر المؤلم بين العراقيين في خلع أبي موسى للإمام زادت الفتنة، وكثر الاختلاف والانشقاق بينهم، وجعل بعضهم يتبرأ من بعض ويشتم

(١) بحار الأنوار ٣٢/ ٤٠٥.

(٢) البيت للعباس بن المرداس السلمي كما في الخزانة ٢/ ٨٢.

بعضهم بعضا، ورأى الإمام أن خطورة الموقف تقضي بأن يقوم نفر من أهل بيته فيخطب بين الناس ليوقفهم على حقيقة الحال ويبين لهم فساد التحكيم، فقال للحسن: قم يا بني. فقل في هذين الرجلين عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص فقام الحسن فاعتلى أعواد المنبر فقال:

«أيها الناس. قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنما بعثا ليحكما بالكتاب على الهوى، فحكما بالهوى على الكتاب، ومن كان هكذا لم يسم حكمًا ولكنه محكوم عليه، وقد أخطأ عبد الله بن قيس إذ جعلها لعبد الله بن عمر فأخطأ في ثلاث خصال: واحدة أنه خالف (يعني أبا موسى) أباه (يعني عمر) إذ لم يرضه لها ولا جعله من أهل الشورى، وأخرى إنه لم يستأمره في نفسه، وثالثها: إنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس. وأما الحكومة فقد حَكَّمَ النبيُّ صلى الله عليه وآله سعدَ بن معاذ في بني قريضة فحكم بما يرضى الله به، ولا شك لو خالف لم يرضه رسول الله صلى الله عليه وآله ثم نزل عن منصة الخطابة»[1].

الخامسة: مع عدوه الألد وخصمه الأعتى وبطانته السوء:

فقد ملك معاوية بعد أن جرت خطوب وفوادح واستبد بالأمر وملكه الزهو ونشوة النصر وسكر الحكم وحلاوة متاع الدنيا، وانجذب إليه عشاق العاجلة، ومن هو على شاكلته ومن يهوى لعق قصاعه.

---

(١) حياة الإمام الحسن، للقرشي ١/ ٥٣٠.

وتغطرس معاوية وتجبّر وتعالى وتكبّر فلا يرى شفاء لغروره وتشفيًا من خصمه ـ وهو المخذول المهتضم ـ إلا تصغير قدره وكسر نفسه وإذلاله، وآزره خبثاء السرائر، وأغراه سود الضمائر وحقراء النفوس وموطن الضعة والرذائل.

واستشرت القحة واشتد الصلف، فعمدوا إلى عقد المجالس والمحافل لإخجال وليّ الله الحق وكسر حقه بباطلهم، وحط رفعته بضعتهم، وكأنهم لم يدركوا أنه المجتبى والوصي المنتجب وأنه ابن جده وأبيه المصطفى والمرتضى، يملك قلبهما ولسانهما وروحهما مع خذلان الناصر وكثرة العدو.

وقد حفلت تلكم الأيام السود بحرب كلاميةٍ أشد وقعًا مما يجري في ساحات القتال تطير فيها رؤوس الأبطال وتقطع الأيدي وتنهمر الدماء.

فلنستخبر التأريخ عن تلكم الوقائع لنقف على فتكات سبط النبي وشبل الوصي بالعتاة المردة من خصومه معاوية وبطانته ومن لفّ لفّهم وغرّه الزيف من شوكتهم وسلطانهم واستبداده بالملك.

ولا يتسع البحث لإيراد كافة ما جرى، وفي النماذج دلائل على انتصار المظلوم المهتضم والحق المضيع.

الأنموذج الأول: مع معاوية:

«قام الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام على المنبر حين اجتمع مع معاوية، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إن معاوية زعم أني رأيته للخلافة

أهلًا، ولم أر نفسي لها أهلًا، وكذب معاوية، أنا أولى الناس بالناس، في كتاب الله، وعلى لسان نبي الله، فأقسم بالله لو أن الناس بايعوني وأطاعوني ونصروني لأعطتهم السماء قطرها، والأرضُ بركتَها، ولما طمعت فيها يا معاوية، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما ولّت أمة أمرها رجلًا قط وفيهم من هو أعلم منه إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالًا، حتى يرجعوا إلى ملة عبدة العجل.

وقد ترك بنو إسرائيل هارون، واعتكفوا على العجل، وهم يعلمون أن هارون خليفة موسى، وقد تركت الأمة عليًّا عليه السلام وقد سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير النبوة فلا نبي بعدي»، وقد هرب رسول الله صلى الله عليه وآله من قومه، وهو يدعوهم إلى الله، حتى فرّ إلى الغار، ولو وجد عليهم أعوانًا ما هرب منهم، ولو وجدت أنا أعوانًا ما بايعتك يا معاوية.

وقد جعل الله هارون في سعة حين استضعفوه وكادوا يقتلونه، ولم يجد عليهم أعوانًا، وقد جعل الله النبي صلى الله عليه وآله في سعة حين فر من قومه، لما لم يجد أعوانًا عليهم، وكذلك أنا وأبي في سعة من الله، حين تركتنا الأمة وبايعت غيرنا ولم نجد أعوانًا.

وإنما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضًا، أيها الناس إنكم لو التمستم فيما بين المشرق والمغرب لم تجدوا رجلًا من ولد نبي غيري وغير أخي[(١)].

---

(١) بحار الأنوار ٤٤/ ٢٢ ـ ٢٣.

الأنموذج الثاني: مع معاوية بعد الصلح:

«قال معاوية للحسن عليه السلام بعد الصلح: اذكر فضلنا، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد النبي وآله ثم قال: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن رسول الله، أنا ابن البشير النذير، أنا ابن المصطفى بالرسالة، أنا ابن من صلت عليه الملائكة، أنا ابن من شرفت به الأمة، أنا ابن من كان جبرئيل السفير من الله إليه، أنا ابن من بعث رحمة للعالمين صلى الله عليه وآله أجمعين، فلم يقدر معاوية يكتم عداوته وحسده فقال: يا حسن عليك بالرطب فانعته لنا، قال: نعم يا معاوية، الريح تلقحه، والشمس تنفخه، والقمر يلونه، والحر ينضجه، والليل يبرده.

ثم أقبل على منطقه فقال: أنا ابن المستجاب الدعوة، أنا ابن من كان من ربه كقاب قوسين أو أدنى، أنا ابن الشفيع المطاع، أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن من خضعت له قريش رغمًا، أنا ابن من سعد تابعه، وشقي خاذله، أنا ابن من جعلت الأرض له طهورًا ومسجدًا، أنا ابن من كانت أخبار السماء إليه تترى، أنا ابن من أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا.

فقال معاوية: أظن نفسك يا حسن تنازعك إلى الخلافة، فقال: ويلك يا معاوية إنما الخليفة من سار بسيرة رسول الله، وعمل بطاعة الله، ولعمري إنّا لأعلام الهدى ومنار التقى، ولكنك يا معاوية ممن أباد السنن، وأحيا البدع، واتخذ عباد الله خولًا، ودين الله لعبًا، فكأن قد أخمل ما أنت فيه، فعشت يسيرًا،

وبقيت عليك تبعاته، يا معاوية والله لقد خلق الله مدينتين إحداهما بالمشرق، والأخرى بالمغرب أسماؤهما جابلقا وجابلسا، ما بعث الله إليهما أحدًا غير جدي صلى الله عليه وآله»[١].

وفي خطبة أخرى وقد سأله معاوية أن يخطب الناس فامتنع فناشده أن يفعل فوضع له كرسي فجلس عليه فلما فرغ من بليغ خطابه، قال معاوية، أخطأ عَجِل أو كاد، وأصاب متثبّت أو كاد، ماذا أردت من خطبة الحسن؟[٢].

الأنموذج الثالث: مع معاوية في الكوفة ـ بعد استتمام البيعة له من أهلها ـ:

فخطب معاوية الناس وذكر أميرالمؤمنين عليه السلام ونال منه، ونال من الحسن عليه السلام ما نال، وكان الحسن والحسين عليهما السلام حاضرين، فقام الحسين عليه السلام ليرد عليه، فأخذ بيده الحسن عليه السلام فأجلسه، ثم قام فقال: أيها الذاكر عليًّا أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة وأمك هند، وجدي رسول الله صلى الله عليه وآله وجدك حرب، وجدتي خديجة وجدتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكرًا وألأمنا حسبًا وشرّنا قرنًا، وأقدمنا كفرًا، ونفاقًا، فقالت طوائف من أهل المسجد: آمين آمين[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٤٤/ ٤١ ـ ٤٢.

(٢) بحار الأنوار ٤٤/ ٤٢ ـ ٤٣.

(٣) بحار الأنوار ٤٤/ ٤٩، وكما أمَّن على هذا الدعاء من سمع فكذلك أمَّن من قرأ وكتب فقال: آمين آمين، وأنا أقول: آمين آمين، وليقل كل من يسمع أو يقرأ: آمين آمين.

الأنموذج الرابع: مع معاوية وبطانته في المحفل الأكثر ضجيجًا:

ومن شؤون ذلكم المحفل وشجونه:

١ ـ قالوا عنه:

«لم يكن في الإسلام يوم في مشاجرة قوم اجتمعوا في محفل أكثر ضجيجًا ولا أعلى كلامًا ولا أشد مبالغة في قول من يوم اجتمع فيه عند معاوية»[(١)].

٢ ـ أمة البغي والمروق والطغيان:

عمرو بن عثمان بن عفان، عمرو بن العاص، عتبة بن أبي سفيان، الوليد بن عقبة بن أبي معيط، المغيرة بن شعبة، وقد تواطؤا على أمر واحد.

٣ ـ إذعان الخصوم بجلال مقام الإمام عليه السلام:

قال ابن العاص: «ألا تبعث إلى الحسن بن علي فتحضره، فقد أحيا سيرة أبيه وخفقت النعال خلفه، إن أمر أطيع، وإن قال صدق، وهذان يرفعان به إلى ما هو أعظم منهما».

وقال معاوية: «إني أخاف أن يقلدكم قلائد يبقى عليكم عارها حتى تدخلكم قبوركم، والله ما رأيته قط إلا كرهت جنابه، وهبت عتابه، وإني إن بعثت إليه لأنصفنّه منكم».

٤ ـ دناءة الغرض وحقارة المقصد:

«فلو بعثت إليه فقصرنا به وبأبيه، وسببناه وسببنا أباه، وصغَّرنا قدره

---

(١) ستذكر مصادر هذه النصوص في نهاية عرض هذه الحادثة.

وقدر أبيه، وقعدنا لذلك حتى صدق لك فيه».

٥ ـ وتهيأ الإمام عليه السلام لمواجهة القوم:

واستعلم عليه السلام من رسول معاوية عن الزمرة المجتمعة والعصابة المتعاقدة مع زعيمها فسمَّاهم، فقال عليه السلام: مالهم خر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، ثم قال: يا جارية أبلغيني ثيابي، ثم قال: اللهم إني أدرأ بك في نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم، وأستعين بك عليهم، فاكفنيهم بما شئت وأنّى شئت، من حولك وقوتك يا أرحم الراحمين، وقال للرسول: هذا كلام الفرج.

٦ ـ الإفحام قبل الخصام:

رحب معاوية بالإمام وحيّاه وصافحه، فقال عليه السلام: إن الذي حييت به سلامة، والمصافحة أمنة، فقال معاوية: أجل إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني.

فقال الحسن عليه السلام: سبحان الله البيت بيتك، والأذن فيه إليك، والله لئن أجبتهم إلى ما أرادوا إني لأستحيي لك من الفحش، ولئن كانوا غلبوك إني لأستحيي لك من الضعف، فبأيهما تقر؟ ومن أيهما تعتذر؟ أما إني لو علمت بمكانهم واجتماعهم، لجئت بعدتهم من بني هاشم، ومع وحدتي هم أوحش مني مع جمعهم، فإن الله عز وجل لوليي اليوم وفيما بعد اليوم، فليقولوا فأسمع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٧ ـ الفضول والهراء المرذول:

وجهروا بالسوء وقد تفقؤوا خسة ولؤمًا وشرقوا بغصتهم وتقطع أنفاسهم

بحسرتهم على مصارع آبائهم أشياخ الكفر في بدر ونشروا قميص عثمان المدمّى اتهامًا بسيف الإمام الفاتك بأشياخهم.

وأعادوا حديث السقيفة ومواقف الإمام حول قادتها وساستها، ولؤموا: «إنما دعوناك لنسبك وأباك»، وسمجوا ووقحوا وصلفوا فقال مفتريهم الكذاب: «وقد كان أبوك ناصب رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته، وأجلب عليه قبل موته وأراد قتله، فعلم ذلك من أمره رسول الله صلى الله عليه وآله ثم كره أن يبايع أبا بكر حتى أتي به قودًا، ثم دس إليه فسقاه سمًّا فقتله».

وعرض لدور الإمام في قتل عمر وشيخهم عثمان، ثم أسرف في الإسفاف فقال: وليس على لسانه عقال: «كل هؤلاء قد شرك في دمهم فأي منزلة له من الله يا حسن، وقد جعل الله السلطان لولي المقتول في كتابه المنزل، فمعاوية ولي المقتول بغير حق، فكان من الحق لو قتلناك وأخاك، والله ما دم علي بخطر[1] من دم عثمان».

وختم فضوله بالشنشنة المعروفة والدندنة المعزوفة: «وما كان الله ليجمع فيكم يا بني عبدالمطلب الملك والنبوة».

٨ ـ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله:

تحمّل الإمام عليه السلام وصبر على أمرَّ من الصبر حتى أفرغوا كوامن الأحقاد بفلتات الأوغاد، ثم أتى على مقالتهم بادئًا بالحملة على الرأس قبل الأذناب وإن لم يهر كما هرَّوا ولم يهرف كما هرفوا إلا أنهم من بئر آجنة اغترفوا.

---

(١) كذا في المصدر.

فافتتح الإمام عليه السلام المقال: «الحمد لله الذي هدى أولكم بأولنا، وآخركم بآخرنا، وصلى الله عليه سيدنا محمد النبي وآله وسلم ثم قال: اسمعوا مني مقالتي، وأعيروني فهمكم، وبك أبدأ يا معاوية. ثم قال لمعاوية: إنه لعمر الله يا أزرق ما شتمني غيرك، وما هؤلاء شتموني ولا سبني غيرك وما هؤلاء سبوني، ولكن شتمتني وسببتني، فحشًا منك، وسوء رأي، وبغيًا وعدوانًا وحسدًا علينا، وعداوة لمحمد صلى الله عليه وآله قديمًا وحديثًا.

وإنه والله لو كنت أنا وهؤلاء يا أزرق! مثاورين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وحولنا المهاجرون والأنصار، ما قدروا أن يتكلموا بمثل ما تكلموا به، ولا استقبلوني بما استقبلوني به، فاسمعوا مني أيها الملأ المخيمون[1] المعاونون علي ولا تكتموا حقًّا علمتموه، ولا تصدقوا بباطل نطقت به، وسأبدأ بك يا معاوية فلا أقول فيك إلا دون ما فيك».

صدر المقال وبراعة الديباجة:

فقد أقامه على دعائم:

أ) دعوتهم إلى الاستماع والوعي لما يسمعون:

«استمعوا مني مقالتي، وأعيروني فهمكم».

ب) رأس الأفعى:

«وبك أبدأ يا معاوية».

---

(١) وجاء في هامش بحار الأنوار ٤٤/ ٧٤ (المجتمعون).

«إنه لعمر الله يا أزرق ما شتمني غيرك... وحسدًا علينا، وعداوة لمحمد صلى الله عليه وآله قديمًا وحديثًا».

ج) الإنصاف شيمة الأشراف:

«... ولا تكتموا حقًّا علمتموه، ولا تصدقوا بباطل نطقت به».

د) إقلاق معاوية مجددًا:

«وسأبدأ بك يا معاوية فلا أقول فيك إلا دون ما فيك».

٩ ـ تأريخ الإسلام وصحائف مشرقة ومظلمة:

ولعمر الله إنه العرض الدقيق والسجل الحافل لأيام الإسلام منذ بزوغ فجره ومدار أحداثه ومحور وقائعه ومن آمن به وحامى عنه وبذل في إقامته وجوده وأقام حدوده وثبت على إيمانه ولم ينحرف عن منهاجه حتى لقي ربه راضيًا مرضيًا، وكشف زيف أعدائه ورسوخ جاهليتهم وعمق انحرافهم وتغلغل نفاقهم وتربصهم بدين الله الدوائر فإن سنحت فرصة جهروا بما يضمرون وإن دفعوا لرد عادية الإسلام فهم يفرون.

ومن عجيب احتجاجه مواجهته لهم بمواقفهم وتقريره بأفعالهم وأقوالهم واستشهادهم بما يعلمون من سوء خلائقهم وشائن أحوالهم في ذواتهم ومن يواليهم فكان الرصد لسجل حياتهم الوبيء وسرد تأريخهم الأسود الأنكد.

ولم يسعهم الإنكار ولم يمكنهم التخطئة والتكذيب والاعتذار ولا يسع المقام لذكر لعرض المخازي وكشف العفن ونشر النتن.

وقد تخلل ثنايا حديث الإمام عليه السلام أحداث مثيرة لرموزٍ تورطت في قضايا كبيرة تجلّت فيها ملكاتهم ودخائل نفوسهم وما استقر في جوانحهم.

ولم يغفل الإمام المجتبى الشعر ودوره في كشف الواقع بما ترجمه قائله أو قيل في قضيته.

وحتى الأمثال المضروبة لم يضرب عنها الإمام عليه السلام صفحًا بل أوردها في موطنها مثلًا سائرًا وقولًا معبرًا.

هذا هو الإمام الحسن الكريم لم يوغل في التعرية والإفصاح عن كل ما يحيط علمًا ويدري به خبرًا.

١٠ ـ وقام الإمام فنفض ثيابه قائلًا:

«﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾، هم ـ والله يا معاوية ـ أنت وأصحابك هؤلاء وشيعتك، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ هم علي بن أبي طالب وأصحابه وشيعته.

ثم خرج وهو يقول: ذق وبال ما كسبت يداك، وما جنيت، وما قد أعد الله لك ولهم من الخزي في الحياة الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة».

١١ ـ وقد قام الأعداء يلعن بعضهم بعضًا:

«فقال معاوية لأصحابه: وأنتم فذوقوا وبال ما قد جنيتم، فقال له الوليد بن عقبة: والله ما ذقنا إلا كما ذقت، ولا اجترأ إلا عليك، فقال معاوية: ألم أقل لكم إنكم لن تنتصفوا من الرجل؟ فهل (فهلّا) أطعمتموني أول مرة أو

انتصرتم من الرجل إذ فضحكم، والله ما قام حتى أظلم علي البيت، وهممت أن أسطو به، فليس فيكم خير اليوم ولا بعد اليوم».

١٢ ـ وبخزي مروان تنفصم عرى البطلان:

فقد ساءه أنه لم يحضر ليشفي غليله ويشد حبل الباطل فأغروه بالإمام (وهم يعلمون أن مروان بذر لسان وفحش) فاستدعى معاوية الإمامعليه السلام فقال الإمامعليه السلام:

«ما يريد هذا الطاغية مني؟ والله لئن أعاد الكلام لأوقرن مسامعه ما يبقى عليه عاره وشناره إلى يوم القيامة»[١].

وجرى ما جرى من فضيحة وخزي وتعرية ما لا يغسله ماء السماء والأرض.

وبعد..

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[٢].

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٤٤/ ٧٠ ـ ٨٦، وقد أوردها شرح نهج البلاغة ٦/ ٢٨٥ ـ ٢٩٤ عن الزبير بن بكار في كتابه (المفاخرات) باختلاف في بعض جملها وتفاوت في عرضها وزيادة في الشعر وما إلى ذلك من موارد الاختلاف إلا أنها من سنخها وعلى شاكلتها فلتراجع المحاجة ولتدرس بما ينسجم وخطرها فإنها بذلك لجديرة وجاء في الهامش: راجع الاحتجاج ١٣٧ ـ ١٤٣، أقول وقد ذكر القصة بنحو آخر في تذكرة خواص الأمة لسبط ابن الجوزي ١١٤ ـ ١١٦ وأسندها إلى أهل السير، ثم شرح غريب ألفاظها ١١٦ ـ ١١٩ ونقل كثيرًا من مثالب هؤلاء عن كتاب المثالب لهشام بن محمد الكلبي.

(٢) سورة الإسراء / ٨١.

(٣) سورة فاطر / ٤٣.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[١].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

والفضل ما شهدت به الأعداء:

كان سعيد بن سرح مولى حبيب بن عبد شمس شيعة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلمّا قدم زياد الكوفة طلبه وأخافه، فأتى الحسن بن علي عليه السلام مستجيرًا به، فوثب زياد على أخيه وولده وامرأته فحبسهم وأخذ ماله ونقض داره، فكتب الحسن بن علي عليه السلام إلى زياد، وكتب زياد الجواب، فلمّا ورد الكتاب على الحسن عليه السلام قرأه وتبسّم وكتب بذلك إلى معاوية، وجعل كتاب زياد عطفه، وبعث به إلى الشام، وكتب جواب كتابه كلمتين لا ثالثة لهما: من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سمية، أما بعد، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: الولد للفراش وللعاهر الحجر، والسلام.

فلمّا قرأ معاوية كتاب زياد إلى الحسن ضاقت به الشام، وكتب إلى زياد: ...، وكتب في أسفل الكتاب شعرًا من جملته:

أما حسنٌ فابنُ الـذي كـان قبلَـهُ   إذا سارَ سارَ الموتُ حيـثُ يسـيرُ
وهــل يلــدُ الرئبــالُ إلَا نظـيرَهُ   وذا حســنٌ شِــبْهٌ لــه ونظــيرُ
ولكنهُ لـو يُـوزَنُ الحِلْـمُ والحِجـا   بــأمرٍ لقــالُوا يَــذْبُلٌ وثَبِــيرُ[٣]

---

(١) سورة غافر / ٥١.

(٢) سورة الروم / ٤٧.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٦/ ١٩٤ ـ ١٩٥، ملخصًا.

البند السادس: إمام الحرب والسلم:

ولقد تبوّأ المقام الأسمى، وتربع المنزل الأعلى، كيف لا وهو حجة الله على عباده، ووصي رسوله، والإمام الثاني بعد أبيه ـ صلى الله عليهم وسلم.

والإمامة قمة الكمالات وجماع المعالي والصفات.

والإمام القائم بأعبائها، والمتحلي بفضلها وفضائلها، والمجسِّد لجوهرها والمحيط بكافة شؤونها اصطفاء واختيارًا ونصًّا وتعيينًا.

وتحذو الإمامة حذو الرسالة فـ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾(١).

والله يعلم حيث يجعل إمامته فهو عز وجل الواهب والمهيمن على الأمر كله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾(٢).

ولقد ابتلي إمامنا المجتبى بمثل ما ابتلي به جده وأبوه عليهما السلام.

فكما شهدت أيام النبوة فوادح المحن وكوارث الخطوب فكذلك شهدت أيام الإمامة بل الأشد من البلاء وأفظع وأوسع وأوجع.

ولا مجال لعرض الأحداث الجسام والخطوب العظام من محن النبي المصطفى وما جرى على استباحة حريم قدس سيدة النساء وغصص الإمام المرتضى والسبط المجتبى.

---

(١) سورة الإنعام / ١٢٤.

(٢) سورة الأحزاب / ٣٦.

وقد ورث الإمام من أبيهعليهما السلام تركة ثقيلة تنوء بحملها رواسي الجبال فتولى أعباء الإمامة بعد تمرد الأمة وتمزق اشلائها بحروب ضروس: الجمل وصفين والنهروان، وهي نتاج لفلتات سابقة وانفلاتات ساحقة أفرزت بلاءات لا حقة وفرقًا مارقة ضلَّت في غياهبها الأحلام واظلمت القلوب وعميت الأبصار فتنكبت الجادة فتعثرت في بنيّات الطريق تختبط عشواء وتعثر عمياء.

وبعد مصرع الحق صريعًا في محراب ربه تولى ولي الله وسبط رسوله وخليفة وصيه بأعباء الإمامة الإلهية في محيط يعيش الحيرة ويحيا الصراع تتقاذفه الأهواء فأجاب دعوة الحق وبيعة الصدق ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾(١)، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(٢)، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وحفلت تلكم الحقبة العصيبة بالفتنة العارمة والامتحان العسير حيث ابتلي المسلمون بدعوة الحق متمثلة بالإمام السبط المجتبى وصيحة الباطل متمثلة بالملك العضوض معاوية بن أبي سفيان ومن لفَّ لفه واحتطب بحبله عشاق الدنيا وصنيعة الشيطان.

وجمع الإمامعليه السلام من يحمي دين الله ويذود عن مقدساته ويحفظ هيبة الحكم وتطبيق أحكامه، فآب إليه من رشد على تلكؤ وتقاعس وتردد وقلق وعميق اضطراب.

---

(١) سورة ص / ٢٤.
(٢) سورة سبأ / ١٣.
(٣) سورة يوسف / ١٠٣.

وقد صوَّر التأريخ الحقيقة:

أمر الإمامعليه السلام أن ينادى: «الصلاة جامعة» فاكتظ الجامع واعتلى المنبر وخطبهم: «أما بعد: فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسمّاه كرهًا، ثم قال لأهل الجهاد: اصبروا إن الله مع الصابرين، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، إنه بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم في النخيلة حتى ننظر وتنظرون، ونرى وترون».

فصموا وخرسوا، فقام عدي بن حاتم الطائي قائلًا:

«أنا عدي بن حاتم، سبحان الله ما أقبح هذا المقام!!! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم؟ أين خطباء المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا جد الجد فروّاغون كالثعالب، أما تخافون مقت الله، ولا عيبها وعارها»[1].

واستخبر القائم بأمر الله رعيته وهو الواقف على دخائلهم والمحيط بنزعاتهم وأهوائهم فوضعهم بذلك على المحك الدقيق فماذا هم صانعون؟! وأي مركب يمتطون؟! فهل يخوضون غمار الموت ويبذلون نفوسهم في سبيل ما يؤمنون به كما يدعون؟!

فقد خطب فيهم الإمامعليه السلام:

«ألا وان معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز، ولا نصفة فان أردتم الموت

---

(١) حياة الإمام الحسن، للقرشي ٢/ ٧٣ ـ ٧٤.

رددناه عليه وحاكمناه بظبات السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذناه بالرضا».

فإذا بالأصوات تضج: «البقية البقية»[(١)].

فرأى الإمام أن صلاح الدين وسلامة الأمة في المهادنة حقنًا للدماء متحملًا من أجل ذلك العناء كل العناء بأبي هو وأمي.

وما أبرم الأمر حتى انثالت سهام الاعتراض تترى بلاذع المقال وقوارص الكلام مما هو أحدّ من الحسام:

«مذل المؤمنين»، «مسود وجوه المؤمنين»، «ليتك مت».

فانبرى الإمام بعلمه وعظيم حلمه لإفهام الساخطين وكسر سورة المعترضين الجاهلين على اختلاف بواعث المنكرين.

فيدخل عليه أحدهم فيقول:

«يا ابن رسول الله لم داهنت معاوية وصالحته، وقد علمت أن الحق لك دونه وأن معاوية ضال باغ؟ فقال يا أبا سعيد ألست حجة الله تعالى ذكره على خلقه، وإمامًا عليهم بعد أبي عليه السلام؟ قلت: بلى، قال: ألست الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا؟ قلت: بلى، قال: فأنا إذن إمام لوقمت، وأنا إمام إذا قعدت، يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله صلى الله عليه وآله لبني ضمرة وبني أشجع، ولأهل مكة حين انصرف

(١) حياة الإمام الحسن، للقرشي ٢/ ١٠٩.

من الحديبية، أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل، يا أبا سعيد إذا كنت إماما من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفه رأيي فيما أتيته من مهادنة أو محاربة، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبسًا.

ألا ترى الخضر عليه السلام لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى عليه السلام، لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي، هكذا أنا سخطتم علي بجهلكم بوجه الحكمة فيه، ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الارض أحد إلا قتل»[١].

عجيبتان:

الأولى: مفارقة المواقف:

فترى أمة متلكئة تحب العافية وتجنح إلى الدعة فتأبى الكفاح وحمل السلاح فإذا بها تزري على المهادنة بعد أن وقعت بفعل ما رغبت؟!

الثانية: ويبقى الإنكار ممتدًّا:

فعن سدير قال: قال أبو جعفر عليه السلام ومعي ابني: «يا سدير اذكر لنا أمرك الذي أنت عليه، فإن كان فيه إغراق كففناك عنه، وإن كان مقصرًا أرشدناك قال: فذهبت أن أتكلم فقال أبو جعفر عليه السلام: أمسك حتى أكفيك إن العلم: الذي وضع رسول صلى الله عليه وآله عند علي عليه السلام من عرفه كان مؤمنًا ومن جحده كان

(١) بحار الأنوار ٤٤/ ١ ـ ٢.

كافرًا ثم كان من بعده الحسن عليه السلام قلت: كيف يكون بتلك المنزلة، وقد كان منه ما كان دفعها إلى معاوية؟ فقال: اسكت فإنه أعلم بما صنع، لولا ما صنع لكان أمر عظيم»[١].

وبعد..

فالشجاعة لا تتمثل فقط في الحرب وخوض المعارك ومقارعة الأبطال، بل تتجلى أيضًا في اتخاذ الموقف البطولي وإن كان سلمًا حياطة على الدين وحقن الدماء وإطفاء نائرة الفتنة والقيام بما فيه صلاح الأمة.

البند السابع: الإمام المظلوم والممتحن المهضوم:

الإعلام ودوره وخطره:

وهو الأداة الفاعلة، والقوة النافذة المؤثرة في تضليل الرأي العام وقلب الحقائق والموازين، يجعل الباطل حقًا والحق باطلًا.

ولا سيما إذا انبرى إلى استغلاله وتوظيفه ذوو النفوذ والقدرة والمكر والحيلة ووسائل الإغراء والتأثير، فيعملون جاهدين إلى الحط من أقدار خصومهم بتشويه سمعتهم ونشر الأكاذيب عنهم، في ترويج ذلك وبشتى الأساليب، والإغراض في تحقيق غايتهم مع طول النفس في الإثارة.

والأخبث في دور هذه الأداة إذا تولى القيام بها من يتبوأ مقعدًا مرموقًا ومركزًا دينيًا ومقامًا اجتماعيًا.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤/ ١.

والأنكى استغلال المتردي بمسوح القداسة ولباس الزهد والرهبنة.

وقد يجمع مع ذلك خفة العقل وتناهي الغفلة فيستغفل ويخدع فيشتد في الإذاعة والتضليل ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]، وتلكم محنة الإسلام، وبلاء أعلامه وعظمائه.

وكم في تأريخ الإسلام المشرق من الأبطال الأفذاذ من رجاله أضحوا غرضًا لحملات التشوي المستميتة، وهدفًا لرامية النبل المغرضة.

هذا رجل الإسلام الأفخم وبطله الأعظم وإمامه الأقوم (علي بن أبي طالب عليه السلام) ومن قام دين الله بتضحياته سيفًا على أعدائه، وعزًّا لأوليائه ومفزعًا عند الشدائد يحييهم بعلمه، ويحكمهم بعدله، يسن لهم طريق الهدى ويحملهم عليه ويرفع لواء الحق ويدعوهم إليه، من عقمت النساء أن تلد له نظيرًا.

وقد تنزلت الآيات وتواترت الروايات تبيانًا لجلال مقامه وتميزه بالكمالات، وله الشأن كله في أدوار الإسلام منذ بزوغه ونشأته وتشهد له مواقفه ومشاهده، شواهد لا يعترضها شك ولا يحوم حولها ريب يعلمها أعداؤه كما يعلمها أولياؤه.

ومع هذا التأريخ الحافل المشرق انبرى خصومه لإطفاء نوره والحط من شامخ قدره وسودوا الصحف بسيء الأباطيل وبهتان الأقاويل والأفاعيل.

---

(١) سورة الكهف / ١٠٤.

دع عنك حقد السابقين ونفاق الحاسدين ومكر الماكرين واستعرض استماتة المغرضين أيام (الملك العضوض) لتقف على دو (الإعلام) وخبث حيله، وانحراف سبله.

أ) «إن الحديث قد كثر في عثمان وفشا في كل مِصرٍ، وفي كل ناحية، فإذا جاءكم كتابي فادعوهم إلى الرواية في أبي بكر وعمر، فإن فضلهما وسوابقهما أحب إليَّ وأقر لعيني، وأدحض لحجة أهل هذا البيت، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله».

ب) «قال ابن أبي الحديد: ذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي: أن معاوية وضع قومًا من الصحابة وقومًا من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه وجعل لهم على ذلك جُعْلًا يرغب في مثله فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير»[1].

ج) «فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة وكان أعظم الناس في ذلك بليةً القُرّاءُ المراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤/ ٦٣.

الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها»[(١)].

د) قيل لمروان بين الحكم في سبِّه للإمام علي عليه السلام مع بعده عن الاتهام فقال: «لا يستقيم لنا الأمر إلّا بذلك»[(٢)].

هـ) «وروى أبو عثمان أيضا أن قومًا من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين إنك قد بلغت ما أملت فلو كففت عن لعن هذا الرجل فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلًا»[(٣)].

والمنقول عن بني أمية وأشياعهم كثير مبثوث في خطبهم ورسائلهم، وقد ذكر شطرًا وافرًا منه ابن أبي الحديد في شرحه ٤/ ٥٦ ـ ٧٣ و١١/ ٤٣ ـ ٤٦.

وبعد..

روى ابن أبي الحديد قول شيخهم أبي جعفر ـ ونعم ما قال ـ:

«قال: فالأحاديث الواردة في فضله لو لم تكن في الشهرة والاستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة لانقطع نقلها للخوف والتقية من بني مروان مع طول المدة وشدة العداوة. ولولا أن لله تعالى في هذا الرجل سرًّا يعلمه من يعلمه لم يُروَ في فضله حديث ولا عرفت له منقبة»[(٤)].

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١/ ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) الصواعق المحرقة / ٣٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ٤/ ٥٧.

(٤) شرح نهج البلاغة ٤/ ٧٣.

وصدق الله حيث يقول: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

المجتبى وارث المرتضى:

والإمام السبط المنتجب عنوان الحق ونهج الصدق نسخة من أبيه إمام الكمال.

وقد استهدف عليه السلام كما استهدف ابوه عليه السلام فأفرغت عليه الأمة الظالمة أحقادها وصوَّبت إلى ساحة قدسه نبالها، ورعفت أقلامها، كما بُحَّت أصواتها بنشر الكذب وإذاعة البهتان مستغلة بذلك استبدادها بالحكم وملكها الأمر وهيمنتها على البلاد والعباد.

وليس من الغرض نشر مقالة السوء ولا مناقشة سخيف الترهات، وإنما الغاية الحكاية عن السجل الحافل بمظلومية ريحانة رسول الله وسبطه الأول والجفاء المحيط به والبلاء الذي مني منه بأشده وأمضه في حياته وبعد شهادته حتى يومنا هذا.

فقد بلغت القحة والصلافة أن لاكت تلكم الأفائك ألسنة المستشرقين والمستغربين ورعفت بها أقلامهم فإلى الله المشتكى.

١ـ الطعن في عدم لياقته للحكم:

فقد انقلبت الموازين، وتبدلت المقاييس، فتصدرت الذنابا وتعالت الصعاليك حتى رأى معاوية نفسه لحكم الأمة أهلًا، والإمام الحسن الزكي

(١) سورة الصف / ٨.

غير لائق لها وكان يجهر بذلك في الملأ بما يحمله من وقاحة وصلف.

ولم يكن ذلك أول قارورة كسرت في الإسلام وإنما هو التأريخ المكرر والبلاء المبرم ومحنة الحق.

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«كنتُ في أيّام رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله كجزء من رسول الله صلى الله عليه وآله يُنْظَرُ إليَّ كما يُنظرُ إلى الكواكبِ في أفقِ السماء، ثم غضَّ الدهرُ مني، فقرنَ بي فلانٌ وفلانٌ، ثم قُرِنْتُ بخمسةٍ أَمْثَلُهُم عثمانُ، فقلت: واذَفَراه! ثُمَّ لم يرضَ الدهرُ لي بذلك، حتى أَرْذَلَنِي، فجعلني نظيرًا لابنِ هندٍ وابنِ النابغة! لقد اسْتَنَّتِ الفِصَالُ حتى القَرْعى»(١).

ومحنة الإمام المجتبى عليه السلام محنة أبيه المرتضى ـ عليهما صلوات ربهما ـ فأين تلكم النصوص الإلهية والنبوية؟! وأين تلكم الكمالات؟! وأين عقول الأمة وإدراكها لتمايز الحقائق وتنافي الحق والباطل؟!

٢ ـ الشجاعة:

فقد زوّروا كذبًا وفاهوا بهتانًا أن الإمام والده قال عن ولده:

«و أما الحسن فصاحب جفنة وخوان فتى من فتيان قريش ولو قد التقت حلقتا البطان لم يغن عنكم شيئًا في الحرب وأما أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منا»(٢).

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢/ ٣٢٦.

(٢) شرح نهج البلاغة ٦/ ١١.

ونفذت الأوهام إلى الأفهام فحملت خطأً في التصور، وخللًا في الفكر، وتضليلًا للحق، وإضاعة للصدق.

واستغلوا عند المقارنة اختلاف الحال بين زمني الحسنين عليهما السلام، فوازنوا بين ما اضطرّ إليه الإمام المجتبى عليه السلام من الهدنة وبين ما قام به أخوه سيد الشهداء عليه السلام حيث سطَّر الملاحم في عراص كربلاء بما بهر العقول وحيَّر الألباب، فاتخذوا ذلك أداة للانتقاص من السبط الأول الإمام وبما يمثّله من دور ينضوي في ظلّه أخوه والإمام من بعده.

«وإلا فإن الإمام قد أثبت في موقفه من معاوية، وصموده أمام تهديداته، وإرجافاته، أنه القائد المحارب، الذي لا يرهبه النزال ولا يخيفه لمعان السيوف وتلاعب الأسنة»[1].

وهذا فيما أورده السيد محمد جواد رحمه الله في بقية حديثه، وفيما مر ذكره من كلمات الإمام ومواقفه ومالم نذكره دلائل على تحليه بما ينبغي أن يتصف به إمام الأمة من الشجاعة وقوة البأس على أعداء الله.

٣ ـ كثرة الأزواج:

وقد اتخذت مادة للحط من قدر الإمام وشامخ المقام فأشاع الخصوم المغرضون واختلقوا ما شاء لهم الهوى بأنه عليه السلام زير النساء.

فكأنه بإفكهم ـ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا

(١) صلح الإمام الحسن للسيد محمد جواد فضل الله / ٢٢٤.

كَذِبًا ﴾[1] ـ لا همَّ له في دنياه إلا المتعة والاستلذاذ بإشباع غريزته، والاستبدال الدائم بحليلة بعد أخرى فكانت عدة تلك الزيجات تتضاعف عند كل مهملج لتبلغ ثلاثمئة امرأة.

وقد عموا وصموا ومرضوا وأغرضوا وأعرضوا عن أن حياة الإمام القصيرة مترعة بالأحداث الثقال ولا سيما أيام قيام أبيه بشؤون الإمامة والأمة، وزاخرة بعبادته وانقطاعه إلى ربه، وفيَّاضة بكمالاته الفذة.

وقد كشف لنا التأريخ صورًا من تحريف الحقائق والفضول المشين والهراء الفج في تناوله لرموز مقدسة فعاثت في تصويرها فسادًا.

فاقرأ عن الجناية الكبرى والخيانة العظمى فيما ألصقوا بسيدة من سيدات أهل البيت الطاهر عن السيدة (سكينة بنت الحسين) والخلط والخبط في تحليل شخصيتها ونسبتها إلى ما لا يليق بالكرام وذوي المروءات من الكافة ومن تعدد أزواجها.

وقد وفق الشهم الأخ الأستاذ رائد الطريفي لتجلية الحقائق في كتابه القيِّم (قرة العين في أخبار السيدة سكينة بنت الحسين)، فبذل جهدًا كبيرًا وتتبعًا طويلًا ودراسة شاملة دقيقة في نقض تلكم الدعاوى المزعومة، فكان كاسمه رائدًا وكان بحثه كلقبه طريفًا، فجزاه الله خير الجزاء وأناله شفاعة من انتصر لحقها والدفاع عن ظلامتها.

---

(١) سورة الكهف / ٥.

وكم لذلك من أشباه ونظائر رعفت في تسطيرها الأقلام وغصت بها كتب الأقوام عمدت لسرواة المجد وأرباب الكمال والأماثل شرفًا ونسبًا وعلمًا وحسبًا فأثارت حولها الشبه، واختلقت ضدها ما يزري من الأقوال والأفعال وحسبي هذه الإثارة والإشارة.

ولقد تولى عدة من الأعلام المحققين والباحثين الغيارى المخلصين دراسة (الاتهام) والإشاعة ببحث أسانيدها، وتعدد الأزواج وما تقتضيه من كثرة الأولاد، وتأخر تأريخ حملة الانتقاص والتشويه فما كانت لتفوت خصمه الألد معاوية أن يغتنمها للازدراء بالإمام عليه السلام.

وممن قرأت له من أولئك:

١ ـ الشيخ محمد باقر البهبودي:

في تعليقه على بحار الأنوار ٤٤/ ١٦٩ ـ ١٧١.

٢ ـ الشيخ باقر شريف القرشي:

في الجزء الثاني من كتابه (حياة الإمام الحسن بن علي)/ ٤٥١ ـ ٤٧٢.

وقد توسع في النقد والمناقشة وقال:

«وأكبر الظن أن أبا جعفر المنصور هو أول من افتعل ذلك، وعنه أخذ المؤرخون، وسبب ذلك هو ما قام به الحسنيون من الثورات التي كادت أن تطيح بسلطانه، وعلى أثرها ألقى القبض على عبد الله بن الحسن وخطب على الخراسانيين في الهاشمية خطابًا شحنه بالسبّ والشتم لأمير المؤمنين ولأولاده، وافتعل فيه على الحسن ذلك، وهذا نص خطابه:

إن ولد آل أبي طالب تركناهم ـ والذي لا إله إلا هو ـ والخلافة، فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير، فقام فيها علي بن أبي طالبعليه السلام[١]، فما أفلح وحَكَّمَ الحاكمين، فاختلفت عليه الأمة، وافترقت الكلمة، ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته، فقتلوه، ثم قام بعده الحسن بن علي فوالله ما كان برجل عرضت عليه الأموال فقبلها، ودسّ إليه معاوية أني أجعلك ولي عهدي، فخلعه، وانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه، وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة، ويطلق غدًا أخرى، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه»[٢].

٣ ـ السيد محمد جواد فضل الله:

في كتابه (صلح الإمام الحسن)/ ٢١٣ ـ ٢٢٢.

وقد حلل وعلل ودحض بثاقب نظره وعبَّر بجميل قلمه، تلكم الأراجيف في فذلكة تتحلى بالروعة والإبداع.

«وهل كان معاوية وعملاؤه ومن اشترى منهم دينهم، ليتورعون عن اختلاق الأكاذيب، وتنسيق الافتراءات على الإمام الحسن؟

إنهم لم يجدوا فيه ما يعيبونه، فزينت لهم أحقادهم أن يضفوا من المعايب ما ينالون به من مقام الإمام ومركزه، فلفقوا مهزلة المزواج المطلاق، ونسبوا لأبيه الإمام عليعليه السلام قوله: لقد تزوج ولدي الحسن وطلق حتى خفت أن يثير

---

(١) ليست في المصدر (مروج الذهب).

(٢) حياة الإمام الحسن، للقرشي ٢/ ٤٦٠ ـ ٤٦١ والخطاب نقلاً عن مروج الذهب للمسعودي ٣/ ٢٢٦.

عداوة، وغير ذلك من النسب المفتراة.

ومن هنَّ النساء اللاتي تزوجهن الإمام الحسن عليه السلام وطلقهن على عهد أبيه حتى يقرضه بهذا التقريض المفترى على لسانه؟

ومن هم هؤلاء الذين تزوج منهم الإمام وطلق؟ ولماذا سكتوا عن ذلك؟ ولا أقل من إظهار مشاعرهم في خسارتهم لمثل هذا الصهر العظيم.

إنهم ما كانوا، ولا كُنَّ بناتهم، ولم يكن هناك زواج أو طلاق بل هي تلفيقات حبكتها أمية بلؤمها ولكنها لم تحسن إحكامها...»[١].

٤ ـ الدكتور زكي مبارك:

في كتابه: المدائح النبوية في الأدب العربي.

وقد عرض لذلك سريعًا موجزًا في الفصل الثاني ـ مدح أهل البيت / ٤٦.

فقال عن الحسين:

«ولنتذكر أن بني أمية قاوموا هذه الصورة الشعرية، ولكنهم لم يفلحوا، فقد ظل الناس يحبون الحسين»[٢].

وقال عن الحسن:

«أما دسائس الأمويين ضد الحسن[٣] فقد ظفرت ببعض النجاح، ألم يستطيعوا أن يشيعوا في المشرق والمغرب إن الحسن لم يكُ صالحًا للملك، وأنه

---

(١) صلح الإمام الحسن للسيد محمد جواد فضل الله / ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) المدائح النبوية في الأدب العربي / ٥١.

(٣) جاءت (الحسين) والصحيح (الحسن).

كان رجلًا مفتونًا بحب النساء؟

ومن العجيب أن بني أمية حاربوا الحسن بلباقة سياسية منقطعة النظير فقد كانوا يودون اتهامه بضعف الأخلاق، وحب الإثم والفسوق، فلما عز عليهم ذلك قالوا: إنه لم يكن يتمتع بالنساء إلا عن طريق الحلال، فكان يتزوج المرأة ليلهو بها يومًا أو بعض يوم، ثم يطلقها ليبحث عن امرأة أفتن وجهًا، وأنضر شبابًا.

ومن العجيب أيضًا أن الهاشميين لم يقاوموا هذه الدسيسة، وأعجب من ذلك أن يعدوها من مفاخر ذلك السيد المزواج!»[١].

ونلاحظ في عرض الدكتور أمورًا:

أولًا: شجاعة القول وهو جريء مقدام فيما يتناوله من بحث.

وثانيًا: تأكيده على تولي الأمويين لأعمال الدسائس وإشاعة البهتان.

وثالثًا: نعته حرب الأمويين باللباقة السياسية المنقطعة النظير!

كلا، فلم يصدر عنهم إلا الإشهار والإغراق في التحقير وفي محاوراتهم ومناظراتهم ومن لفَّ لفهم إلا بذاءة القول وسخف الرأي.

ورابعًا: عدم مقاومة الهاشميين هذه الدسيسة! فمتى سنحت فرصة لديهم لإظهار رأي فضلًا عن تخطئته وتكذيبه، وامتد الكبت وكم الأفواه أيام الدولة العباسية، وقد مرَّ أنهم ضالعون في إثارة حملة التشويه.

---

(١) المدائح النبوية في الأدب العربي / ٥١.

وخامسًا: ولا أدري من الذي اعتدها مفخرًا؟!

ولا يفوتني أن أسجل إعجابي بقوة شخصية الدكتور الكبير وجميل لفتاته وصراحة قوله وجرأة صدرت عنه لم تعهد في كثير ممن عاصره إلى مواقف كريمة.

إلا أنه يتراءى منه الاعتداد بنفسه كثيرًا وربما نحى في تحليلاته وتعليلاته إلى الهزء والسخرية، كما في كلمته: «حتى أنت يا سليل الحسن بن علي تنكر الدعوة إلى تقديس الجمال»[1].

٥ ـ السيد جعفر مرتضى العاملي:

في كتابه (زوجات الإمام الحسن عليه السلام، أكاذيب وحقائق).

فقد عالج المسألة معالجة موضوعية متأنّية، واستعرض روايات الموضوع، ووقف عند رواية عبد الله بن سنان طويلًا بعد أن وصفها: «هي التي يمكن أن يدّعى أنها معتبرة سندًا، أما باقي الروايات فلا تملك سندًا يعتمد عليه»[2].

وقد ركّز السيد المرتضى ـ مضافًا إلى مناقشة الروايات ـ على البحث عن تلكم الزوجات الكثر وما ولدن للإمام عليه السلام وما ينسجم في ذلك قلّة وكثرة، فخلص واستنتج:

«**خلاصة ونتائج:**

وإذا أخذنا برواية الشيخ المفيد، وابن حاتم الشامي، فإن النساء اللواتي

---

(١) المدائح النبوية في الأدب العربي / ٥١.

(٢) زوجات الإمام الحسن عليه السلام، أكاذيب وحقائق / ٤٧.

ولدن للإمام الحسن عليه السلام وهن من الزوجات الحرائر، اللواتي يخرجن عن الزوجية بالطلاق هنّ ثلاث نساء:

١ـ أم بشير بنت أبي مسعود.. لها ثلاثة أولاد.

٢ـ خولة بنت منظور الفزارية.. لها ولد واحد.

٣ـ أم إسحاق بنت طلحة.. لها ولدان.

وباقي أولاده ولدن من أمهات مملوكات له عليه السلام.

ومجموع الأولاد من الحرائر تسعة.. والباقي يشك في أصل وجوده.. وإن وجد فيحتمل أن يكون من حرة، ويحتمل أن يكون من مملوكة...

وباقي أولاده كانوا قد ولدوا من أمهات أولاد، لا من زوجات يمكن طلاقهن، مع التأكيد على أن ما رواه المفيد رحمه الله هو المتيقّن، والباقي موضع ريب وشك.

وبعد ما تقدّم نقول:

هل يعقل أن يتزوّج رجل بعشرات النساء، بل ما بين خمسين إلى تسع مئة امرأة، ثم لا يرزق الولد إلّا من ثلاث منهن؟!»[1].

٦ ـ الدكتورة بيان عبيد العريض:

في كتابها (نساء في عصر الإمام الحسن عليه السلام).

فقد أفردت فصلًا (للحسن عليه السلام... زوجات وبنات) (ص١٩٢ ـ ٢١٧).

---

(١) زوجات الإمام الحسن عليه السلام، أكاذيب وحقائق / ٣٨ ـ ٣٩.

توفّرت فيه على تعدادهن، وعرضت آراء من تناولوا حديث ذلك، وخلصت إلى نفي تلكم الفرية، وبشاعة الأكذوبة.

٧ ـ الشيخ حسن مصطفوي:

في كتابه (الإمام المجتبى أبو محمد الحسن بن علي عليهما السلام).

فقد عقد الفصل ٥٦ بعنوان (أزواج الإمام عليه السلام) ص٢٢٨ ـ ٢٣٤.

وأجال فكره وقلمه فيما أثير حول المسألة، وخلص إلى هذه النتيجة:

«أقول: ونحن أحصينا زوجاته من هذه الروايات ومن سائر ما روي في الكتب غيرها، فلا تتجاوز عن اثنتي عشرة زوجة، واحدة منها باكرة، والباقية بين أم ولد وثيبة.

وأما الأقوال التي نقلت: فهي غير مستندة لا برهان لها، وتنتهي إلى قول المدائني وهو دعوى بغير دليل، وأما كونه عليه السلام طلقًا أو مطلاقًا فيتحقق مفهومه عرفًا بثلاث طلاقات أو أكثر منها.

فالمسلّم المقطوع به: هو تزوّجه عليه السلام باكرة واحدة وخمس زوجات ثيبات أو سبعًا، وتملّكه خمس أمهات أولاد، وأما الزائدة عليها: فلا سند لها في كتب الحديث والتأريخ والأنساب، والله أعلم بحقيقتها، وعلى أيِّ حال فلا إشكال فيها»[1].

٨ ـ السيد قاسم الموسوي:

في كتابه (ومضات من حياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام) ص٤٠ ـ ٥٤.

---

(١) الإمام المجتبى أبو محمد الحسن بن علي عليهما السلام/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

فقد أورد قائمة بأسماء زوجاته مقابلة بأولاده منهن، وخرج بنتيجة مماثلة لمن حقّق المسألة.

٩ ـ الشيخ وسام برهان البلداوي:

في كتابه (القول الحسن في عدد زوجات الإمام الحسن عليه السلام).

وقد قسّمه إلى فصول:

الفصل الأول:

تناول فيه تعدد الزوجات في الأديان السماوية وخاصة في الإسلام، وحِكَمَ مشروعيته، وتعدَّد زوجات النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، ونماذج من التعدُّد عند الصحابة، وأحكام وحِكَم الطلاق.

الفصل الثاني:

تناول فيه زواج الإمام الحسن عليه السلام في مصادر أهل السنة.

وقد ناقش في هذا الفصل روايات مصادر أهل السنة حول كثرة الزواج المدعاة، وفنّد الروايات سندًا ومتنًا.

وخلص إلى «أن هذه الفرية والكذبة على الإمام الحسن ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد اختلقت في زمن بني أمية وبني العباس»[1].

ولاحظ كذلك:

«فمعاوية وحزبه كما ترى كانوا يتتبّعون زلّات الإمام الحسن عليه السلام وهفواته

---

(١) القول الحسن في عدد زوجات الإمام الحسن ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ / ١٩٠.

حاشاه منها، فلو كان صحيحًا ما يقال عن كون الإمام الحسن عليه السلام مزواجًا ومطلاقًا لَمَا تردَّد معاوية وحزبه... في استغلال هذه الألقاب والتشنيع من خلالها على أهل البيت عليهم السلام عامّة وعلى الإمام الحسن عليه السلام خاصّة، فإن التأريخ لم يحدِّثنا بأنهم ذكروا شيئًا عن كونه مطلاقًا أو مزواجًا، وعدم ذكرهم لهذا الأمر يدلّ على أن هذا الوصف لم يكن معروفًا أثناء حياة الإمام الحسن عليه السلام وطوال مدة معاوية بن أبي سفيان...، وإنما أوجدت بعد زمن معاوية بن أبي سفيان»[١].

الفصل الثالث:

تناول فيه الكاتب روايات زواج الإمام الحسن ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من مصادر الشيعة.

وناقش هنا أيضًا الروايات سندًا ومتنًا ومعارضتها لعقائد الإمامية والأحاديث الصحيحة، ثم عدَّد أسباب اختلاق هذه الفرية.

وبعد..

فهذه ظُلامة ومأساة من ظلاماته ومآسيه الكثر الكبرى التي اكتنفت ساحة قدسه حيًّا وشهيدًا.

ألا وإن من أعجب العجب أن يستهدف بمتواتر السهام ومتوالي الطعون إمام الأمة، وسيد شباب الجنة، ومن أذهب الله عنه الرجس وطهّره تطهيرًا!! وكفى بمقامه وقدس شأنه وجليل ما جاء فيه من آيات وشريف مواقف تنزيهًا عن كلِّ شائبة ودفعًا لكلّ عائبة.

---

(١) القول الحسن في عدد زوجات الإمام الحسن ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ / ٢٠٨.

البند الثامن: وجاوز الحقد المدى:

وتوالت المحن على الإمام الحسن عليه السلام، ولم يهدأ للمجرمين بال، ولم يقر لهم قرار، وهم يرون السبط الأول وريحانة المصطفى يرمقه الصالحون بعين الإجلال والإكبار.

أ) وقد عمد خصمه الألد «فراسل عاهل الروم يطلب منه أن يبعث إليه سمًّا فاتكًا، فامتنع عن إجابته قائلًا له: إنه لا يصلح لنا في ديننا أن نعين على قتال من لا يقاتلنا...فراسله ثانيًا: إن هذا الرجل ابن الذي خرج بأرض تهامة قد خرج يطلب ملك أبيه، وأنا أريد إليه السم فأريح منه العباد والبلاد... فبعث إليه سمًّا مميتًا»[1].

«وكان سبب مفارقة أبي محمد الحسن عليه السلام دار الدنيا وانتقاله إلى دار الكرامة على ما وردت به الأخبار: أن معاوية بذل لجعدة بنت محمد بن الأشعث زوجة أبي محمد عليه السلام عشرة آلاف دينار وإقطاعات كثيرة من شعب سُورا وسواد الكوفة، وحمل إليها سمًّا فجعلته في طعام، فلما وضعته بين يديه قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله على لقاء محمدٍ سيد المرسلين وأبي سيد الوصيين، وأمي سيدة نساء العالمين، وعمي جعفر الطيَّار في الجنة، وحمزة سيد الشهداء عليهم السلام»[2].

---

(١) حياة الإمام الحسن، للقرشي ٢/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦ باختصار عن بحار الأنوار ٤٤/ ١٤٧.

(٢) بحار الأنوار ٤٤/ ١٤٠.

ب) ومن وصيته لأخيه الحسينعليهما السلام:

«فإن أبت عليك الامرأة فأنشدك الله بالقرابة التي قرَّب الله عز وجل منك والرحم الماسَّة من رسول اللهصلى الله عليه وآله أن تهريق فيَّ محجمة من دم حتى نلقى رسول اللهصلى الله عليه وآله فنختصم إليه ونخبره بما كان من الناس إلينا»[١].

ج) ولغط القوم وأجلبوا وركبت أمهم البغل:

«فلما مضى لسبيله غسّله الحسينعليه السلام وكفّنه وحمله على سريره، ولم يشك مروان ومن معه من بني أمية أنهم سيدفنونه عند رسول اللهصلى الله عليه وآله فتجمعوا ولبسوا السلاح، فلما توجه به الحسينعليه السلام إلى قبر جده رسول اللهصلى الله عليه وآله ليجدّد به عهدًا أقبلوا إليه في جمعهم ولحقتهم عائشة على بغل وهي تقول: مالي ولكم؟ تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحب، وجعل مروان يقول: «يا رب هيجا هي خير من دعة» أيدفن عثمان في أقصى المدينة ويدفن الحسن مع النبي؟ لا يكون ذلك أبدًا وأنا أحمل السيف، وكادت الفتنة أن تقع بين بني هاشم، وبين بني أمية»[٢].

د) وشكّت جنازته بالسهام:

«ورموا بالنبال جنازته حتى سُلَّ منها سبعون نبلًا»[٣].

وهكذا يصنع الحقد الدفين فلقد تجرع منهم الإمامعليه السلام الغصص، وأغرقوا

---

(١) بحار الأنوار ٤٤/ ١٥٢.

(٢) بحار الأنوار ٤٤/ ١٥٦ـ ١٥٧.

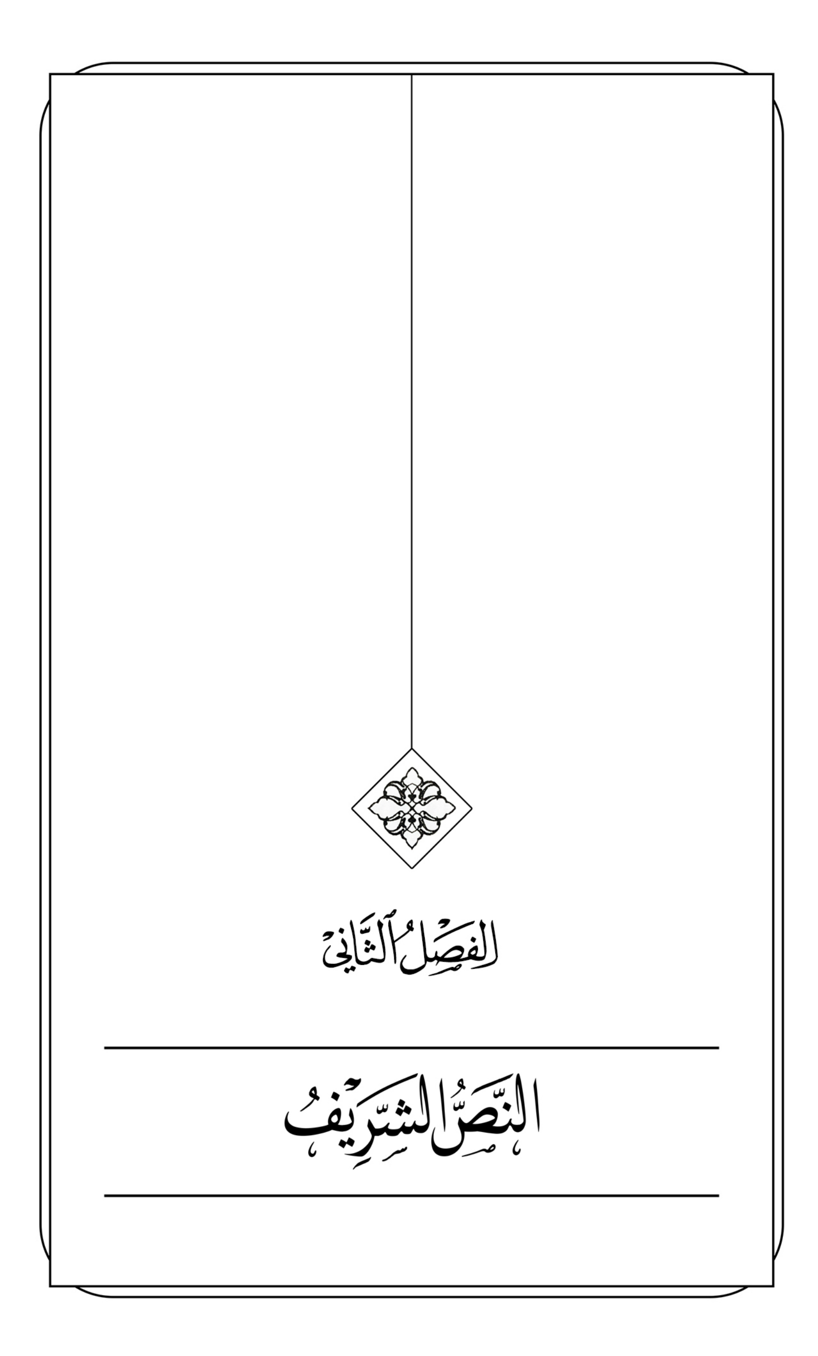
(٣) بحار الأنوار ٤٤/ ١٥٧.

في إيذائه في حياته، وبعد شهادته.

فلك الله ﷻ وبعينه ما لقيت من هذه الأمة المنكوسة التي أسست وسنَّت أساس الظلم والجور عليكم أهل بيت العصمة والرحمة وكفى بالله حاكمًا، وبالقيامة موعدًا، وبالنبي جده خصيمًا.

وسلامٌ عليك إمام الهدى وعمد التقى ورحمته وبركاته.

وصلى الله على النبي وآله ولعن ظالميهم.



الفصل الثاني

النص الشريف

نص الوصية

مِنَ الوَالِدِ الفَانِ، المُقِرِّ لِلزَّمَانِ، المُدْبِرِ العُمُرِ، المُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ المَوْتَى، وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا، إِلَى المَوْلُودِ المُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ المَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الغُرُورِ، وَغَرِيمِ المَنَايَا، وَأَسِيرِ المَوْتِ، وَحَلِيفِ الهُمُومِ، وَقَرِينِ الأَحْزَانِ، وَنُصُبِ الآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الأَمْوَاتِ.

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ وَالاِهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ، وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ المَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِرًا بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ، فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَ ى الله أَيْ بُنَيَّ، وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالاِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الله إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ، أَحْيِ قَلْبَكَ بِالمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ

بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّـلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا، وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ، فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجَهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَخُضِ الغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الحَقِّ، وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ وَمَانِعٍ عَزِيزٍ، وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ العَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ، وَأَكْثِرِ الِاسْتِخَارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ.

أَيْ بُنَيَّ إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنًّا، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْنًا، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ

غَلَبَاتِ الهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ، وَإِنَّمَا قَلْبُ الحَدَثِ كَالْأَرْضِ الخَالِيَةِ مَا أُلقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَئُونَةَ الطَّلَبِ وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ.

أَيْ بُنَيَّ إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ العُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ، ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي التبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَ فِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللهِ،

وَالاِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الأوَّلونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ وَعُلَقِ الخُصُومَاتِ، وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالاِسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلَالَةٍ، فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمًّا وَاحِدًا فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ العَشْوَاءَ وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ، فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ المَوْتِ هُوَ مَالِكُ الحَيَاةِ، وَأَنَّ الخَالِقَ هُوَ المُمِيتُ، وَأَنَّ المُفْنِيَ هُوَ المُعِيدُ، وَأَنَّ المُبْتَلِيَ هُوَ المُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ وَالاِبْتِلَاءِ وَالْجَزَاءِ فِي المَعَادِ أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الأَمْرِ وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ صلى الله عليه وآله،

فَارْضَ بِهِ رَائِدًا وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِدًا، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ وَإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَدًا وَلَمْ يَزَلْ، أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ، عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ، فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ وعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ.

يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ لِتَعْتَبِرَ بِهَا وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا، إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ فَأَمُّوا مَنْزِلًا خَصِيبًا وَجَنَابًا مَرِيعًا، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ وَخُشُونَةَ السَّفَرِ وَجُشُوبَةَ الْمَطْعَمِ لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَمًا وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَمًا، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ.

وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ إِلَى مَا

يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الأَلْبَابِ، فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ وَلَا تَكُنْ خَازِنًا لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَا غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الِارْتِيَادِ وَقَدْرِ بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ فَيُوَافِيكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُودًا الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقِلِ وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ المَتَابِ وَبَابَ الاِسْتِعْتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ، ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ فَإِنَّ العَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الآمِلِ، وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ وَأُوتِيتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ وَلَا تَبْقَى لَهُ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ،

وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى الآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ المَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ .

ذكر الموت

يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ وَتُفْضِي بَعْدَ المَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا، نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا، سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ العَمَى وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا .

الترفق في الطلب

رُوَيْدًا يُسْفِرُ الظَّلَامُ كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الأَظْعَانُ، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ، وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفًا

وَيَقْطَعُ المَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَادِعًا، وَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ وَأَجْمِلْ فِي المُكْتَسَبِ فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ، وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضًا، وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا، وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الهَلَكَةِ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ اليَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ.

وصايا شتى

وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الوِعَاءِ بِشَدِّ الوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ، وَمَرَارَةُ اليَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالحِرْفَةُ مَعَ العِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الغِنَى مَعَ الفُجُورِ، وَالمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ، مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ، قَارِنْ أَهْلَ الخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ، بِئْسَ الطَّعَامُ الحَرَامُ، وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ، إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقًا كَانَ الخُرْقُ رِفْقًا، رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالدَّاءُ دَوَاءً، وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ وَغَشَّ المُسْتَنْصَحُ، وَإِيَّاكَ وَالاتِّكَالَ عَلَى المُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى،

وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ.

بَادِرِ الفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً، لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَئُوبُ، وَمِنَ الفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ وَمَفْسَدَةُ المَعَادِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ، التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ، لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ، سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ، احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى البَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى العُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ، لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ الغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً، وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ، وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْمًا مَا، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ، وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الخَلْقِ بِكَ، وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الإِحْسَانِ، وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ

ظَلَمَكَ فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ، مَا أَقْبَحَ الخُضُوعَ عِنْدَ الحَاجَةِ وَالجَفَاءَ عِنْدَ الغِنَى، إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعًا عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ، اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْبَاهٌ، وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ العِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ، فَإِنَّ العَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ.

اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ اليَقِينِ، مَنْ تَرَكَ القَصْدَ جَارَ، وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ، وَالْهَوَى شَرِيكُ العَمَى، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ، مَنْ تَعَدَّى الحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ، قَدْ يَكُونُ اليَأْسُ إِدْرَاكًا إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكًا، لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ البَصِيرُ قَصْدَهُ وَأَصَابَ الأَعْمَى رُشْدَهُ، أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ، وَقَطِيعَةُ الجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ العَاقِلِ، مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ، لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ، إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ، سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ وَعَنِ الجَارِ قَبْلَ الدَّارِ، إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكًا وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ.

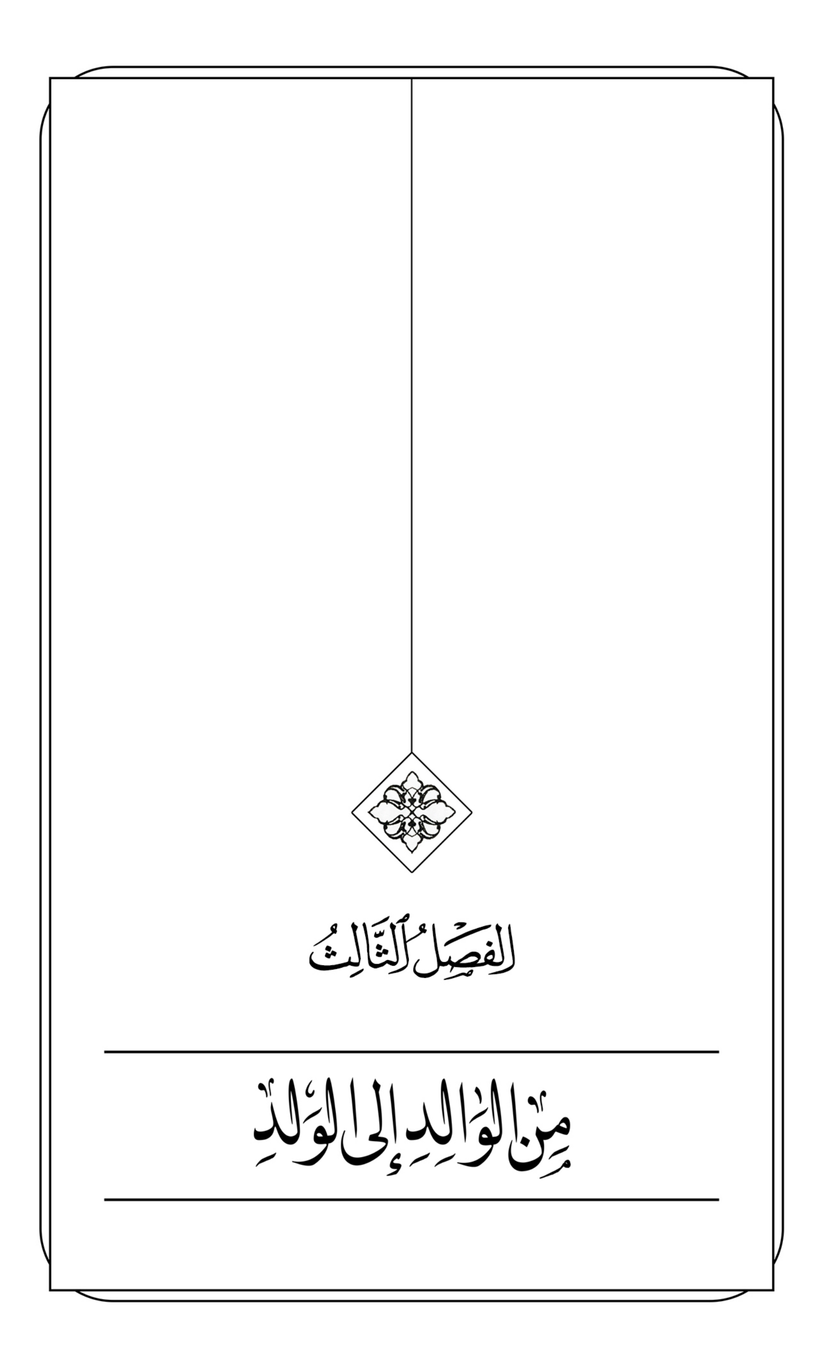
الرأي في المرأة

وَإِيَّاكَ وَمُشَوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ، وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ، وَلَا تُمَلِّكِ المَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ المَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ، وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا، وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ.

وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ، وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ.

دعاء

اسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ القَضَاءِ لَكَ فِي العَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلامُ.



الفصل الثالث

من الوالد إلى الولد

تنويه

بعد أن وضعت الحرب أوزارها والجراح بعد لم تندمل، يتألق فكر الإمامعليه السلام فيعنى بإفراغ الوصية وما يحمل من رؤى يعهد بها إلى فلذة كبده، ويدوّنها نهج حق وهداية، ووراثة كريمة، وأدب حياة.

من الوالد إلى الولد:

فنسبة (البنوَّة) قائمة بنحو (التضايف) والوالد أصل والولد فرع، وقد انحدر الفرع من صلب ذلك الأصل فهو من مائه وعصارة منه أراقها في مستقرها.

البصيرة وحكاية الواقع:

وقد استهل الإمامعليه السلام وصيته الإلهية، وحكمته الربانية، بعرض حقيقة موضوعية، وتبيان عميق، ووصف دقيق للمرحلة التي يحياها ويعيش أوضاعها ويدرك ما تؤول إليه في ختام مطافها.

١ ـ **(مِنَ الوَالِدِ الفَانِ)**:

وتلك لفتة بارعة، وحكاية رائعة، فقد كان ولدًا قبل أن يكون والدًا، وهو اليوم والد يدب إلى الفناء.

وقد جمعت الكلمتان الحاضر والمآل، وتضمنت عاطفة مفعمة، وحملت عصارة تأريخ وأدوار طوى مراحلها الوالدُ وينتظر أن يسير في دروبها الولد.

٢ ـ (**المُقِرِّ لِلزَّمَانِ**):

وللزمان فعله وتأثيره فيمن يحياه منذ خروجه إلى الدنيا يفترش حضن أمه رضيعًا، ثم يحبو ويدرج ويكبر وتكتمل قواه صبيًا وشابًا ويافعًا وكهلًا وشيخًا ثم يرد إلى أرذل العمر.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، ويأخذان منك فخذ منهما»[3].

والنظر للزمان حقيقة مغيبة لدى السواد الأعظم، والغالب فيمن يتأمل في صروفه وتقضي آناته بمتنوع الأحداث وتقلبات الأوضاع إنما يدرك ذلك بعد فوت الأوان ومضي السهم بما فيه.

---

(١) سورة غافر / ٦٧.

(٢) سورة النحل / ٧٠.

(٣) عيون الحكم والمواعظ / ١٤٤.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما من يوم يأتي على ابن آدم إلّا قال له ذلك اليوم: يا ابن آدم أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فقل خيرًا واعمل فيَّ خيرًا أشهد لك به يوم القيامة، فإنك لن تراني بعدها أبدًا.**

قال: **وكان علي عليه السلام إذا أمسى يقول: مرحبًا بالليل الجديد، والكاتب الشهيد، اكتبا على اسم الله، ثم يذكر الله عز وجل**»(١).

٣ ـ (**المُدْبِرِ العُمُرِ**):

فقد تقضّى زمان الصبا وولَّى الشباب، وذوت نظارة الحياة، ووهنت القوى، وليس بعد ذلك إلا تصرم العمر، والمشيب والشيخوخة المثقلة بتوارد الأعراض، واجتماع الأمراض.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾(٢).

٤ ـ (**المُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا**):

فهي تعصف به كما تشاء، وتميل به فتطرحه كما تهوى، تغريه زخارفها، وتستهويه بلذاتها، ويخدعه زبرجها، فتأسره مكتوفًا لا حول له ولا طول ولا دفع ولا منع، تمكنت فملكت طباعه، واستبدت فغيَّرت أوضاعه.

وسلطانُها النافذ المال والبنون فإنها زينة الحياة الدنيا، وسهمها الصائب

---

(١) الكافي ٢/ ٥٢٣.

(٢) سورة الروم / ٥٤.

الإغراء وجنودها أبناؤها قرناء السوء، وقائدُها الجهل بحقيقتها، ووخيم عاقبة من ركن إليها.

٥ ـ (السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الموْتَى):

فمن دبَّ على وجه الأرض دفن في بطنها، وكلهم صائر إلى تلكم الحفائر، طال عمره أو قصر، ومن خلف بعدهم فهو لاحق بهم.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۞ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[1].

والأحياء ورَّاث الأموات من آبائهم وأجدادهم الذين فارقوهم وهاهم الآن يستوطنون مساكنهم وربما كانت مدافنهم وسريعًا يجتمعون وربما في مقابرهم يدفنون.

٦ ـ (وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً):

وتلك حقيقة قائمة، يحياها كل حي، فيرى من سبقه ممن حلَّ فيها قد ارتحل عنها طالت مدته فيها أو قصرت، وهو صائرٌ إلى ما صاروا إليه، وذلك سبيلُ من لحقه.

ولقد تكررت هذه الحقيقة وتكثرت في كلمات الإمام عليه السلام:

«فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ... وَلْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ

(١) سورة الأنبياء / ٣٤ ـ ٣٥.

ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ»[١].

«**وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ... سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ وَقَاطِنُهَا بَائِنٌ**»[٢].

«**فَانِيَةٌ فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا... فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الأَبَدِ... فَاعْلَمُوا ـ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ـ بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنْهَا**»[٣].

والأجل مخبوء والعاقل الكيِّس من أقام الموت أمامه، فربما بغته وفَجَأَهُ (فالموت يأتي بغتةً)، ونهاية المطاف ظعن ورحيل معجلًا أم مؤجلًا، (ومن فاته اليوم لم يفته غدًا)، (وإن غدًا لناظره قريب).

الولد:

ولقد قرر الإمام عليه السلام حقيقة ما يتغلغل في طبيعة (الولد) وما يتوارد عليه في حياته ومنذ نشوء مداركه من شؤون الدنيا وشجونها.

أجل..

لقد صور تلكم الشؤون بشجونها رائعًا، وجسدها بارعًا.

ونلاحظ فيما عرضه وعدَّده ببليغ القول تصنيفها إلى:

أ) ما يحمله في طيَّات نفسه وينزع إلى نيله.

ب) ما يغزوه ويهجم عليه فيصرعه ويرديه مستسلمًا لا حيلة له في دفعه

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨٦/ ١١٦ .

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٦/ ٣١٠.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١١/ ١٦٥ ـ ١٦٦.

ولا سلطان له في منعه، فإلى قراءة ذلك في بيان الإمام عليه السلام.

١ ـ (**إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ**):

يحيا ابن آدم وقرينُه أملُه، بل لا حياة له بدونه، ويمثل (الأمل الإيجابي) عنصر استقرار، وباعث طموح في مسيرة الإنسان، فله في ذلك الدور الفاعل.

وإذا ماخرج عن دوره وضوابطه فهو (الأمل السلبي) الذي يعصف بفكر صاحبه، وإيمانه، وسلوكه ويطيح به في دوَّامة من الانفلات والشتات.

ركيزة: (يُدرَك):

فبناء الفعل للمجهول بدلًا من (يُدرِك) يعني اتساع الأمل وانتشاره، حيث لا يبلغ المدى ولا تقطعه الخطى، وذلكم هو القلق والضياع والبلاء والعناء.

ونظرًا لتغلغل هذه النزعة في حياة الإنسان فقد أولتها التربية الإلهية عنايتها تقويمًا وكبحًا لجماحها وحملًا لها لتسير مسارها.

فهذا القرآن الكريم والذكر الحكيم يعرض في حكايته عن الكفار وعوامل انصرافهم عن دعوة الحق والإسلام فيقول:

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الحجر / ٢ ـ ٣.

ويقول عن (الأمل) الهادف بعد ذكره لنماذج من الرغاب وشعب الأمل الزائل:

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾[1].

إذن فثمت (أمل) ملهٍ، لا خير فيه، و(أمل) هو الخير كله.

وقد تناول الإمام عليه السلام في نهجه الموضوع ضمن خطبه الطوال وحكمه القصار.

فمن ذلك:

أ) «**عِبَادَ اللهِ إِنَّكُمْ وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا أَثْوِيَاءُ[2] مُؤَجَّلُونَ**»[3].

ب) «**وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ المَالَ وَحَذِرَ الإِقْلَالَ وَأَمِنَ العَوَاقِبَ طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ المَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ المَنَايَا يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ حَمْلًا عَلَى المَنَاكِبِ وَإِمْسَاكاً بِالْأَنَامِلِ أَ مَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً وَيَبْنُونَ مَشِيداً وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً وَمَا جَمَعُوا بُوراً وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ**»[4].

ج) «**أَلاَ وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَل مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلهِ قَبْلَ**

---

(١) سورة الكهف / ٤٦.

(٢) أي ضيوف، وشأن الضيف ينتهي لأجل.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٢٩/ ١١٧.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٣٢/ ١٩٠.

حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ، وَلَمْ يَضرُرْهُ أَجَلُهُ، وَمَنْ قَصَّرَ في أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلَهُ، وَضَرَّهُ أَجَلُهُ»[١].

د) « **النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ... وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ»**[٢].

هـ) «**وَاعْلَمُوا أَنَّ الأَمَلَ يُسْهِي العَقْلَ وَيُنْسِي الذِّكْرَ فَأَكْذِبُوا الأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ»**[٣].

وكم له عليه السلام من روائع وإبداع وجوامع حكم في هذا المضمار كقوله عليه السلام في الدنيا:

«**وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ المَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ فَلا أَمَلٌ يُدْرَكُ وَلا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ»**[٤].

ومن قصار حكمه العالية:

«**مَنْ أَطَالَ الأَمَلَ أَسَاءَ العَمَلَ»**[٥].

وجليٌّ أن التعلق بحبل الآمال من سمات النفس ونزعاتها، وهي من الداء الباطن، والبلاء الكامن.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٨/ ٧١.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٤٢/ ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨٦/ ١١٨.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٤/ ١٧٠. ولاستيفاء جملة من تلكم الحكم يراجع (المعجم المفهرس لنهج البلاغة) مادة (أمل) / ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٥) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٦/ ٤٧٥.

٢ ـ **(السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ)**:

ومادام سائرًا في طريقهم فسينتهي به مسراه إلى غايتهم ويؤول مآلهم، وقد هلكوا، وهو على أثرهم هالك، طال به عُمرٌ، أو قصر به أجل.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(١)، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾(٢)، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٣).

الحياة بؤر المصائب وتواتر المحن:

فما خلقت الحياة للبقاء، ولم تمحض بسلامة دون عناء، ولا بسعادة دون شقاء، وإنما خلقت للفناء والبلاء.

وحيث كان أمرها ذلك فهي مرمى النوائب، ومبتغى العوادي، وسهام الخطوب، نافذة في كيانها فتقهر من حلَّ فيها، وتودي بحياته وترديه فيرحل عنها.

طُبِعت على كَدَرٍ وأنتَ تَرُومُها   خِلْوًا من الأقذاءِ والأكدارِ

ولقد صوَّرَ الإمام عليه السلام ببلاغته وبراعته ضروب مايحل بابن آدم من غصص منغصات، ومكاره مهلكات، وشدائد مرديات، مؤكدًا مكررًا مردفًا ضراوة أفاعيلها، وقساوة فتكها موغلة محتنكة فريستها.

---

(١) سورة الزمر / ٣٠.

(٢) سورة الرحمن / ٢٦.

(٣) سورة القصص / ٨٨.

فابن آدم في ذلكم المعترك الشائك:

أ) (**غَرَضِ الأَسْقَامِ**): تنتابه بالعلل، وتتواتر عليه الأمراض، ويستولي عليه الوهن والضعف، وربما سقم من غير علة، ومن حيث لا يحتسب.

ب) (**وَرَهِينَةِ الأَيَّامِ**): احتجزته رهن يديها، مادام قاطنًا فيها، حتى تدفعه إلى حتفه وحفرته.

ج) (**وَرَمِيَّةِ المَصَائِبِ**): اتخذته مرمى لنوائبها، لا ينفلت من مصيبة إلا رمته بأشد منها، فيصاب في دينه، وعمره، وماله، ومن أحب من أهله، وما يهواه من متع حياته.

د) (**وَعَبْدِ الدُّنْيَا**): أغرته بزخارفها، وزيَّنت في عينه زبرجها، واستمالته ببريقها، فملكت عليه قلبه، وأعمت بصيرته ولبَّه، فعاد مأسورًا في قبضتها، فتحكمه كما تشاء، وينقاد إليها كما تهوى.

هـ) (**وَتَاجِرِ الغُرُورِ**): فهو يلهث خلف السراب، ينخدع لأدنى بارقة، فيبني دنيًا من الأوهام والأحلام، وسرعان ما يصحو على زيف الأماني، وإن سدر في غروره فهو الغارق في ظلام لا يبصر فيه صبحًا.

ويظنُّ في بَرْقِ الأماني وابلًا   إنَّ الأماني بَرْقُها خَلَّابُ

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].

و) (**وَغَرِيمِ المَنَايَا**): فهو المديون للموت، وانقطاع الأجل، والانقلاب

---

(١) سورة آل عمران / ١٨٥.

عن هذه الدنيا بغير زاد وراحلة.

المـــــوتُ يـــــأتي بغتـــــةً   والقـــبرُ صـــندوقُ العَمَـــلْ

ز) (وَأَسِيرِ المَوْتِ): فهو آخذ بزمامه وخطامه، وتحت قبضته شاء أم أبى، فلا مفرّ ولا فرار، وتلكم هي الحقيقة الراهنة، والواقع القائم، وإن غفل عن ذلك أو تغافل من لا يحب أن يمر على مسامعه ذكر الموت.

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[١].

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾[٢].

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ ﴾[٣].

ح) (وَحَلِيفِ الهُمُومِ): فهو والهموم قرينان، لا ينفك عن همٍّ بل وهمومٍ مادام حيًّا، قَلَقٌ يساوره لرزقه، وخشيةٌ تلفّه لمستقبله، واضطرابٌ يغشاه لعمره وموته، وانزعاج منيخ لخيبة آماله.

نــــروحُ ونغـــدُو لحاجاتِنـــا   وحاجةُ مَنْ عـاشَ لا تنقـضي

وثمة همٌّ دونه تجرع الغصص، وهو معاناته من سوء ما فرَّط أيام غفلته، ورهبة ما يقدم عليه بعد خروجه من دنياه.

ط) (وَقَرِينِ الأَحْزَانِ): وهي صفة لا تنفك عن (حليف الهموم) فالحزن قائم، فكلما كان مهمومًا كان محزونًا.

---

(١) سورة النساء / ٧٨.

(٢) سورة الجمعة / ٨.

(٣) سورة الأحزاب / ١٦.

ي) (**وَنُصُبِ الآفَاتِ**): قد أقامته العلل نصب عينيها فأعملت في نقضه.

ك) (**وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ**):

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[1].

فتبعثه شهوته فيشبعها كما تهوى فتصرعه كما تشاء.

ل) (**وَخَلِيفَةِ الأَمْوَاتِ**): فقد ذهبوا، و«الكل في الأحياء ذاهب» وهو على الأثر بهم لاحق.

ونحوه قول بعض الحكماء: إن امرؤ ليس بينه وبين آدم إلا أب ميت لمعرقُ النسب في الموت[2].

بيان:

ولئن كانت مصائب الدنيا وما يعرض فيها تكتنف وتحتنك عامة من احتضنته إلا أن نخبة مميزة بمنأى من الخلود إليها، والوقوع ضحيتها، لكمالهم عقلًا وعلمًا واستقامةً وعصمة، فهم عباد الله وأولياؤه المخلصون الموصوفون بـ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ بل هم المعنيون بقوله سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ ومن

(١) سورة آل عمران / ١٤.

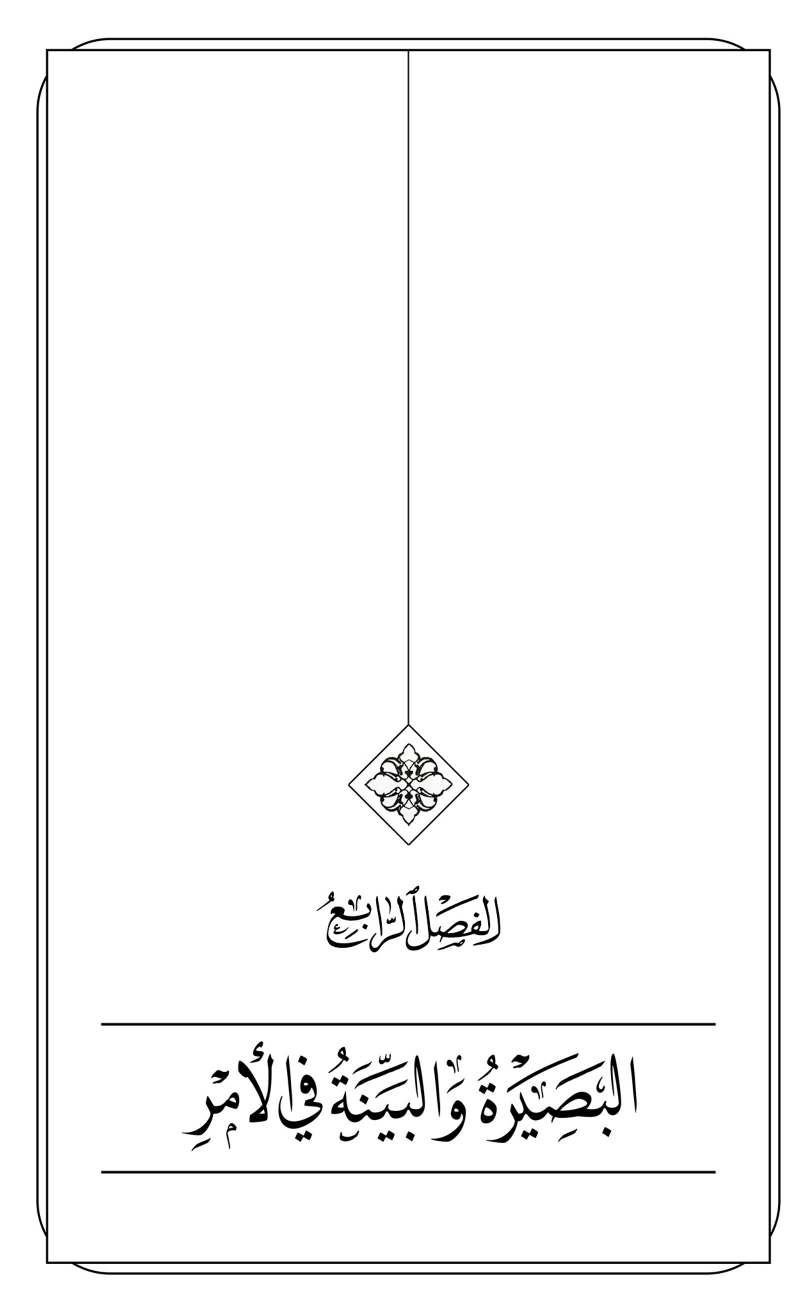
(٢) شرح نهج البلاغة للبحراني ٥/ ٤.

أمر بالاقتداء بهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾.

الخلاصة:

فإن بنود هذا الفصل من الكتاب الكريم والسفر الجليل حكاية عن شأن الحياة الدنيا، وما طبعت عليه من شؤون الاستهواء والإغراء والاستعباد، وما تجرعه من الغصص، وما تنتهي به من الفتك والاستئصال.



الفصل الرابع

البصيرة والبينة في الأمر

(أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ وَالِاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي):

فقد خبر الإمام عليه السلام ـ وهو الرجل الإلهي ـ الحياة الدنيا، ووقف على سرها وعلم أنها مُدْبِرة، وأنه مدبر عنها، بل طلقها بائنًا لا رجعة له فيها، وليقينه أنه عن قريب مفارقها.

والدهر نافر جموح لا يقبل ترويضًا بل هو المشاكس المعاند، والمتفلت الشارد، فلا يقر له قرار، ويأبى على صاحبه تربيته وكبح جماحه.

هذا والآخرة مقبلة، فالعمر منصرم، والأجل منقطع، فماذا بعد هذه العلل الثلاث من موقف يتخذ؟

النظر إلى النفس:

ولا شيء أعز على الإنسان من نفسه، فهي أولى بكل عناية ورعاية، ومن شُغل بنفسه منعه ذلك عن النظر إلى غيره، والاهتمام بسواه في كل شأن من شؤونهم بل عن الدنيا بأسرها، وإن كان موضع العناية إلا أن خاصة النفس أهم، والعناية بها أولى وأجدى.

الوالد والولد لحمة بعضًا وكُلاًّ:

(غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ

لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ، وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ المَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِرًا بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ):

وتأكيدًا لما سبق فإن هموم الناس في تقويم طباعهم وإصلاح أوضاعهم من مسؤولياته إلا أن همّه بخاصة نفسه وهي تغذ السير مسرعة إلى آخرتها أولى بالتقديم.

وهو الواثق كما قال: « وصدقني رأيي».

وعلى القراءة الأخرى: «فصدفني» أي صرفني، كما قال الشيخ التستري رحمه الله إنها الأصوب لأنها جواب (حيث)[1].

والمراد أنه بعد الوقوف على واقع (الحياة الدنيا) وعنت (الدهر) وتفاقم أمر الرعية فقد صدقني رأيي لنفسي، وصرفني عن سواي، وتجلّت الحقيقة المحضة، والواقع من غير لبس وشائبة، فأفضى بي ذلك إلى قرار حاسم ورأي قاطع وهو القول الفصل، جد لا لعب فيه ولا هزل، وصدق لا مرية فيه ولا كذب.

همُّه بولده همُّه بنفسه:

وليس في ذلك تراجع عما خلص إليه عليه السلام في قصر همه على ذاته وشخصه، فإنه وإن أعرض عن الكافة، وصرف وجهه وفكره عن الدنيا، فقد أقبل بكله على نفسه ومتمثلة فيمن هو منه وإليه روحًا وجوهرًا ومظهرًا.

---

(١) بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ٨/ ٢٤٥.

«وجدتك بعضي بل وجدتك كلي»:

والإمام الحسنعليه السلام ابنه وبضعته وسلالته، وهو قلبه وروحه، وتمثُّل إمامته فيه قائمًا بأمرها، متحملًا بأعبائها، متخلقًا بأخلاقه.

وهو جزؤه وبعضه في حياته، وجميعه وكله بعد وفاته، فعنايته بفلذة كبده، عنايته بنفسه، فالهم واحد.

ومن شأن البعضية والكلية اعتداد ماينال الفرع واصلًا لأصله إذ هو شعبة منه «حتى كأن شيئًا لو أصابك أصابني»[(١)].

بل وما هو أعظم من بلاء الدهر ومحنه ـ وإن جلَّت ـ ألا وهو فاجعة الموت، فلا أعز على الإنسان من نفسه، والإمام الابن هو ذات أبيه الإمامعليه السلام.

«وكأن الموت لو أتاك أتاني».

فالنتيجة: «فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي».

ومن منطلق ذلك:

«كتبت إليك كتابي مستظهرًا به إن أنا بقيت لك أو فنيت».

فالكتاب الشريف وثيقة إلهية «وكفى بها دستورًا إرشاديًا لكل مسلم بل لكل إنسان».

---

(١) قال العلّامة المقدّس الشيخ فرج العمرانرحمه الله: سألت ابني محمدًا ذات يوم وهو حينئذ ابن اثنتي عشرة سنة عن قول أمير المؤمنينعليه السلام لولده الحسنعليه السلام: (وجدتك بعضي بل وجدتك كلي)، ففكر قليلًا وقال: (وجدتك بعضي) يعني في حياته، (بل وجدتك كلي) يعني في مماته.

أقول: فراقني الجواب جدًّا، وتعجّبت منه كيف اهتدى إلى هذا الجواب الذي لم أره سطر في كتاب. الأزهار الأرجية في الآثار الفرجية ٣/ ٦٢، ثم أخذ الشيخ في شرح معناه.

..ثم سرد النصائح ونظم المواعظ لتكون وصيته هذه إنجيلًا لأمة الإسلام[١].

والعلم والأدب وراثة كريمة، والسِّفْر الأنفس لباب الحق، وجماع الخير، وجوهر الرأي، ومحض الفكر، وثمرة العقل، ومن أقواله عليه السلام:

«العِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ وَالآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ وَالفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ»[٢].

إن بقي مبدعها فهي رؤاه، وهديه، وسيرته، يحيا روحها، ويقوم بأمرها، وإن رحل فهي تراثه وعطاؤه وفكره وذكره «إذ كان ما اشتملت عليه هذه الوصية من الحكم والآداب ومكارم الأخلاق، وتعريف سلوك سبيل الله مما راض به نفسه في مدة عمره، اقتفاء لأثر الرسول صلى الله عليه وآله واقتداء به فاقتضت عنايته به أن يحثه على العمل بها»[٣].

وذلكم هدي الله ـ جلَّت آلاؤه ـ لعباده إذ بعث أنبياءه، وأقامهم حججًا على عباده، مبشرين ومنذرين هادين.

وأنزل على خاتمة رسله ختام كتبه قرآنًا ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

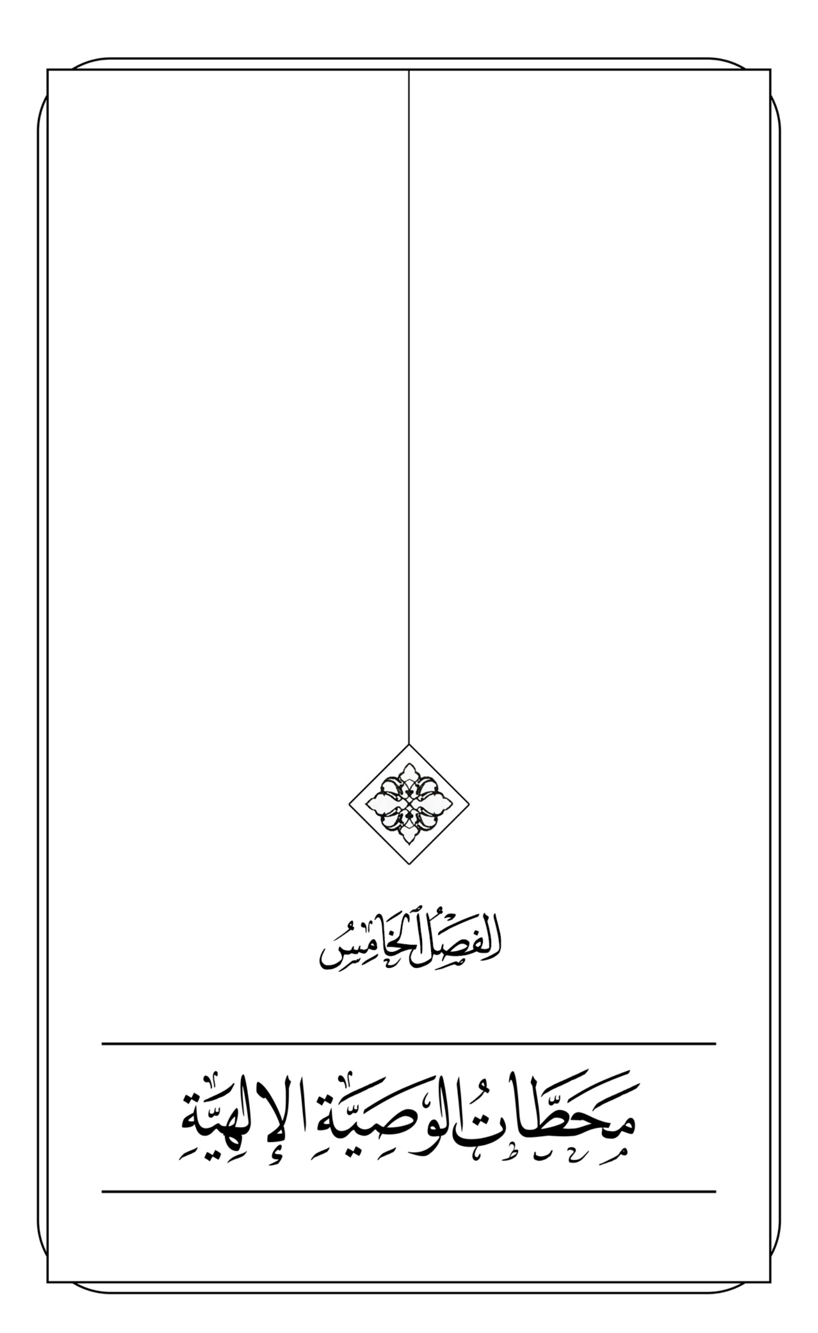
وأمر عزّ وجلّ باقتفاء آثار مهابط وحيه وخزّان علمه ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

---

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ٢٠/ ٣ ـ ٤.

(٢) نهج البلاغة، حكمة ٥/ ٤٦٩.

(٣) شرح نهج البلاغة للبحراني ٥/ ٦ ـ ٧.



الفصل الخامس

محطات الوصية الإلهية

التقوى وفضائل أخرى

«فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَ ى اللهِ أَيْ بُنَيَّ»:

يستهل الإمام المربي وصاياه ببيان أساس الركائز، وعماد القواعد، وجوهر الأمر وقوامه، فلا شيء سواه يغني عنه ولا صلاح إلّا به.

وذلكم هو ارتباط العبد بمولاه، والمخلوق بخالقه، والمدبَّر بمدبِّره والفقير المطلق بالغنيّ المطلق.

«والله» هو الخير، ومصدر كل خير، منه يبدأ وإليه يعود، المالك المطلق، والمهيمن على الأمر كله.

ومن ثم فقد عُني الإمامعليه السلام بالمحور الأساس يغدو عليه ويروح مكررًا ومؤكدًا ومذكرًا بمركز الارتباط والاتصال بالمولى الرب والانقطاع عمَّن سواه، فافتتح وثيقته التربوية وحكمه الربانية بـ«تقوى الله».

والتقوى: من جوامع الكلم في اتساع معناها واستيعابها لكافة الملكات والفضائل، فهي من أمهات المحاسن الأخلاقية.

وقد أفاض الإمام في نهج بلاغته الخالد في الحديث عنها ومحوريتها وعظيم خطرها، وجليل أثرها.

فقد اعتدَّها الأولى في منظومة الأخلاق:

«**التُّقَى رَئِيسُ الأَخْلاقِ**»[١].

وأرادها أصيلة خاصة:

«**فاتَّقُوا اللهَ ـ عِبادَ الله ـ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَه**»[٢].

ونصَّ على عمق تغلغلها وسعة مدلولها:

«**اتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ البِقَاعِ وَالبَهَائِمِ**»[٣].

وعرضها مجسمة ماثلة قائمة في المتحلين بها حين طلب إليه (همَّام) وصف المتقين كأنه ينظر إليهم، فتثاقل عن جوابه، ثم قال عليه السلام: اتق الله وأحسن فـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ فلم يقنع همَّام بذلك القول حتى عزم عليه، فأورد تلكم الخطبة الجليلة فصعق لها همَّام.

وقد تناولتُ التقوى عند الإمام عليه السلام أكثر تفصيلًا في (الأخلاق من نهج البلاغة) / ١١٥ ـ ١٣٣.

ولا يفوتني أن أسجل:

أن قوله عليه السلام: «أي بني» تحتل جمال الموقع، وجلال الهدف، وروح العطف، وعمق الحنان واللطف.

أجل: فقد بدأ بالوصية بـ(التقوى) الجامعة لمراقبة العبد نفسه في كافة

---

(١) نهج البلاغة، حكمة ٤١٠/ ٥٤٨.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨٣/ ١١١.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٦٧/ ٢٤٢.

شؤونه، فيتحلّى بما يقرّبه من ربّه، ويتحلّى عمّا يوجب بعده عنه، ويسخطه عليه، فقد أوصى الله ﷻ بالتقوى في كثير من الآيات البيِّنات:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[2].

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[3].

«وَلُزُومِ أَمْرِهِ»:

ولا سبيل إلى ذلك إلا بلزوم أمره في كل حال من أحواله، فيما أحب أو كره.

وذلك ما عناه الله في قرآنه العظيم في قوله سبحانه: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾.

«وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ»:

والقلب مركز الصلاح والفساد، والعمران والخراب، وعمارته بذكر الله، ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾، وخرابه بوساوس الشيطان، ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

ومما قاله عليه السلام في موقع (القلب) ومركزيته:

---

(١) سورة البقرة / ١٩٤.

(٢) سورة آل عمران / ١٠٢.

(٣) سورة المائدة / ٢٧.

«وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ البَدَنِ مَرَضُ القَلْبِ، أَلَا وَإِنَّ مِنْ صِحَّةِ البَدَنِ تَقْوَى القَلْبِ»(١).

وله عليه السلام مقال جليل ـ وكل قوله جليل ـ يشرح فيه محورية القلب وما يعرضه من موادِّ الحكمة وأضداد من خلافها:

«لَقَدْ عُلِّقَ بِنِيَاطِ هَذَا الإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ، وَذَلِكَ القَلْبُ، وَذَلِكَ أَنَّ لَهُ مَوَادَّ مِنَ الحِكْمَةِ وَأَضْدَاداً مِنْ خِلافِهَا».

وبعد عرضها وآثارها يجمل أمره وشأنها قائلًا:

«فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ»(٢).

(وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ):

وحبله ما أوصل إليه غير منقطع عنه، فقرآنه الكريم حبله الممدود بينه وبين عباده، والنبي وآله عليهم السلام كذلك، ودينه الجامع، وشرعه المبارك حبله المتين ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾.

وإذا ما لزم الجادة القويمة، وسلك درب الهداية المستقيمة، وتمسك بأسباب السلامة أمن العثار والعطب والحيرة والضلال وبلغ الغاية التي يجب أن يبلغها.

وقد حصر الإمام عليه السلام ضمان ذلك بالتعلق والتمسك بما جعله الله عز وجل سببًا وثيقًا لذلك.

---

(١) نهج البلاغة، حكمة ٣٨٨/ ٥٤٥.

(٢) نهج البلاغة، حكمة ١٠٨/ ٤٨٧.

(وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ):

فهو العروة الوثقى لا انفصام لها.

السجل الحافل بغرر الفضائل

وقد جمع فأوعى عوامل الالتزام الحق، والانضباط الصدق في متنوع النواحي، ومتشعب المناحي من أخلاق كريمة، ومواطن البصيرة والنظر، وبواعث التأمل والعبر وحوادث الأيام والسير، وكافة عوامل صون النفس واستقامة الذات.

فإلى العطاء الزاخر:

١ ـ «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ»[(١)]:

القلب: مصدر قلب يقلب، بمعنى يصرفه عن أمر إلى آخر.

وقيل في التسمية قلب الإنسان لكثرة تقلبه، فهو موطن الانفعال والتأثر والتبدل والتحول، فله بذلك خاصية التكيف بما يرد عليه من سعادة وشقاء، ولو ترك بحاله لكان ميتًا وحياته بالموعظة فهي الماء يحيي الأرض، وينبت الزرع، وينتج الثمر.

---

(١) جاء في تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٨: وقال ابن أبي الدنيا: قال بعض الحكماء: أحي قلبك بالمواعظ... إلى قوله: وأين حلّوا.

وذكر عبارة أمير المؤمنين عليه السلام بعينها مع اختلاف بسيط قد يكون من النسخ، ولم ينسبها لأمير المؤمنين عليه السلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«**في الإنسان مضغة إذا هي سلمت وصحت سلم بها سائر الجسد، فإذا سقمت سقم بها سائر الجسد وفسد، وهي القلب**»[١].

وخير واعظ للمرء نفسه، فيكملها بالعلم، ويجلو الحقائق بدقيق النظر، ويصغي مذعنًا لنصح من يرشده، وقبول قول من يسدده.

ولا خير فيمن لم يكن له من نفسه واعظ، فإنه مفتاح قلبه.

«**وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ**»[٢].

«**وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ**»[٣].

وعن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: «**المؤمنُ يحتاجُ إلى خصالٍ: توفيق من الله، وواعظ مِنْ نَفْسِه، وقبول ممن يَنْصَحُه**»[٤].

وأحق واعظ للإنسان ربه وخالقه، وقد عُني بمربوبه وعبده فأفاض عز وجل مواعظه في شريف كتابه، وجليل خطابه فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ﴾[٥].

(١) الخصال، للشيخ الصدوق / ٣١.
(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٩٠/ ١٢٣.
(٣) نهج البلاغة، حكمة ٨٩/ ٤٨٣.
(٤) بحار الأنوار ٧٢/ ٦٥.
(٥) سورة يونس / ٥٧.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾(١).

وبهدي الله ﷻ قام أنبياؤه وأولياؤه فبثوا مواعظهم في خلقه إحياء لقلوبهم، وتبصيرهم لما فيه حقيقة حياتهم.

وقال عليه السلام:

«النَّاسُ إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ المَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ»(٢).

والنهج الشريف طافح بالمواعظ، فيَّاض بالتذكير، مبثوث بوفرة.

فمن هديه عليه السلام: **«انْتَفِعُوا بِبَيَانِ الله وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ الله وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ الله»**.

«وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ فَإِنَّهُ حَبْلُ الله المَتِينُ وَسَبَبُهُ الأَمِينُ وَفِيهِ رَبِيعُ القَلْبِ وَيَنَابِيعُ العِلْمِ وَمَا لِلْقَلْبِ جِلاءٌ غَيْرُهُ»(٣).

و**«لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مالِكَ ما وَعَظَكَ»**(٤).

وليرجع راغب المزيد فيما صدع به من جليل المواعظ إلى (الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة)/ ١٣٣٧، مادة (وعظ).

٢ ـ «وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ»:

والإماتة تقابل الإحياء، وليس القصد أن يميت قلبه فيبقى خواء لا روح

---

(١) سورة النساء / ٥٨.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٢/ ٢٦٣.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٧٦/ ٢٥١ ـ ٢٥٤.

(٤) نهج البلاغة، حكمة ١٩٦/ ٥٠٤.

فيه، فذلك خلاف الغاية من إعماره وإحيائه.

بل المراد إماتته عن النزوع إلى الشهوات، والميل للتعلق بالرغبات ولنعم ما قاله شارح نهج البلاغة:

«إن القلب يفرح بالموعظة وينبسط بها، ويموت أي ينكسر بالزهادة وترك الشهوات، وعبّر عن الفرح بالحياة وعن الانكسار بالموت، وقلب المؤمن دائمًا يكون مترددًا بين المقامين، فحياة قلبه في موته، وموته في حياته، فافهمه إن كنت أهلًا لذلك»[١].

الزهد:

يشرحه الإمام عليه السلام:

«الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بِالآتِي فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ»[٢].

وحكى خلال الزاهدين حقًّا:

«إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا»[٣].

---

(١) مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة ١٥/ ٨٠ ـ ٨١.

(٢) نهج البلاغة، حكمة ٤٣٩/ ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٣/ ١٦٨.

وتأمل - رعاك الله - في دقيق تعبيره: تبكي قلوبهم، ويشتد حزنهم ويكثر مقتهم تجده شارحًا لإماتة القلب بالزهادة.

ووصف (المتقين):

«قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لا يَزُولُ وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لا يَبْقَى»[١].

وقد أوردت شطرًا من حديث الزهد في الأخلاق من نهج البلاغة / ١٦٢ ـ ١٧١.

٣ ـ «وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ»:

وحيث كان القلب جوهر القوة الفاعلة فلا بد له من الثبات والاستقرار ضمانًا لأداء الوظيفة والاستمرار.

والقلب تنتابه العلل، ويعتريه الشك، ويوهنه الضعف، ولا قوة تبقيه وتقويه إلا (اليقين).

والأصل الأصيل في اليقين، والمصدر الذي تعود إليه شعبه وموارده هو (اليقين بالله حقًا)، وتمكنه في القلب صدقًا.

فيعبد إلهه وحده، ويفوض كل أمره إليه، ويسلم له تسليمًا، راضيًا بقضائه وقدره، متوكّلًا عليه، لا يرجو سواه، ولا يخشى إلّا إيّاه، «ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب، ووقف على الموعود، إيمانًا نفى إخلاصُه الشركَ، ويقينُه الشكَّ»[٢].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٣/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٤/ ١٦٩.

ولقد قرر الإمام عليه السلام هذه الحقيقة وجلالها، وعمق مواطنها، وتمثلها في المتحلين بجمالها في الكثير من خطبه وحكمه[(١)].

ومن الأجدر ـ ونحن على مائدته ـ أن نغترف من زاده، ونحيا على عطائه.

قال في صفات (المتقين):

«وَاسْتَمْسَكَ مِنَ العُرَى بِأَوْثَقِهَا وَمِنَ الحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا فَهُوَمِنَ اليَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ للهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الأُمُورِ مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ»[(٢)].

«وأَيْقَنُوا أَنَّهُمْ جِيرانُ اللهِ غدًا في آخِرَتِهِمْ»[(٣)].

وذلك شأن الأولياء.

«وأَمَّا أَوْلِياءُ اللهِ فضِياؤُهُمْ فِيها اليَقِينُ»[(٤)].

وبه تطرد هموم الدنيا.

«وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالاتِهَا»[(٥)].

وهو باعث العمل وداعي الحق.

---

(١) وللوقوف على ذلك تراجع مادة (يقين)، في: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة / ١٣٦٥ ـ ١٣٦٧، وتجدر مراجعة حديث (اليقين) في الأصول من الكافي ١/ ٥١ ـ ٥٤، ٥٧ ـ ٥٩، ٦٢، ومرآة الكمال ٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٢.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨٧/ ١١٨.

(٣) نهج البلاغة، كتاب رقم ٢٧/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٨/ ٨١.

(٥) نهج البلاغة، كتاب رقم ٦٨ ـ ٤٥٨.

«لا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا وَيَقِينَكُمْ شَكًّا، إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا وَإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا»[١].

«مَنْ أَيْقَنَ بالخَلَفِ جَادَ بالعَطِيَّةِ»[٢].

«فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا المَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ»[٣].

«تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستقين»[٤].

لا قيمة للعمل بدون يقين.

«وسمع عليه السلام رجلًا من الحرورية يهجد ويقرأ فقال: نوم على يقين خير من صلاة في شك»[٥].

واعتده عليه السلام من دعائم الإيمان، وأنه على أربع شعب:

«على تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة، وسُنَّة الأولين، فمن تبصر في الفطنة تبينت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين»[٦].

الإمام على يقين وبينة من أمره:

---

(١) نهج البلاغة، حكمة ٢٧٤/ ٥٢٤.

(٢) نهج البلاغة، حكمة ١٣٨/ ٤٩٤.

(٣) نهج البلاغة، كتاب رقم ٤٥/ ٤١٦ ـ ٤١٧.

(٤) نهج البلاغة، حكمة ١٥٠/ ٤٩٨.

(٥) نهج البلاغة، حكمة ٩٧/ ٤٨٥.

(٦) نهج البلاغة، حكمة ٣١/ ٤٧٣.

جاء في كتابهعليه السلام إلى معاوية: «وقلت: إني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع، ولعمر الله لئن أردت أن تذم فمدحت، وأن تفضح فافتضُحتَّ، وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلومًا ما لم يكن شاكًا في دينه، ولا مرتابًا بيقينه»[١].

«وإِنِّي لَعَلى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وغيرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي»[٢].

وبعد فهذا هدي إمام اليقين، وقدوة المتقين، عرضت لشذرات منه وافرة العطاء، مترعة الفكر، جديرة بالبحث العميق، والتأمل الدقيق، نسأله ـ سبحانه ـ أن يهب لنا خالص اليقين في اعتقادنا وعبادتنا وكافة أعمالنا وشؤوننا إنه ولي كريم.

«اللهم صل على محمد وآله، وبلغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيتي إلى أحسن النيات، وبعملي إلى أحسن الأعمال»[٣].

٤ ـ (وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ):

والحكمة ضبط وإحكام، وعقد وإبرام، والله الحكيم ـ جلَّت حكمته ـ أبدع الموجودات وأقامها على منتهى الاتفاق، وغاية الحكمة، وهو - سبحانه - واهبها ومؤتمنها ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾[٤].

---

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم ٢٧/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٢/ ٦٤.

(٣) مفتتح دعاء مكارم الأخلاق من مفاتيح الجنان.

(٤) سورة البقرة / ٢٦٩.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾[١].

وباعث رسله لتعليم الخلق إياها ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

وهي نعمة كبرى، ومنحة عظمى ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٣].

ولمولانا الإمام حكيم الإسلام عليه السلام حكم عالية نثرها دررًا في خطبه وكتبه، نلتقط منها:

أ) «وإنما ذلك بمنزلة الحكمة التي هي حياة للقلب الميت، وبصر للعين العمياء، وسمع للأذن الصماء، وريّ للظمآن وفيها الغنى كله والسلامة»[٤].

ب) ما مرَّ قريبًا في شرح قوله: «وقوِّه باليقين»: «**فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الحِكْمَةُ وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الحِكْمَةُ عَرَفَ العِبْرَةَ وَمَنْ عَرَفَ العِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الأَوَّلِينَ**»[٥].

ج) «خذ الحكمة أنَّى كانت، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن»[٦].

---

(١) سورة لقمان / ١٢.

(٢) سورة آل عمران / ١٦٤.

(٣) سورة البقرة / ٢٦٩.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٣٣/ ١٩٢.

(٥) نهج البلاغة، حكمة ٣١/ ٤٧٣.

(٦) نهج البلاغة، حكمة ٧٩/ ٤٨١.

«الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق»[(١)].

د) «قد لبس للحكمة جنتها، وأخذها بجميع أدبها، من الإقبال عليها، والمعرفة بها، والتفرغ لها، فهي عند نفسه ضالته التي يطلبها، وحاجته التي يسأل عنها، فهو مغترب إذا اغترب الإسلام، وضرب بعسيب ذنبه، وألصق الأرض بجرانه، بقية من بقايا حجته، خليفة من خلائف أنبيائه»[(٢)].

هـ) «إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة»[(٣)].

و) وقالعليه السلام في عهده إلى الأشتر رحمه الله واليه:

«وأكثر مدارسة العلماء، ومناقشة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك»[(٤)].

٥ ـ (وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ المَوْتِ):

والموت حقيقة مُرَّة، ورهبة منغصة، وقاهر باغت، ونهاية حاضرة.

وهو بما يحمل من طامات، ويجرِّع من غصص، ويستتبع من حسرات، ويجر من ويلاته والمنسي والمغفول عنه، وكأنه على غيرنا كُتِب، ولسوانا يعرض وما ذلك إلا لموت القلب الذي أبعد عن الحي ذكر الموت فعاد لا يحتمل حتى سماع اسمه أو ظهوره بوهمه.

---

(١) نهج البلاغة، حكمة ٨٠/ ٤٨١.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٢/ ٢٦٣.

(٣) نهج البلاغة، كتاب رقم ١٩٧/ ٥٠٤.

(٤) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣/ ٤٣١.

وقد عني الإمام عليه السلام وهو ـ المربي الإلهي ـ بإفاضة المقال فيه واللهج بذكره بنحو لافتٍ في كلمه جلي في مشاعره وأحاسيسه.

نقرأ له عليه السلام:

أ) دعوة الموت:

«وأَسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعى بكم...قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة»(١).

ب) الطالب المدرك:

«إن الموت طالب حثيث لا يفوته مقيم، ولا يعجزه الهارب»(٢).

ج) إغراضه:

«فاحذروا عباد الله الموت وقربه، وأعدوا له عدته، فإنه يأتي بأمر عظيم، وخطب جليل، بخير لا يكون معه شر أبدًا، أو شر لا يكون معه خير أبدا... وأنتم طرداء الموت، إن أقمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلكم.

الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من خلفكم»(٣).

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٣/ ١٦٨.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٢٣/ ١٨٠.

(٣) نهج البلاغة، كتاب رقم ٢٧/ ٣٨٤.

د) غمراته:

«فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا وَتَرْكِ الأَحِبَّةِ إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا»[(١)].

هـ) نسيانه:

«وعجبت لمن نسي الموت، وهو يرى الموتى»[(٢)].

د) ذكره:

«ومن أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير»[(٣)].

«وأوصيكم بذكر الموت، وإقلال الغفلة عنه، وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم، وطمعكم فيمن ليس يمهلكم! فكفى واعظًا بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين، وأنزلوا فيها غير نازلين، فكأنهم لم يكونوا للدنيا عُمَّارًا، وكأن الآخرة لم تزل لهم دارا، أَوْحَشُوا ما كانوا يُوطِنون، وأَوْطَنُوا ما كانوا يُوحِشُون، واشتغلوا بها فارقوا، وأضاعوا ما إليه انتقلوا، لا عن قبيح يستطيعون انتقالًا، ولا في حسن يستطيعون ازديادًا، أنسوا بالدنيا فغرتهم،

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٢١/ ٣٤١.

(٢) نهج البلاغة، حكمة ١٢٦/ ٤٩١.

(٣) نهج البلاغة، حكمة ٣٤٩/ ٥٣٦.

ووثقوا بها فصرعتهم»[١].

ز) صدق انتظاره:

«ومن ارتقب الموت، سارع إلى الخيرات»[٢].

أجل...إنه للخطب الجلل، الذي تضطرب القلوب، وتقشعر الأبدان، ويذهل الفكر لسماع وصفه، فكيف بوقوع حتفه، وهول قصفه.

وذلكم البيان الحق، والتعريف الصدق هو التذليل الفاعل للهيمنة على القلب وترويضه على التقلب، وتوجيهه للإدبار عن الدنيا، والإقبال على الله ونيل مرضاته.

٦ ـ (وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ):

فيحمل القلب صاحبه على الإقرار والإذعان بالفناء ليثبت قارًّا، ولعل في التعبير بذلك نحوًا من التجريد كما يخاطب المرء نفسه ويناجيها، «والفناء» حقيقة قائمة يحياها الحي بل يعيش تدرجه في قواه وتبدل أحواله من قوة إلى ضعف ومن شباب إلى شيبة، فهو يرى في نفسه تدرجاً وانتقاصاً.

ولكنها الحقيقة الغائبة والمغفول عنها وكأنها غير قائمة، ولذلك ذكرت وكررت في قرآن الله العظيم إيقاظًا وتنبيهًا:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٣].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٨/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) نهج البلاغة، حكمة ٣١/ ٤٧٣.

(٣) سورة الرحمن / ٢٦ ـ ٢٧.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١).

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾(٢).

وعلى هدي الله جرى وليُّ الله فطالما بثَّ هذه الحقيقة، وجهر مذكرًا بهذه الخاتمة والنهاية.

أ) «فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنه لبين أهله ينظر ببصره، ويسمع بأذنه، على صحة من عقله، وبقاء من لبِّه، يفكر فيمَ أفنى عمره، وفيمَ أذهب دهره، ويتذكر أموالًا جمعها.....قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها.....فيكون المهنأ لغيره والعبء على ظهره»(٣).

ب) «وجمعها (الدنيا) ينفد، وملكها يسلب، وعامرها يخرب، فما خير دار تُنقض نقض البناء، وعمر يفنى فيها فناء الزاد، ومدة تنقطع انقطاع السير»(٤).

ج) «وقيل له عليه السلام كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: كيف يكون من يفنى ببقائه، ويسقم بصحته، ويؤتى من مأمنه!»(٥).

د) «والدنيا دار مُنِيَ لها الفناء، ولأهلها منها الجلاء»(٦).

هـ) «ألا وإن الدنيا قد تصرمت، وآذنت بانقضاء، وتنكر معروفها، وأدبرت

---

(١) سورة القصص / ٨٨.

(٢) سورة الجمعة / ٨.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٠٩/ ١٠٦.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٣/ ١٦٨.

(٥) نهج البلاغة، حكمة ١١٥/ ٤٨٩.

(٦) نهج البلاغة، خطبة رقم ٤٥/ ٨٥.

حذَّاء[١] تحفز بالفناء سكَّانها، وتحدو بالموت جيرانها»[٢].

و) «وكل مدة فيها إلى انتهاء، وكل حي فيها إلى فناء»[٣].

ز) «فتزودوا في أيام الفناء لأيام البقاء، قد دُللتم على الزاد، وأمرتم بالظعن، وحثثتم على المسير، فإنما أنتم كركب وقوف، لا يدرون متى يؤمرون بالسير»[٤].

ح) «وعجبت لعامر دار الفناء، وتارك دار البقاء»[٥].

٧ ـ (وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ):

فحصيف العقل من ينفذ بعمق البصيرة ودقيق الفكر إلى خطوب الدنيا وما يعصف بها بين فينة وأخرى من كوارث وفظائع، وطامات وفجائع، فلا استقرار لدولة ولا بقاء لقوة وسلطان، فكم من حضارة سادت فبادت، وكم من قوة ضعفت فتبددت، وتمزقت أيدي سبأ، وكم سلطان جائر وملك متجبر عاد سُوقةً ورعيةً صعلوكًا.

وما أشد فتكات الدهر إذا صال؟!!، وما أشنع وأبشع ما تمخض عنه الليالي والأيام من هوان وسوءات وعورات تطيح بمن يحسبون أنهم المهيمنون المالكون، فإذا هم المهينون الهالكون؟!!

---

(١) حذاء: سريعة المضي، وفي رواية جذاء: مقطوعة الدر والخير.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٥٢/ ٨٩.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ٩٩/ ١٤٥.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٥٧/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٥) نهج البلاغة، حكمة ١٢٦/ ٤٩١.

وتلكم والله صروف الزمان وغِيَره، وتحولاته وعِبَره.

ومن حديث (خرقاء بنت النعمان):

«إن الدنيا دار زوال ولا تدوم على حال، كنا ملوك هذا المصر، يجبى لنا خراجه، ويطيعنا أهله، مدى المدة وزمان الدولة، فلما أدبر الأمر وصاح بنا صائح الدهر، فصدع عصانا، وشتت شملنا، وكذلك الدهر ليس يأتي قومًا بمسرّة إلا ويعقبهم حسرة:

فبينا نسوسُ الناسَ والأمـرُ أمرُنـا ... إذا نحن فيهم سُوقةٌ ليس نُعـرفُ

فـأفٍّ لـدنيا لا يـدومُ نعيمُهـا ... تقلّـبُ تـاراتٍ بنـا وتـصرّفُ[1]

وقال شاعر حكيم[2]:

لا تهـينَ الفقـيرَ علَّـكَ أنْ ... تركـعَ يومًـا والـدهرُ قـد رَفَعَـه

وإن نظرة عابرة لوقائع الدهور وتبدل الأمور وتقلبات أوضاع الأمم وملوكها توقف البصير على الحقيقة الراهنة التي عبر عنها الإمام عليه السلام: بالفجائع، والصولة، وفحش التقلب.

فإذا استحكمت البصيرة في القلب اعتبر وحذر فسلم وغنم.

٨ ـ (وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ المَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا، وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ

(١) بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ٨/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨ عن الأغاني ملخصًا.

(٢) الأضبط بن قريع السعدي، شاعر جاهلي.

حَلُّوا وَنَزَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ):

وإنها (مادة التبصّر) وسجل الحياة الحافل بكل ما جرى وتبدل وتحول من النشوء والارتقاء والانحدار والانحطاط.

يقرأ كل ذلك في تأريخ الأمم والولاة والرعية فيما سطرته عنهم الأقلام، وينظر فيما خلّفوا من ديار وآثار بادت كما بادوا واضمحلت بعدما انقرضوا، وورثها قوم آخرون جرى ويجري عليهم وفيهم ما لم يسلم منه الأولون.

وخير ما نقرأه قول الحق في القصص الصدق:

أ) ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ❁ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ❁ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ❁ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ❁ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ❁ تِلۡكَ

ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾(١).

ب) ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾(٢).

ج) ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾(٣).

وقد سبق الآية ذكر ما كانوا عليه من النعيم.

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ * فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ * ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾(٤).

د) فرعون وقومه: ﴿ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ * فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ * وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا

(١) سورة القصص / ٧٦، ٧٨ ـ ٨٣.
(٢) سورة ق / ٣٦ ـ ٣٧.
(٣) سورة سبأ / ١٩.
(٤) سورة سبأ / ١٥ ـ ١٧.

صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾(١).

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۞ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾(٢).

هـ) ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(٣).

و) ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٤).

ز) أمم وأقوام:

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۞ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ۞ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۞ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۞ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۞ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۞ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ

---

(١) سورة الأعراف / ١٣٥ ـ ١٣٧.

(٢) سورة يونس / ٨٨ ـ ٩٢.

(٣) سورة الأحقاف / ٢٥.

(٤) سورة آل عمران / ٢٦.

ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾(١).

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ * وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾(٢).

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ *

(١) سورة النجم / ٥٠ ـ ٥٦.

(٢) سورة الحاقة / ٤ ـ ١٠.

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾(١).

«لمّا توجّه عليعليه السلام إلى صفين انتهى إلى ساباط ثم إلى مدينة بهر سير، وإذا رجل من أصحابه يقال له: حريز بن سهم من بني ربيعة ينظر إلى آثار كسرى وهو يتمثّل بقول ابن يعفر التميمي:

جرتِ الرياحُ على مكانِ ديارِهِمْ   فكأنما كانُوا على مِيعادِ

فقال عليٌّعليه السلام: أفلا قلت: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾(٢).

إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، إن هؤلاء لم يشكروا النعمة، فسلبوا دنياهم بالمعصية، إياك وكفر النعم، لا تحلّ بكم النقم»(٣).

هذا وفي كلام أمير المؤمنينعليه السلام في نهج البلاغة الشيء الكثير من الصور المعبرة لتبدّل الدول والأحوال وفتكات الدهر والأهوال.

وتلك صبغة الحياة فالتأريخ الإسلامي يروي ما كان عليه الجبابرة وملوك الدنيا من بني أمية والعباس والتتر والمغول والعثمانيين ومستعمري الدول

---

(١) سورة الأعراف / ١٢٨ ـ ١٣٧.

(٢) سورة الدخان / ٢٥ ـ ٢٦.

(٣) بحار الأنوار ٦٨/ ٣٢٧.

وقاهري الأمم ملكوا واستبدوا وأهلكوا وهلكوا وبادوا.

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾(١).

أقوى عوامل الاستقامة إصلاح الذات:

أولًا: (فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ):

والمثوى: موطن الاستقرار ونهاية المطاف، والمآل الذي تنقطع إليه مسيرة ابن آدم، طال عمره في دنياه أو قصر، فيتبوأ مقعده، ويعيش حياته الحقيقية في نعيم أو جحيم.

وعامل إصلاح المثوى هو صلاح الدنيا، فإنها دار عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل، «فالدنيا مزرعة الآخرة»، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن

(١) سورة الحشر / ٢.
(٢) سورة العنكبوت / ٦٤ .
(٣) سورة الحشر / ١٨.

يَرَىٰ ۞ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(١).

والعاقل من أطاع مولاه، وخالف هواه، وسخَّر كل قواه ليتبوأ (مقعد صدق عند مليك مقتدر) ولا ينال المقام الكريم إلا بالعمل الصالح، «فالجنة قاع صفصف»، «ولا يخادع الله عن جنته»، والدنيا ضرَّة الآخرة وعدوتها، فما يصلح إحداهما يفسد الأخرى، «ولكل منهما أبناء»، والدنيا عرض مفارق، وآنات متصرمة، وغايات منقطعة، و«ماعند الله خير وأبقى»، وليس بعاقل من باع نعيمًا باقيًا بمتاع زائل تذهب لذته وتبقى تبعته، فتلك الصفقة الخاسرة والتجارة البائرة، ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾(٢).

ثانيًا: (وَدَعِ القَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ):

وتلكم سمة العاقل وصفة المتدين وصبغة الحكمة والأدب، فعلى لسانه وكاء فلا ينطق بما يجهل ولا يهرف بما لا يعرف، بل يلتزم بحدود ما يعلم ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، ولا يدعُوَنَّه الفضول فيقحمه في ورطة ما لم يكلف به، وإن كان به عارفًا، فهو غير موجه إليه، ولا يعنيه، ألا وإن ذلك ركيزة في الانضباط قويمة.

---

(١) سورة النازعات / ٣٤ ـ ٤١.

(٢) سورة البقرة / ١٦.

ثالثًا: (**وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ**):

فطالما غمّت على المرء الأمور، واشتبهت عليه الأحوال، وتشعبت بفكره المذاهب، فيضل وجهته، ويحار في أمره، فلا يدري أيها أهدى سبيلًا، وأوصلها إلى النجاة مسلكًا، فإن هو تمهل وتريث وتأمل وفكر حتى يعرف المولج والمخرج سلم وغنم، وإن أقدم واقتحم وسار متخبطًا قلقًا فقد زجَّ نفسه في لجة المخاطر تتقاذفه الأمواج عرضة للعطب.

وسيَّان في ذلك لوابس الفكر، ومتشعبات المسالك، فكلاهما مواطن الحيرة والضلال والتيه، ولا منجى إلّا بالاعتصام والإقدام بموثوق السلامة إن علم، أو الإحجام إن جهل.

رابعًا: (**وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ المُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجَهْدِكَ**):

وذلكم شعار المؤمن وخلق الإيمان، ومظهر الاستقامة، متمثلًا في تحليه بالمعروف، وتقمصه بردائه، وفي الدعوة إليه، ولا تنسجم الدعوة إليه ممن لم يتصف به، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[١].

وباجتماع العنصرين: التحلي بفعل المعروف، والأمر به يتحقق صدق

---

(١) سورة الصف / ٢ ـ ٣.

الكون من أهله، فالإرشاد إليه جزء من مقدماته، والتجرد عنه نقص، وكلا الأمرين وظيفة.

بل حتى التارك للفعل عليه أن يأمر به فيكون قد قام بإحدى الوظيفتين وإن أخلّ بالأخرى.

وقد جمعتهما الآية المباركة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

ووصفت الآية الملتزم بهما بالخير ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٢).

وهكذا يكون موقف المؤمن تجاه المنكر فهو لا يفعله بل ينكره بقلبه أو يدفعه بيده، وينهى عنه بلسانه، وينفر عمَّن اقترفه، وينأى بنفسه عن قربه فيتجلّى بذلك بُعْدُه عنه، ومباينتُه له، فذلك من إيجابية السلب، ولا سيما ممن قربت لحمته أو اشتدت علقته.

وقد حفلت الآيات المباركة، والأحاديث الشريفة، وكتب الفقه والأخلاق بموقع فعل المعروف والأمر به واقتراف المنكر والنهي عنه وحدود ذلك وضوابطه.

وأعظم بمقولة مولانا الإمام عليه السلام في نهج البلاغة بيانًا:

---

(١) سورة آل عمران / ١١٤.

(٢) سورة آل عمران / ١١٠.

«وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لَخُلُقان من خُلُق الله ـ سبحانه ـ وإنهما لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق»[١].

خامساً: (وَجَاهِدْ فِي اللّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَخُضِ الغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ):

فالله عزّ وجلّ هو المولى، وحقٌّ على العبد أن يجاهد في سبيل مولاه، بكل قواه، وبكل ما آتاه، وفي كافة الشؤون، بدءًا بالنفس تهذيبًا ومالًا وجاهًا وعلمًا ودعوة ودفاعًا.

وحقّ الجهاد الإخلاص له وحده ـ سبحانه ـ فلا نظر إلى سواه، ولا تعلق بغيره من هوى، وحب للذات والدنيا.

وإذا ماعلم الحق واهتدى إلى سبيله جدّ فيه لا يلوي على شيء غير مكترث بتخذيل خاذل، أو تثبيط مثبط، أو اعتراض معترض فالله هو الحق، وسبيله هو الصدق، وما سوى ذلك ضلال:

فليت الـذي بيني وبينـك عـامرٌ　　　وبينـي وبـين العـالمين خـرابُ

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٢].

وطريق الحق طويل وشائك، تكتنفه الشدائد، فربما وهنت القوى والعزائم، وربما ضعفت النفس عن اقتحام الصعاب رغبة في العافية وحب

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٥٦/ ٢١٩.

(٢) سورة العنكبوت / ٦٩.

السلامة، وربما تواردت الأوهام فانبعثت الأعذار فرارًا من عواقب الإقدام، وكل هاتيك علل ونتاج خلل.

وما دام المؤمن على بيِّنة من أمره، وهدى من ربه، ومقصدُه الله ﷻ وقبلته الحق وحده لا سواه فليبرهن على ذلك بخوض غمرات اللجج ولو بسفك المهج ومن ينصر الله وينتصر له فالله ناصره، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1].

سادساً: (وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ):

والدين شرعة الله لعباده في كافة شؤونهم، «لأن الله ﷻ قد جعل لكل شيء حدًّا، وجعل لمن تعدَّى ذلك الحدِّ حدًّا»[2]، «فإن لله في كل واقعة حكمًا»[3].

ومفتاحُ العلم بحقائق الدين والوقوف على أحكامه الفقهُ.

وبالفقه تكون البصيرة في كافة شؤون الحياة «تفقهوا وإلا فأنتم أعراب جُهّال»[4]، «الفقه ثم المتجر»[5]، «من اتّجر بغير علمٍ ارتطم في الربا ثم

---

(١) سورة محمد ﷺ/ ٧.

(٢) حديث عن رسول الله ﷺ. كشف اللثام، للفاضل الهندي ١٠/ ٤٨٧.

وعن الإمام الباقر عليه السلام. «إن الله تبارك وتعالى لم يدع شيئًا تحتاج إليه الأمة إلا أنزله في كتابه، وبيَّنه لرسوله ﷺ، وجعل لكل شيء حدًّا، وجعل عليه دليلًا يدلُّ عليه، وجعل على من تعدّى ذلك الحدِّ حدًّا». شرح أصول الكافي ٢/ ٢٧٦.

(٣) قال المحقق البحراني: (استفاضة الأخبار بأن لله في كل واقعة حكمًا). الحدائق الناضرة ١/ ٤٥.

ومثله العلامة الحلي في مبادئ الأصول / ٢٤٤ وغيرهما.

(٤) فقه الرضا عليه السلام/ ٣٣٨.

(٥) الكافي ٥/ ١٥٠.

ارتطم»[١].

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٢].

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٣].

ولعمر الحق إنها الركيزة القويمة، والدعوة الكريمة للإحاطة بأحكام الله ـ تبارك وتعالى ـ والوقوف على شرعته في كل نازلة، والاهتداء بأمره في كل مسألة، وإلا فهو الجهل والتخبط والحيرة والضلال.

سابعاً: (وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى المَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الحَقِّ):

فالنفس ميَّالة للدعة، راغبة فيما تهوى، محبة للعافية، وإن كان في ذلك ضررها وفسادها، منصرفة عن بذل الجهد، وتحمل المؤنة والانقياد لما تكره، وإن كان في ذلك نفعها وصلاحها.

وللعمل على استقامتها، وإقامتها على قويم الجادة لا مناص من ترويضها وتربيتها لحملها على قبول ما تكره، وإجابتها لما يحييها فقد «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات».

---

(١) الكافي ٥/ ١٥٤.

(٢) سورة التوبة / ١٢٢.

(٣) سورة التوبة / ٩٧.

فإذا تعودت التصبر، وتدرجت في التحلي بشريف خُلقه في مواطنه آل بها إلى نيل ملكة (الصبر) فارتاحت وانبسطت لأداء الواجبات، وترك المحرمات، وهانت عليها المصائب وما تجري به المقادير، وما تجره من غصص، وسهل عليها العسير راضية مسلِّمة بفضل فاعلية التربية الهادفة: «ونعم الخلق التصبر في الحق».

ثامنًا: (وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ وَمَانِعٍ عَزِيزٍ):

وإلى من تفزع النفس إن دهمها الخطب؟ وبمن تستعين إن نزلت بها النازلة؟ وإلى من تقصد إن استولى على قلبها الخوف: وبمن تستغني إن أحاط بها الفقر؟

هذا والدنيا مسرح المكاره، ومواطن الكوارث، ومجمع الشدائد، وساحة النوازل.

فإلى من الملجأ وإلى من المعتصم؟ أَ إلى مخلوق مثله؟ فهو ضعيف مثله لا يملك لنفسه نفعًا ولا يدفع عنها ضرًا فضلًا عن أن يسعف سواه إذ لا حول له ولا قوة ولا طول، فلا حول ولا قوة ولا منعة إلَّا بالله العلي العظيم.

«اللهم اجعلني أصول بك عند الضرورة، وأسألك عند الحاجة، وأتضرع إليك عند المسكنة، ولا تفتني بالاستعانة بغيرك إذا اضطررت، ولا بالخضوع لسؤال غيرك إذا افتقرت، ولا بالتضرع إلى من دونك إذا رهبت، فاستحق

بذلك خذلانك، ومنعك وإعراضك، يا أرحم الراحمين»[١].

أجل.. إن الذي يُصْمَدُ إليه في كل شيء إنما هو (الإله) الغني المطلق، والقادر المطلق، فهو الملجأ الوحيد كهف حريز ومانع عزيز، وبه المعاذ، وبيده الأمر كله عز وجل.

تاسعاً: (وَأَخْلِصْ فِي المَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ العَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ):

وذلك سر تحقق الطلبة، ونيل الرغبة، فالعبد مملق ذو فاقة محتاج، والرب مالك غني وكريم جواد، فلا مناص من أن ترفع إليه وعنده الحاجة، فإن أشرك مع ربه أحدًا وكَّلَه إليه فباء بالخسران.

والرب ـ تبارك وتعالى ـ هو المدبر والمربي، والمهيمن على الأمر كله، وبجوده وكرمه يعطي، وبحكمته يمنع، لا من قُلٍّ أو بخل، فهو الجواد على كل حال.

ومن ثَمَّ فإن الإخلاص برهان الإيمان، وعنوان الإذعان، سواء أُجيبت المسألة أم ردت، (فإن بيده العطاء والحرمان) فإن هذه الجملة الشريفة تتسع لهذا المعنى.

عاشراً: (وَأَكْثِرِ الِاسْتِخَارَةَ):

والاستخارة: طلب الخير من الله.

وقد قيل: إن ذلك معناها اللغوي[١]، ولعله المتعارف قديمًا بين العلماء

(١) من دعاء (مكارم الأخلاق) الصحيفة السجادية.

ويناسبه ما ورد كثيرًا في الروايات، نحو:

«إذا أراد أحدكم شيئًا يصلي ركعتين ثم يحمد الله ويثني عليه ويصلي على نبيه وآله ثم يقول: اللهم إن كان هذا الأمر خيرًا لي في ديني ودنياي فيسّره لي وأقدره، وإن كان غير ذلك فاصرفه عني».

وهي مرغبة في كل الأمور كالزواج والبيع والشراء، والسفر طلبًا لخيرة المولى لعبده وتوفيقه لما فيه صلاحه.

«ويمكن أن يكون المراد بها معناها المصطلح بين الناس من الاستخارة بكتاب الله تعالى أو بالسبحة أو ذات الرقاع وغيرها مما ذكروه في كتبهم»[٢].

أقول:

أ) قال السيد الفقيه الحكيم (مد ظله):

«ما تعارف عند كثير من المؤمنين من عدم الاستجابة لتزويج الخاطب الذي يرتضونه إلا بعد الاستخارة بالوجه المتعارف في زماننا: ليس له أساس شرعي، ولا يناسب النصوص المشار إليها آنفًا.

نعم يحسن في الزواج وفي جميع الأمور الاستخارة بمعنى طلب الخيرة من الله تعالى، فإن كان ذلك الأمر خيرًا سهله ويسره، وإن لم يكن خيرًا صرفه عنه

---

(١) مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة ١٥/ ٨٩.

(٢) مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة ١٥/ ٨٩.

ومنعه منه، وقد تقدم في آخر كتاب الصلاة التعرض للاستخارة المذكورة»[١].

ب) لقد تفشى لدى فئات كثيرة من المؤمنين والمؤمنات في هذه الأزمان الولع بالاستخارة ـ بمعناها الثاني ـ من غير فقه ولا بصيرة ولا ضوابط، بل ربما تعدى ذلك إلى المحرم من فسخ النكاح، وقطيعة الرحم، وما إلى ذلك من ضروب شتى تنبعث من الجهالة والسفه وعدم فقه الدين والبصيرة في الأحكام، وانحدار في القيم والأخلاق، وهذا ما يربأ بالمؤمن الكيِّس من سلوكه، والغفلة عن سلبياته، وسيئاته.

ج) وتناول جملة من الأعلام الحديث عنها، وجمعوا رواياتها، وبيَّنوا كيفياتها، وممن جمع وأوعى الفقيه المتبحر: السيد عبدالله شبر رضي الله عنه في كتابه: «إرشاد المستبصر في الاستخارات».

د) وتميزت فئة من الأعلام بالتضلع فيها، والوقوف على أسرارها، ولهم في ذلك نوادر وطرائف ولطائف يقف عليها من جاس خلال الديار، مما لا مجال لإيراد شيء من ذلك هنا، أسأل الله الخير والخيرة في الأمور كلها.

تأكيد وتركيز:

(وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ):

وقد ختم الإمام عليه السلام هذا الفصل بالتأكيد على إيلاء هذه الوصايا الهادفة،

---

(١) الأحكام الفقهية / ٤٠٢.

والتوجيه الشريف، والخلق الكريم ماتستحق من تفهم وتدبر وإذعان، ومزيد عناية، بل يجب أن تتلقى بغاية الرعاية، ففيها بلوغ الغاية لما تحمله من هدي جامع، وأدب بارع، وقول نافع.

ثم ركَّز عليه السلام على مقياس الحق، ومنهج الصدق فأشار وأشاد بالضوابط الواقعية:

أ) ليس كل قول خيرًا، وإنما الخير ما أفاد لقائله وسامعه نفعًا، فربما كان منه الفضول والهراء وما لا يحسن ويجمل.

ب) وكذلك هو العلم، فمنه الضار، وما لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه، وإنما العلم الذي يبذل العمر في نيله، وتشد الرحال لتحصيله، وتسفك فيه المهج، وتخاض اللجج، وهو ما يقوم به الدين وتعمر الحياة ويتزود به للآخرة، ويسأل عنه العبد.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«**إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنَّة قائمة، وما خلاهنّ فهو فضل**»[1].

ج) وربما كان من ضروب المعارف، وصنوف العلم ما هو موسوم بالحرمة، ومعلمه الشيطان وليس الرحمن، فإذا كان مبغوضًا عند الله ولا يحق تعلمه فكيف ينتفع به؟!

---

(١) الكافي ١/ ٣٢.

والحق إنها النظرة الموضوعية، والإرشاد الأمثل لبذل العمر في تحصيل الكمالات، وتحقيق السعادات في النشأتين، وهو ما كان مصدره (الله) وغايته (الله).

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على النبي محمد وآله الطاهرين.

مقدمة لافتة، وتمهيد مركّز، ونظر دقيق، وفكر عميق:

لقد تناول الإمام عليه السلام في هذا المقطع ركائز قويمة، وقواعد محكمة، ونظرات ثاقبة، يقوم عليها بناء التربية الأصيل، وتكفل مراعاتها إنجاز الهدف المنشود، من تحقيق (الاستقامة)، وسلامة الانضباط في معترك الحياة الشائك، المتخم بضروب من عوامل الفتنة، وبواعث الانفلات، وتقلّب الزمان، ومكاره الحدثان، واختلال الموازين وشيوع الاضطراب.

وأودع في ذلك واقعية جلية، وحقيقة راهنة، وحقًّا صراحًا، لما يعرض ابن آدم في مراحل حياته حتى يستولي عليه الوهن، ويتغلغل فيه الضعف، وما يفيده من طيّ تلكم المراحل من عظات وعبر عاشها وسجّلها، ليكون الواقف على أبعادها ذا بصيرة فيما ينبغي أن يتولاّه من أمر، ويقوم به فيما يمارس من عمل.

واعتدّ المرحلة الأولى من مسيرة الإنسان محور الانطلاقة، حيث حسن القابلية لجميل التلقّي، فالعود لَدِن والغصن رطب، والتربة خصبة.

وهكذا صاغ الإمامعليه السلام أطروحته التربوية في هذه البوتقة المستوعبة لكافة ما يضمن إتقان صياغتها وجمال سبكها.

فلم يغفل استثمار التجربة، واستقراء التأريخ، وإحكام الصنعة على بصيرة وهدى، ألا وهو: نهج الله عز وجل، والوقوف على الحقائق المودعة في كتابه الذي ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾.

وأفرغ ذلك بمشاعر ملؤها العواطف الحانية، والحنوّ الحدب، والكرامة بوراثة حسن الأدب.

وبعد..

فلنحلّق بأفكارنا ومشاعرنا في هذه الروائع، لننعم بباهر جمالها، ونخشع لعمق جلالها، وألف تحية وثناء على مودعها وقائلها.

الواقعية وحديث الذات:

(أَيْ بُنَيَّ إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنًّا، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْنًا، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي):

فكثيرًا ما يغفل المرء عن تقادم عمره، وطيه مراحل حياته، وربما تغافل، وكأنه يرى في الإغفال والتغافل إنساء في الأجل، وإبقاء للأمل، ولكن (كرّ الغداة ومرّ العشي) يفعلان فعلهما، ويظهران أثرهما ومفعولهما.

فأين الشباب والشيخوخة؟! وأين العضلات المفتولة والوهن النافذ؟!

وأين مبتدأ العمر من منتهاه؟! وقد قيل: إن أطول عمر المرء يوم ولادته. فكلّما امتدّت سني حياته تقضّت أيامه وتصرّم حبلها، مع ما يجب عليه من ترقّب الموت ومباغتته.

وكما تأخذ السنين من الجسم فيعروه النقص والضعف، فكذلك هي آخذة من قواه الفكرية ومؤثرة في نشاطها.

فمن منطلق هذه الواقعية والنظرة الموضوعية بادر الإمام عليه السلام لإفراغ ما يجيش في خاطره، ويحمل همّه تجاه فلذة كبده، وثمرة وجوده، ليودعه أدبه، ويورثه خير وراثة كريمة.

استثمار فترة التلقّي الخصبة:

(أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ، وَإِنَّمَا قَلْبُ الحَدَثِ كَالْأَرْضِ الخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ):

وهذه كتلك نظرة واقعية، فما يخشى من فوات الفرصة بضعف القوى وانحلالها في تلك يخشى في هذه بعد فوتها وذهابها، فيستعصي ترويضها وتقويمها، فالمرحلة حساسة، وبواعث التأثير والتأثّر قائمة، فللهوى جَلَبَةٌ وغلَبة، وريح فتن الدنيا عاصفة قاصفة، ولا يقوى لَدِنُ العود على الثبات مستقيمًا، بل تهوي به وتتقاذفه ذات اليمين وذات الشمال، وربما أطاحت به فاقتلعته.

كما أنها في حدّ ذاتها مهيأة ومستعدة قابلة لتلقّي بذرة الخير واحتضان غرس الكمال، وترعرعهما في أحشائها، فينبتان وينشآن نباتًا حسنًا ويثمران زكيًا طيبًا.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾(١).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾(٢).

تنبيه:

ولقد سبق القول بأن هذه الوصية الشريفة، والكتاب المستطاب لم يكن المعني به شخص الإمام المجتبى عليه السلام ، وإن خوطب به ووجّه إليه، كيف وعمر السبط الزكي آنذاك يربو على الثلاثين، فلا ينسجم مع «وإنما قلب الحدث»، «فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك»، وإنما هي ركائز التربية، وأسس التعليم، وقواعد الأدب لينهج على هديها المربّون.

دور التجربة:

(لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ،

---

(١) سورة الحج / ٥.

(٢) سورة إبراهيم / ٢٤ ـ ٢٥.

فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَئُونَةَ الطَّلَبِ وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ):

والتنويه بفاعلية التجربة ومحمود أثرها لما تحمل من استخلاص العبر من دروس الحياة وما حفلت به من نجاح وإخفاق، فتفيد ثاقب النظر التأمل الحصيف فيما تمخّضت عنه ممارسة السابقين، فيأخذ بالصفو ويدع الزبد ليذهب جفاء.

وقد استراح بذلك من شديد عناء وطول مشقّة مما ابتلي به المجرّبون السابقون، بل ربما أفادته تجاربهم مواطن خلل، ومواقع الزلل، وموارد القصور والتقصير، فيظهر له ما خفي وأظلم عليهم وغمّ.

وللإمام عليه السلام وافر المقال في (التجربة ودورها) بثّه في (نهج البلاغة).

أ) «فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرّب تورث الحسرة وتعقب الندامة»[1].

ب) «ومن لم ينفعه الله بالبلاء والتجارب لم ينتفع بشيء من العِظة، وأتاه التقصير من أمامه»[2].

ج) «واعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار، فارحموا أنفسكم، فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا، أفرأيتم جزع أحدكم من الشوكة

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٥/ ٧٩.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٧٦/ ٢٥٤.

تصيبه...»[١].

هـ) «وتوخَّ منهم ـ العمال ـ أهل التجربة والحياء»[٢].

و) «فإن الشقي من حُرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة»[٣].

ز) «ومن التوفيق حفظ التجربة»[٤].

مصادر التجربة والإفادة منها:

(أَيْ بُنَيَّ إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ العُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ):

فقد امتدَّ نظره، وجال فكره، فسبر حياة الماضين والمعاصرين من الأمم والأقوام والأفراد، أنبياء وملوكًا وجماعات ووحدانًا، فوقف على أحوالهم وما لفّها وعراها من رقيٍّ وانحطاط، وتبدّل أوضاع، وأحاط بسرّ ذلك.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٣/ ٢٦٧.

(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣/ ٤٣٥.

(٣) نهج البلاغة، كتاب رقم ٧٨/ ٤٦٦.

(٤) نهج البلاغة، حكمة ٢١١/ ٥٠٦.

وأحسب أن مصدر العلم لدى الإمام عليه السلام لاستخلاص الحقائق التأريخية والمسيرة البشرية:

أ) كتاب الله عز وجل الجامع لقصص الأنبياء، والملوك والجبابرة، وذوي القوّة والثروة، وأحوال الأمم، وما كانت عليه، وما آلت إليه من تقلّب الأوضاع، وتبدّل الأحوال.

ب) البصيرة النافذة، والمعرفة الحقّة بطباع البشر واختلاف غرائزها وما تسمو به وما تنحدر إليه، ونمط تفاعلها فيما تحت تصرفّها فتشكر أو تكفر.

ج) الإلهام، وهو مصدر مفاض من ساحة الغيب، يمكّن من أوتي فضله من الإحاطة بالحقائق والوقوف على عوامل التحوّل والتبدّل والبقاء والفناء، والإمام عليه السلام ممنوح بهذه القوّة والقدرة، وهو القائل: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا»[1].

فهو بذلك وغيره قد أحاط خبرًا بمجريات الأمور وحوادث الدهور، وجمع شوارده وموارده، فاستخلص صفوه، وأفرغ حصيلته درسًا وعبرًا لمن وعى واعتبر، وهدًى لمن اهتدى.

وقد اعتدّ الإمام عليه السلام نتاج ذلك ركيزة قويمة في بناء التربية السليمة، متمثلة في انطلاقها من قلب والد يُعنى بتوفير ما ينجح الغرض ويحقّق الغاية لرعاية ولد عزيز عليه، وفي فترة من عمره مواتية، وأرضية مهيّأة، حيث قابلية

---

(١) المناقب، للموفق الخوارزمي / ٣٧٥.

التلقّي تعيش السلامة من الأهواء، والصفاءَ في النفس، والنقاء في الفكر، لدنة العود تُسقى بماء الخير فتنبت فيها الحقائق نباتًا حسنًا فتنمو بإذن ربّها فتورق وتثمر وتغدق.

مناهج التربية الأصيلة:

(وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ):

إن إعداد منهاج قويم يعتدّ ركيزة تقوم على أساسه التربية السليمة وبناؤها.

والمنهج الفذّ الكفيل بتحقيق مقاصد التربية وغاياتها هو:

(الحقّ)..

ولا حقّ إلا من المولى الحقّ ـ جلَّ وعلا ـ فهو الإله الربّ العليم الحكيم والمهيمن على الأمر كله، تبارك الله وتقدّس.

أ) الذكر الحكيم:

ولقد تجلّت رعايته لخلقه، وسبوغ نعمته، وسعة لطفه ورحمته، فأنزل على صفوته من عباده خيرَ هديه وأكمل تشريعه، قرآنه العظيم وذكره الحكيم، ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

وهو الكتاب الحقّ وهدى الحقائق، ظاهره أنيق وباطنه عميق، خير دستور للحياة، به كمال الإنسانية وصلاح البلاد والعباد.

وحيث هو بالموقع الأجل اعتدّه الإمام عليه السلام المنهج الأقوم للتربية المثلى، على هدي حقائقه، بسبر أبعاده، والنفوذ في أغواره، واستخراج مكنونه واستخلاص معارفه، ولا يحيط به خبرًا إلا من أوتي علم تأويله، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾.

ب) شريعة الدين:

فالإسلام دين الله العظيم، وشرعه القويم، وتربيته المثلى، وقانونه الحقّ النافذ في كافّة شؤون الإنسان، مستوعبًا كل أطواره وأحواله، لا يشذّ عنه أمر من قضاياه، سيّان في ذلك خطيره وحقيره، وصغيره وكبيره، وسواءٌ في رعايته وعنايته عقيدتُه ونظمُ حياته عبادة وسلوكًا وأخلاقًا، مفردًا ومجتمعًا وأمة، مع أوليائه وأعدائه، فهو الروح والحياة والنور والهدى والقلب والبصر والبصيرة واللب والجوهر.

وأعظم بشريعة ترتقي في نظامها وتنظيمها لتضبط حتى طعام الإنسان وشرابه ولباسه وسفره وحضره ويقظته ومنامه.

أجل.. هاتيك ونظائرها مراسيم وحدود وواجبات وحقوق يجب الإحاطة بها وتعليمها والتربية على ضوئها، والوقوف والعكوف على التأدّب بهديها، قلبًا وقالبًا شكلًا ومضمونًا، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾.

الدقة والحذر والحيطة:

(ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ

مِثْلَ الَّذِي التبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ):

فإن من ركائز التربية القويمة رعاية المربّي لكل عنصر دخيل في إنجاحها وإزاحة العلل من معوّقاتها، فبذلك تتوفّر الأسباب لتحقيق الغاية وتوفية الغرض، ومراعاة أوضاع المؤدَّب وقابلياته في التلقّي، وما يحسن أن يوجَّه إليه، ويصرف عنه مما يبعث الشك والشبهة، كل هاتيك بنود ركيزة في سجلّ التربية.

والإمام ـ سلام الله على كمالاته ـ رائد إلهي ومؤدب رباني، قد أولى ذلك عنايته، ونصّ على عمق موقعه، وجلال دوره وتأثيره.

فتراه اعتدّ بدءًا منهج التربية متمثلًا في: القرآن وشرائع الإسلام كما مرّ آنفًا، ثم أعقبه بهذا المقطع الحسّاس قبل عرضه لحقائق القرآن واستجلاء موارد الأدب واستخراجها من بواطنه وأعماقه، أو استقراء بنود شرعة الله ومحابّه ومكارهه.

فهل يعني ذلك أنه عليه السلام عدل عن الإفاضة في كشف حقائق قرآن الله الحكيم واستيفاء مقاصده، وبيان شرائع الإسلام ومواطن الحلال والحرام؟

أم أنه استوفاها وإن لم يسطّرها مدوّنة في غضون هذه الوصية الشريفة، بل عُني بإلقائها عليه؟

أم أنه جمع بين أمرين: تعليم كتاب الله المجيد والتنبيه على مثار الشبه وما يوقع في الشك والاختلاف، بما يستأنفه من حديث جامع لهما محقق لغايته منهما؟

وكل هاتيك ونحوها محتملات واردة في قولهعليه السلام: «**لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَ ائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي التبَسَ عَلَيْهِمْ فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ**».

ومن ثم اختلفت أنظار الشرّاح في بيان كلمهعليه السلام، فمن قائل بعدولهعليه السلام:

قال ابن أبي الحديد المعتزلي:

«ألا تراه قال له: كنت عازمًا على أن أعلّمك القرآن وتفسيره، والفقه وهو المعرفة بأحكام الشريعة، ولا أجاوز ذلك بك إلى غيره، ثم خفت أن تدخل عليك شبهة في أصول الدين فيلتبس عليك في عقيدتك ما التبس على غيرك من الناس، فعدلت عن العزم الأول إلى أن أوصيك بوصايا تتعلّق بأصول الدين»[١].

وقال الشيخ مغنية:

«لأن معنى هذه الجملة: أردت أن أعلّمك القرآن وتفسيره وحلاله وحرامه، ثم عدلت خشية أن يخفى عليك مكان الصواب في المذهب والآراء لحداثة

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦/ ٦٨.

سنك، فاكتفيت بهذه الوصية التي تحتوي على الإيمان بالله وآداب السلوك»[١].

وقائل آخر لم يعرض للعدول:

قال الشيخ ميثم البحراني:

«أي كنت رأيت أن أقتصر بك على ذلك ولا أتجاوز بك إلى غيره من العلوم العقلية، ثم خفت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم مثل ما التبس عليهم: أي التباسًا مثل الالتباس عليهم، فكان إحكام ذلك: أي ما اختلف الناس فيه على ما كرهت من شبهك[٢] له أحبّ إليّ من إسلامك إلى أمر لا آمن عليك فيه الهلكة في الدين، وذلك الأمر هو ما اختلف فيه الناس من المسائل العقلية الإلهية التي يكثر التباس الحق فيها بالباطل، ويكتنفها الشبهات المغلِّطة التي هي مظنَّة الخطر والانحراف بها عن سبيل الحق إلى سبيل الهلاك، وإحكام ذلك الأمر ببيان وجه البرهان فيه وكيفية الخلاص من شبهة الباطل ومزاجه»[٣].

وثالث:

لم يفصح في بيانه مكتفيًا بما عُني به الإمام عليه السلام من أهمية الدلالة والتبصير مما يكفل إحكام المعتقد وصيانة الرأي من عوادي الضلال والتضليل والشبه والتشكيك.

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٤٩٣.

(٢) كذا، والظاهر أنها (تنبيهك).

(٣) شرح نهج البلاغة للشيخ ميثم البحراني ٥/ ١٨.

ورابع:

أفاض المقال وأطنب وأسهب في تعداد قوائم العلوم وعلوم القرآن وقواعدها وجملة من العبادات، مستطردًا كثيرًا، مغفلًا شرح هذا الموطن، بل لم يذكر جمله فيما ذكره في (الفصل السادس)[١].

وأحسب أن الإمام عليه السلام استوفى وأوفى فيما حرَّره في غضون شريف وصيته من بيان معالم التوحيد، ونفي الشريك، ومعارف القرآن الهادية للتي هي أقوم، واقتفاء أثر الأماثل والقدوات الصالحة في كل فضل ومنقبة وخِلال مكرَّمة وخصال معظَّمة.

وسبر الخطبة الشريفة والمألكة المنيفة في مناحي أفكارها ومتسع مراميها خير شاهد وبيّنة وحجّة وبرهان.

وهو المنسجم مع الإحكام الذي يبتغيه رائد التربية الإلهية ربّانيُّ الأمة في نهجه القويم الكفيل بشرعة التأديب والتقويم.

جماع الأدب:

(وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللهِ، وَالِاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ):

والحقّ إنه خير القول خفة وجمالًا في المبنى، وثقلًا وجلالًا في المعنى، كيف لا وقد اتّخذ الله عز وجل غاية ومقصدًا ومبتدأ ومنتهى، فلا يخشى ولا يرجى إلّا

(١) علي والأسس التربوية / ٢٦٢ ـ ٣١٧.

هو، ولا مصدر لأمر أو ترك إلّا هو، فلا قول إلا قوله ولا حكم إلّا حكمه، ولا ربَّ سواه ولا معاد إلّا إليه.

وذلكم هو السرّ في الغدوّ والرواح لتكرار الوصية بـ(التقوى)، وإن الاقتصار على ما فرض الله ﷻ هو محقِّقُها ومتمثل فيها.

فيا لها من كلمة جامعة، وعصمة مانعة، وشرعة واسعة.

القدوات الصالحة الفذة:

(وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الأَوَّلونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا):

فإن اقتفاء أثر القدوة الصالحة عامل مؤثر في حسن التربية والأدب، يدرك ذلك العقل ويؤكّده قول الحق: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾.

وحيث أن العقول متفاوتة، والكمالات غير متواطئة، فلا مناص من الركون إلى الأمثل فالأمثل، والاقتداء بالأفضل.

وغرة الدهر، وخلاصة الخلق المميّز، والمصطفون ممن برأ الله وأبدع شجرة الأنبياء، ودوحة الأصفياء، نور الوجود وأكمل موجود، الأصلاب الطاهرة من الأرحام المطهّرة، لم تنجّسهم الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسهم من مدلهمات ثيابها، ومن تفرّع منهم من الصفوة والثمرة المباركة الطيبة، كشيبة

الحمد ونجليه عبد الله وشيخ الأباطح، عليهم سلام الله ورحمته وبركاته.

وأما النبي والوصي فهما الكل، وقبلة الكافّة، هداة الخلق إلى الحق، صلى الله عليهما وآلهما.

وخير ما نقتبسه بيانًا للصفوة والمثل الأعلى للسادة القادة ما قاله الإمام عليه السلام في (نهج البلاغة):

أ) «**وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ... وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ وَنَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ**»[١].

ب) «**أَ لَا تَرَى غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ وَخَصَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ، أَ وَلَا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ، وَلَوْ لَا مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ، فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا**»[٢].

---

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم ١٧/ ٣٧٥، من كتاب إلى معاوية.

(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم ٢٨/ ٣٨٦، من كتاب إلى معاوية جوابًا، قال عنه الشريف الرضي: وهو من محاسن الكتب.

ج) «وَأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ وَمِنَّا أَسَدُ الله وَمِنْكُمْ أَسَدُ الأَحْلَافِ وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ العَالَمِينَ وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الحَطَبِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ»[١].

ويروق لي أن أنوّه مشيرًا بما يلي:

أولًا: إن الإمام عليه السلام قد سطّر في نهج بلاغته صحائف النور والشرف للدوحة الهاشمية، وما خصّهم به المولى جل جلاله أن جعل النبوّة فيهم، كما منح أهل بيته وحدهم الإمامة.

فما جهر به الإمام على رؤوس الملأ:

أ) «أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ دُونَنَا كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا أَنْ رَفَعَنَا اللهُ وَوَضَعَهُمْ وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى وَيُسْتَجْلَى العَمَى إِنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا البَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ وَلَا تَصْلُحُ الوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ»[٢].

ب) «لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ وَعِمَادُ اليَقِينِ إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الغَالِي وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الوِلَايَةِ وَفِيهِمُ الوَصِيَّةُ وَالْوِرَاثَةُ الآنَ إِذْ رَجَعَ الحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ»[٣].

---

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم ٢٨/ ٣٨٧، من كتاب إلى معاوية جوابًا.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٤٤/ ٢٠١.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢/ ٤٧.

ثانيًا: ولقد نصّ هذا المقطع على سموّ وجلال عمود النسب ابتداء وختامًا في السلسلة المباركة الطيبة، وثمرتها الصالحة، وامتيازهم عن الكافّة بسلامة الفكر وصون النفس، وضبط السلوك، فهم دون سواهم مصدر الاهتداء، ونبراس الاقتداء.

ثالثًا: مكنون السر:

فمكمنه: «فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا».

أجل..

إن الإمامةَ بالنبوَةِ أليقُ.

نهج العلم اللاحب:

(فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ وَعُلَقِ الْخُصُومَاتِ)(١):

فربما لم يُقنع الباحث ما خبره الحكماء السابقون، حتى يعرف ما عرفوا، ويقف على ما عليه وقفوا، تحصيلًا لليقين الناتج عن مزيد الإمعان، وإجالة الرأي، وإيغال النظر، وطيب القلب.

فله مسلك آخر يوصله إلى الحق، كما وصلوا إليه، ولكن بالسير الجدد متجنّبًا بُنيّات الطريق، قائده ورائده طلب الحق للحق، يسأل مستفهمًا، ويصغي متعلّمًا، ولا يُعنى بإثارة الشكوك، وإقحام بؤر الشبه، غير جانح

(١) وقد اختلفت النسخ في الضبط: علو، غلو، علق، الخصوصيات.

لمماراة فيتعلّق بعرى الخصومات وعُلقها.

فيغذّ في سيره وقبلته الحق، وزاده الإخلاص، وغايته بلوغ القصد.

الاعتصام بالله ونهج إدراك الحق:

أ) الاعتصام بالله:

(وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ):

ولعمر الحق إنها الانطلاقة القويمة متمثلة في الإذعان بالعبودية والدينونة بالألوهية، والعبودية تعني الفقر المطلق، والألوهية تعني الكمال المطلق، فيفزع العبد لإلهه ومولاه، فيستعين به في كافّة أمره، فيمدّه بنور الفكر، ويشرح قلبه بهدى الإيمان واليقين، ويمنحه التوفيق لإدراك الحقائق، والله ﷻ ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

ب) التصفية والتخلية:

(وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلَالَةٍ):

فمن يعمد إلى نيل الحق وتلقّي الحقائق فلا بد له من نقاء الفكر، وسلامة القلب، وصفاء الضمير، ولا يتمّ ذلك إلا بإزاحة كافّة العلل، ورفع الحجب وكشف الغشاوة، فلا شوائب تلجأ إلى الشبه فتصدّه وتصرف عن عقله وقلبه نور الإيمان وثبات اليقين، أو تلقيه في صراع ومتاهات، فتقوم الحيرة دون استراحته إلى ركن وثيق، بل يعيش الضلال والتخبّط والانحراف والتيه، فلا يمسك بوثاق عروة يعتصم بها.

ج) القرار الخطير:

(فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمًّا وَاحِدًا فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ العَشْوَاءَ وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ):

وتلكم هي رؤية البصير الخبير، ومن هو على بيّنة من أمره، ويقين من فكره، وعلم بما تقتضيه المعارف الشامخة من تأهّل يمكّن من إدراك الحقائق ونيل غايتها، فنصّ عليه السلام على أسس ثلاثة:

الأول: صفاء القلب.

وخلوصه يتمثّل في خشوعه لجلال الله وقدس الحق.

الثاني: تمام الرأي.

فلا تعبث به الأهواء، ولا يشتّته النزاع والصراع، بل هو الكامل المجتمع.

الثالث: الهمّ الواحد.

فثمّت هدف مقدّس وحقّ يُقصد، وغاية تبلغ.

فإذا اكتملت تلكم العناصر واجتمعت تلكم الأسس حقّ لواجدها المتحلّي بكمالاتها الولوج في بحر المعارف المتلاطم، وفيضها الزاخر، فيمخر العباب ويرسو في شاطئ الأمان، مثقلًا بجواهر اللؤلؤ ونفائس المرجان.

وإن لم تجتمع تلكم العناصر، وتداعى قوامها وعراها الوهن والخلل فلا يرجى لفاقدها سلامة تبلغه الغاية، بل تتقاذفه أمواج الأهواء، وتعصف به

العواصف، لا يلوي على شيء، فلا يدري أين يضع قدمه أو يمدّ يده أو ينظر ببصره، فهو حيران في ضلالة، أعشى في ظلمة وعماية، فأين منه النجاة، وأين هو منها؟!

ولنعم ما ختم به الإمامعليه السلام هذا الفصل بقوله الفصل في طالب الحق وطالب سواه.

فعلى طالب الدين الاستقامة، فمن تحلّى بها سجح سيره، وبلغ غايته، وإلاّ فهو الهلاك والعطب.

وإن الخير لمن لم تجتمع فيه أركان السير الجدد الإمساك عنه والتوقّف، إذ لا يفيده سعيه إلا بعدًا ومزيد تخبّط وانحدار إلى مهوى سحيق.

كما أن الخير لمن يروم إصلاح من هو على تلكم الشاكلة الإمساك وصون الحقائق عن ابتذالها لغير أهلها، فالإمساك منه وعنه أمثل وأجمل.

الإقبال بعد الاستكمال:

(فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي):

وبعد رسم الخطة المعرِّفة، والنهج القويم، والفاصل الدقيق بين الوجهتين الحقّة والباطلة آن الأوان لتفهّم بنود الوصية واستنطاق مفرداتها وجملها لإدراك حقائقها واستيعاب أفكارها واستجلاء ما حوته وأحاطت بشأنه.

وكما أسلفت إن ذلك نبع اليقين ومقالة الخبير الواثق بسلامة العرض وصحة النتائج، فلتقرأ بما تستحق من إمعان وتدبّر فيذعن بحقيقة ذلك وصدقه.

من بنود الوصية:

البند الأول: الله جلّ جلاله المبدؤ المعيد:

(وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ المَوْتِ هُوَ مَالِكُ الحَيَاةِ، وَأَنَّ الخَالِقَ هُوَ الُمِيتُ، وَأَنَّ الُمْفْنِيَ هُوَ الُمِعيدُ، وَأَنَّ الُمْبَتِلَي هُوَ الُمَعافِي):

والحق إنه التأصيل الأصيل لأسس الحقائق وجوهرها، ألا وهو:

الإذعان واليقين بإله الكون وخالقه وربّه ومدبّره، وذلك جماع الأمر كلّه، فهو المركز والمحور.

ومن ثم نجد الإمام عليه السلام يغدو ويروح مقرِّرًا هذه الحقيقة، فهي مرجع كافة الحقائق، فهو عقد نظامها، وجامع شؤونها على وفرتها ودقّة أبعادها، فالسر يكمن في الهيمنة الإلهية المطلقة، فالإله الربّ له الأمر من قبل ومن بعد، متصرّف بقدرته وحكمته.

وقد انتزع الإمام صلوات الله عليه ـ كما هو شأنه ـ هاتيك الصفات من قرآن الله العظيم وذكره الحكيم انتزاعًا:

أ) فقال جلَّ وعلا: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(١).

ب) وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة الملك / ١ ـ ٢.

(٢) سورة الواقعة / ٦٠.

ج) وقال جلّت قدرته: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

د) وقال تعالت حكمته: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[٢].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٣].

إلى آيات وافرة في تقرير تلكم الحقيقة القاهرة.

البند الثاني: الدنيا وأوضاعها المتقلّبة:

(وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ وَالِابْتِلَاءِ):

وتلك هي حكمة المولى ـ جلّ وعلا ـ في شؤون خلقه في ابتلائه لهم فيما يوجّه إليهم ويراد لهم، فأقام لهم مضمارًا على ظهرها يتسابقون وفيه يتنافسون، ليمتازوا في خلائقهم، وهي دار العمل فـ«الدنيا مزرعة الآخرة»[٤].

ولم يكن من الحكمة استواؤها على نهج واحد ونمط فارد، بل إن سمتها التفاوت والتبدّل وعدم الاستقرار على حال.

فشدّة ورخاء، وبؤس ونعماء، وملك وصعلكة، وربح وخسارة.

إنـــما الـــدنيا عَـــوارٍ والعـــواري مســـتردّه

شـــدّةٌ بعـــد رخـــاءٍ ورخـــاءٌ بعـــد شـــدّه

---

(١) سورة البقرة / ٥٦.

(٢) سورة الأنبياء / ٣٥.

(٣) سورة يونس / ١٠٧.

(٤) حديث شريف، شرح أصول الكافي ١/ ١٥٤.

ولقد أبان المولى عزّ وجلّ شأن الدنيا الفانية ـ وهو خالقها ـ في محكم كتابه وشريف خطابه.

واهتدى بهديه أولياؤه فعرفوها وعرّفوها وأنزلوها منزلتها.

البند الثالث: المعاد والجزاء:

(وَالجَزَاءِ فِي المَعَادِ أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لا تَعْلَمُ):

وبالمعاد ورجوع الخلق إلى ربّ العباد تكتمل الحكمة، فتستوفى الحقوق، وتكافأ الأعمال وتجازى، وتُبلى السرائر، وتتجلّى الحقائق، فالآخرة دار الجزاء والسعادة والشقاء والخلود والبقاء.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[(١)].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[(٢)].

أجل.. قد يعجّل ثواب أو عقاب قبل الميعاد إذا اقتضت الحكمة ذلك،

---

(١) سورة محمد صلى الله عليه وآله / ٣١.

(٢) سورة محمد صلى الله عليه وآله / ٣١.

ولعل قولهعليه السلام: «**أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ**» يحتمل هذا المعنى.

«يشير إلى أن الحكمة الإلهية قد تقتضي الجزاء في الدنيا بنوع من الأنواع، فقد أغرق سبحانه قوم نوح وفرعون، وأهلك قوم هود وصالح، وربّ صدقة صغيرة دفعت شرًّا كبيرًا»(١).

وأجمل في شرح ذلك العلاّمة التستري مكتفيًا بقوله: «الظاهر كونه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾»(٢).

وما ذكرته ونقلته عن العلاّمة مغنية أوفق مما ذكره العلاّمة النقوي: «والمقصود أن أحدًا من الخلق لا يقدر على تغيير الدنيا عمّا خلقت عليه»(٣).

البند الرابع: البصيرة عند عدم الإحاطة:

(فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الأَمْرِ وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ):

فالإنسان ـ ومهما منح من طاقات، وأعظمها وأجلّها عقله، واكتسب من معارف بذل في نيلها جهده ـ محدود الإدراك، واهن القوى غير محيط بالحقائق، فما عسى عقله أن يستوعب، وقدراته أن تبلغ إلا مجمل عناوين كلية، ومفردات جزئية، وأما الجوهر المكنون، والسرّ فهو العاجز عن نيله،

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧.

(٢) بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ٨/ ٢٦٧.

(٣) مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة ١٥/ ١١١.

وبلوغ أعماقه، فضلًا عن النفوذ في أبعاده وتفصيلاته، فما يعلم إلا مجملًا وإجمالًا.

تلك هي الحقيقة الراهنة، والحقّ الصراح.

هذا، وقد ﴿أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[١]، وأنعم عليه خالقه نعمة الوجود صفرًا جاهلًا، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

ومكّنه من التلقّي وتحصيل العلم، ولكنه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣].

فإذا كانت حقيقة الإنسان وواقعه على هذه الشاكلة فعليه أن يرسّخ وجودها حيّة نابضة ماثلة قائمة لا ينفكّ عن النظر إليها ومن خلالها، كما هي لا تنفكّ عنه مادام حيًّا.

فيستريح بذلك مما تواترت عليه الخواطر وعصفت به اللوابس وتعاقبت الشبه مما لا يفقه كنهه ولا يخبر أمره.

وكلّما كمل عقلًا ونما علمًا تكشّفت له حقائق، وانجلت ظلمات فعرف ما جهل وبصر ما غاب عن فكره وخفي ولم يحط به خبرًا.

وتلك شارة الجهل والتصوّر، ودلالة العلم والرشد.

---

(١) سورة الإنسان / ١.

(٢) سورة النحل / ٧٨.

(٣) سورة طه / ١١٤.

وينبغي أن تكون سمته: الأناة، فلا يبادر إلى إنكار ما جهل، والسعي لتحصيل الكمال، وقد قيل: حفظت شيئًا وغابت عنك أشياءُ.

البند الخامس: لَجَأُ العبد إلى الربّ:

(فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ):

وهذه نتيجة ضرورية وغاية حتمية لازمة من مقدمات تستتبعها، وهي كذلك مقدمات منتجة لما يترتّب عليها.

فلمّا كان المولى ﷻ مالك الموت والحياة خالقًا ومميتًا وباعثًا معيدًا، مبتليًا ومعافيًا ومحاسبًا ومثيبًا ـ فالضرورة تقضي بالاعتصام بحبله والتعلّق وحده لا سواه، وهل ثمّت من يُتعلّق به غيره؟؟! وهل أحدٌ دونه إلا مخلوقًا ومربوبًا؟؟!

وهو مولى النعم ـ عظمت نعماؤه ـ خلق فسوّى وقدّر فهدى، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[1].

أجل..

لا مناص للعبد من الانقطاع إلى مولاه، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

(١) سورة المؤمنون / ١٢ ـ ١٤.

(٢) سورة آل عمران / ١٠١.

وهذه نتيجة لتلكم المقدمة، ومقدمة لهذه النتيجة:

إن ذلكم المولى هو الحقيق بالعبادة والتألّه في كافة أوامره ونواهيه وما يريده من وضعٍ يكون عليه عبده.

وإليه يرغب ويرجى، ومنه يرهب ويخشى.

هو ـ سبحانه ـ مالك الأزمّة والمهيمن على الأمر كله، والعبد فقير لا حول له ولا قوّة ولا طول ولا منعة، فإلى مولاه عبوديته، ومنه تدبيره، وإليه إيابه، وعليه حسابه.

إيقاظ:

وجدير بالنظر الدقيق والتأمل العميق ما نقف عليه مكرَّرًا من غدوّ الإمام ورواحه بالتذكير بالله ـ جلّت آلاؤه ـ بين كل فصل ومقطع تأكيدًا منه عليه السلام على أسّ الركائز ومكمن السرّ وقوام الأمر، ألا وهو: الله عز وجل.

البند السادس: جلال موقع النبوّة:

(وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ صلى الله عليه وآله، فَارْضَ بِهِ رَائِدًا وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِدًا):

وحيث كان الله ـ تعالى وتقدّس ـ المبدأ والغاية والمقصد، والدين ما قرّره وشَرَعَه من كافّة الشؤون اعتقادًا ونظامًا، دنيًا وآخرة، وفيها وبها صلاح عباده وإعمار بلاده ـ فلا بدّ من قائم محيط بأمرها على سعتها ودقّتها، وسفير بين الحقّ والخلق، متحلّ بالكمال اللائق لحمل تلكم الأمانة الإلهية العظمى،

والقيام بأعبائها كما يريد باعثه ومرسله.

ودين الإسلام خاتم الأديان، ناسخ ما قبله، ولا دين بعده.

وقرآن الله العظيم خاتم الكتب الإلهية وناسخها والمهيمن عليها.

والنبي الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله خاتم الرسل، فلا نبيّ بعده.

وقد اختاره مولاه واصطفاه وأكمله، وأقامه مبلّغًا عنه فأوحى إليه ما شاء، وأرسله بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا ورحمة للعالمين، ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾[١].

فهو الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل والمهيمن على ذلك كله، بإذن ربّه ومصطفيه وباعثه ومرسله، وسفيرُه بين عباده صلى الله عليه وآله.

وقد قرن طاعته بطاعته، ومحبته ـ جلّ وعلا ـ باتباعه، ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[٢]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[٣]، ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٤].

فهو صلى الله عليه وآله إمام الهدى ونبيّ الرحمة، ودعوته الحقّ والحياة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾[٥].

---

(١) سورة الحجر / ٩٤.

(٢) سورة آل عمران / ٣١.

(٣) سورة الحشر / ٧.

(٤) سورة الأحزاب / ٢١.

(٥) سورة الأنفال / ٢٤.

فلا محيص لمن يرجو لقاء الله والحياة الكريمة والعاقبة الحسنة في الدار الآخرة أن يتّخذه رائدًا، فهو الهادي إلى الحق، وعلى صراط مستقيم، وهو لا يكذب أمته بل هو الصادق الأمين، ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ**﴾[1].

ويتّخذه قائدًا إلى الله ـ سبحانه ـ وإلى رضوانه وجنانه، فيقتفي أثره ويتّبع سنته، ويحيا حياته، ويمضي على منهاجه، صلوات الله وسلامه عليه وآله.

البند السابع: غاية الإخلاص في النصيحة:

(فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ وَإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ):

ولقد تمثّل في هذه المقالة عمق الإخلاص وفيض العناية والحنان من قلب والد ملؤه العطف واللطف إلى ولد هو قطعة الكبد والأمل المرجّى، فلا يدّخر الوالد وسعًا ـ وهو ذو النظر الثاقب والإحاطة الكاملة النافذة ـ في استخلاص لُباب الحقائق ليتحلّى بفضائلها ولده ويحيا، فيتبوّأ: خير خلف لخير سلف.

وثمّت فارق كبير وتمايز بيِّن بين نظر المربِّي لمن يُعنى بأمره ويتولّى شأنه وبين نظر المتربِّي لنفسه، فربما تصارعت طبائعه وغرائزه وتزاحمت رغابه، فغلب بعضها بعضًا، فلا يقوى على قهرها والتعلّق بأجملها.

---

(١) سورة النجم / ٣ ـ ٤.

والمربِّي في مندوحة من ذلك ومنأى.

وبعد..

فهذا قول الواثق الخبير، وحكمة المربِّي المخلص البصير، وأعظِمْ بعليٍّ ـ صلوات الله عليه ـ مرشدًا هاديًا، وناصحًا مربِّيًا.

الربّ والمربوب:

(وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَدًا وَلَمْ يَزَلْ، أَوَّلٌ قَبْلَ الأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ الأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ، عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ، فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ وعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ):

والمقطع يجمع حديثين:

أولهما: عن الإله الرب ﷻ في انفراد ذاته وكمال صفاته.

وثانيهما: عن العبد المربوب، وافتقاره، وما ينبغي له تجاه مولاه.

ولقد مرّ التنويه مكرّرًا باعتماد الإمام عليه السلام تركيز التذكير بالمولى ـ سبحانه ـ واعتداده ذلك أسّ القواعد وجوهر الركائز.

أما الحديث في الشطر الأول:

الربّ:

فقد أدار عليه السلام حديثه حول (التوحيد) الخالص محقِّقًا لشهادة الإخلاص (لا إله إلا الله)، فنفى كلّ ندٍّ يُدعى من دون الله، وأثبت وحدانية الإله وربوبيته.

ركيزة الأمر وقوامه:

إن الضرورة تقضي فيمن يُدعى إلهًا ويُصمد إليه ربًّا أن ينفرد بالخلق ويختصّ بالتدبير، ويعود إليه الأمر كله، فهو القائم به والمهيمن عليه، وأزمّته في ملكه وقبضته.

أ) وحيث هو بالمقام الأسمى والأشرف الأعلى جلّ عن مباشرة خلقه ومعاشرتهم، فلا بدّ من سفراء بينه وبين عباده يحملون هديه، ويبلّغون شرائعه، ويقيمون حجّته.

ولولا ذلك فلا شأن لوجوده، ولا جدوى في (إله) عاطل لا رابطة بينه وبين خلقه.

هذا والحقيقة التأريخية ناطقة بأن الديانات الإلهية حملها مبلّغون عن إلههم وباعثهم، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1]، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2].

---

(١) سورة فاطر / ٢٤.

(٢) سورة النساء / ٦٥.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

فقام أولئك الأنبياء والرسل السفراء ـ بأجمعهم على امتداد الدهر ـ بالدعوة من الله وإلى الله وحده سبحانه.

ولم يعهد في فترة من الدهر سفارة عن شريك لله في الألوهية، إذن: فانتفاء اللازم يعني انتفاء الملزوم.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢).

ب) النفوذ والقدرة:

فمن شؤون من يُدعى إلهًا أن يكون ظاهره النفوذ، واسع القدرة، مهيمنًا على الأمر كلّه، والكلُّ في قبضته، وطوع إرادته، ويداه مبسوطتان.

ويتجلّى في الكون سلطانه، وتظهر آثار ملكه، ودلائل قاهريته فيمن خلق وما خلق، وفيمن بعث وأرسل، وفيها أحكم ودبّر وقضى وقدّر، لا يعجزه شيء، وهو على كلِّ شيء قدير، وله الأمر من قبل ومن بعد.

والشريك المزعوم، والندّ الموهوم لا عينَ ولا أثر لخلق منه ولا تدبير، بل:

---

(١) سورة المؤمنون / ٤٤.

(٢) سورة المؤمنون / ٩١ ـ ٩٢.

هو السالبة بانتفاء الموضوع.

ج) التأثير الفاعل:

فإن من شأن (الربوبية) تولّي القيام بأعبائها ونظم أمر (المربوبين) ورعايتهم، وتشريع قوانين سعادتهم في كافّة شؤونهم.

ولازم ذلك أفعال تتجلّى فيها القدرة والنفوذ والهيمنة، وصفات قائمات قوامها الحياة والعلم والحكمة والإرادة.

وهل يخطر في العقل أو يُتخيّل في الوهم إبداع هذا الكون ـ مع عظم اتّساعه وجلاله ـ من متوهّم جاهل ومتخيّل عاجز عاطل، لا إثارة له من علم، ولا أثر له من قدرة؟!

ذلك هو الضلال البعيد.

إله الوجود:

أ) «وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ»:

فما يدرك من هذا الوجود بإبداعه واتّساعه وعجيب نظامه ودقيق إحكامه لا بدّ له من موجد فرد لا شريك له ولا وزير ولا ظهير.

وشريك الباري ممتنع، يحيله العقل، وتأباه الحكمة، إذ لو فُرض محالاً لكان (الإله) اثنين، فهل هما متساويان في العلم والقدرة والحكمة والإرادة والمشيئة؟! أم هما مختلفان متفاوتان جلالاً وكمالاً؟!

فإن كان الفرض الأول فهما واحد، فما موقع الاثنينيّة؟

وإن كان الفرض الثاني فلأقواهما الغلبة والقهر نقضًا وإبرامًا قضاء لحق الهيمنة والسلطان.

ب) «كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ»:

من انفراده ـ سبحانه ـ بالخلق والتدبير والتكليف والجزاء.

وقد أدركت ذلك العقول، وأذعنت به القلوب، وانعقدت عليه الضمائر، واستقرّت البصائر.

إنارة وإثارة:

إن من اللافت حقًّا والمثير للتأمّل صدقًا تقرير القرآن العظيم والذكر القويم الحكيم هذه الحقيقة الكبرى:

إن إبداع هذا الوجود الدقيق والكون الفسيح بما فيه ومن فيه مما يُرى وما لا يُرى، وإدارة نظمه ونظامه خلقًا ورزقًا وموتًا وحياةً وبعثًا ونشرًا، وجنة نعيم ونار جحيم، وملائكة حافظين كاتبين، وأنبياء مرسلين، وهداة مهديين، وكافّة شؤون الخلق جملة وتفصيلاً إنما هي من الله وإلى الله، فالكلُ في قبضته وملك سلطانه، وخضوع تدبيره، فهو القادر المطلق، والقاهر المهيمن على الأمر كله.

وهكذا ما حفل به سفر الوجود من أنباء الغيب وأحوال الأمم وتمرّد الأشقياء على هدي الأنبياء، والانتقام منهم عاجلاً في الدنيا، وتوعّدهم بالعذاب الدائم والخزي الأبدي في الأخرى.

كل هاتيك ونظائرها مما أسند الله عزّ وجلّ أمره إليه سبحانه وحده لا شريك له.

ولم يعهد لأحد ومن أحد أن نسب ذلك لنفسه أو لغيره ممن هو على شاكلته، وحتى فراعنة الدهر والعتاة المردة.

ومن ثم يتجلّى عمق كلمتي الإمام عليه السلام: «**لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ**»، «**وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ**».

فلا إله إلا الله وحده لا شريك له.

ج) «لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ»:

فهو ـ جلّت قدرته ـ المستقلّ بالملك، وله الأمر من قبل ومن بعد، والكلّ خلقه وفي قبضته، وتحت سلطانه، وبيده إفقارهم وإعجازهم وإفناؤهم، كما كان بيده إيجادهم وإحياؤهم.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾(١).

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾(٢).

فأنّى للفقير مغالبة الغنيّ المطلق، وللعاجز ممانعة القادر، وللممكن مضادّة الواجب؟!

وسيّان في ذلك الجبابرة المتمرّدون، والصعاليك البائسون، أمّا الأولياء

---

(١) سورة النجم / ٤٢.

(٢) سورة العلق / ٨.

الصدّيقون والملائكة المقرّبون فهم الخاشعون الخاضعون لقدس جلاله وكبرياء عظمته، الممتثلون لأمره، ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾(١).

د) «وَلَا يَزُولُ أَبَدًا وَلَمْ يَزَلْ»:

فهو ـ سبحانه ـ الحيّ القيّوم، ومن شأنه: عدم عروض الفناء والتغيّر واختلاف الأحوال والتبدّل.

فواجب الوجود لا تعرض عليه الحوادث، ولا يلمّ بساحته الضعف، وهو الكمال المطلق، فيستحيل أن يدنو منه نقص، وإنما ذلك من شأن الممكن.

هـ) الأوّل والآخر:

فأوّليّته هي وجوبه الذاتي، فلا يقال: لم تكن له ذاته ثم كانت له، أو يكون وصف الأوّليّة عارضًا.

وآخريّته على نحو أوّليّته بمقتضى وجوب وجوده، فليستا على حدّ وصف الممكن الذي لم يكن ثم كان ثم انقضى فكان له أول وآخر، بل منه ابتدأ الخلق فصار أوّل ما خلق أوّلاً، وإليه ينتهي الخلق أوّلهم وآخرهم.

وقد أوضح ذلك الإمامعليه السلام في نهج بلاغته بقوله:

«الأحَد لا بتأويل عدد»، «من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن

---

(١) سورة الأنبياء / ٢٧.

عدّه فقد أبطل أزليّته»(١).

«واحد لا بعدد، ودائم لا بأمد»(٢).

«سَبَقَ الأوقاتَ كَوْنُه، والعَدَمَ وُجُودُه، والابتداءَ أَزَلُه، ... ولا يُحْسَبُ بَعَدٍّ، ... ولا يُقالُ: له حَدٌّ ولا نهايةٌ، ولا انقطاعٌ ولا غايةٌ... لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيًا... لَا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ... وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لَا شَيْءَ مَعَهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا»(٣).

وبعد..

فالأول والآخر ليسا في حقّ المولى ـ جلّ وعلا ـ صفتين لبداية مسبوقة بالعدم أو مختومة به على نسق تعداد الممكنات، بل هو الله الأزليّ الوجود، والسرمديّ البقاء، الواحد الأحد، الفرد الصمد.

و) عظمة الربّ بمنأى عن الإدراك:

«عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ».

فالذات المقدسة في جلالها وكمالها لا تُدرك حقيقتها، ولا يُبلغ سرّها، فعلوّها لا يحويه فكر، ولا يرقى إليه عقل.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٥٢/ ٢١٢.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٥/ ٢٦٩.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٦ / ٢٧٣ ـ ٢٧٦.

فلا تقوى قوى الممكن جانحيّة وجارحيّة أن تحيط بشأن الواجب، فهو خارج عن مجال إحاطتها، وهي قاصرة عن الوقوف على كنهه.

أجل.. يذعن العقل بوجودها، ويدرك الآثار المنبئة عن فيض الأسرار، لا بل إن من تلكم الآثار ما لا يُحاط بأمره، وتُخبر حقيقته، فكيف بمبدعها ومدبِّرها؟!

هذا وقد جاءت آيات بيّنات في كتاب الله المعجز تحمل دلائل عقلية على التوحيد، وتفرّد المولى ـ جلّ وعلا ـ بالربوبية والتدبير.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[١].

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٢].

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[٣].

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٤].

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ

(١) سورة المؤمنون / ١١٧.

(٢) سورة الأنبياء / ٢٢.

(٣) سورة الأنبياء / ٢٤.

(٤) سورة الأنعام / ٨١.

تُؤۡفَكُونَ﴾(١).

﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ * مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(٢).

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾(٣).

وعلى هذا الهدي أرسى الإمام عليه السلام في نهجه قواعد التوحيد، وأقام أركانه، وشاد بنيانه، بأجلّ برهان وأفخم بيان.

وهو الفاتح لعلم الكلام في الإسلام، ورائد التوحيد، أولاه عنايته، وأفاض فيه المقال.

وأما حديث الشطر الثاني:

المربوب:

فإذا كان (الربّ) بذلكم الجلال والكمال، و(المربوب) في منتهى الضعف، وغاية الفقر والهوان، وقد نفذ فيه العجز فلا يقوى أن يجرّ إلى نفسه نفعًا ولا يدفع عنها ضرًّا، وحاجته قائمة وعظيمة دائمة، ولا حول له ولا قوّة ولا عزّة

---

(١) سورة يونس / ٣٤.

(٢) سورة يوسف / ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) سورة المؤمنون / ٩١ ـ ٩٢.

ولا منعة، فكيف له أن يخرج من ضيقه ويفكّ قيوده ويستريح من عنائه عاجله وآجله؟

أجل.. لا يليق بمن هذه حاله وهذا وضعه إلاّ أن يتعلّق بربّه فيمسك بحبله وينقطع إليه بكله في كله.

فيلتمس محابّه ومواطن طاعته فيعانقها ولا يفارقها، ويتعرّف على مكارهه وموارد سخطه فيتجنّبها ولا يقاربها، لئلاّ تناله عقوبته ويصرف عنه عنايته.

ولْيَصْدُقْ في ذلك قلبُه واعتقادُه، ولْيَصْدُق فعلُه وتركُه حتى تتحقق عبوديته لمن يدعوه ويرجوه ربًّا.

هذا والربّ العليم والإله الحكيم هو الغني المطلق الذي لا تنفعه ولا تضره الطاعة والمعصية، وإنما الرابح والخاسر هو العبد المربوب.

وقد أمره بما هو حسن وصلاح، ونهاه عن قبيح وفساد.

فإذا كان على يقين من ذلك فليعمل بما يليق به وينبغي لمثله من التأدّب بآداب ربّه ومولاه ومبتداه ومنتهاه.

المثل المعبِّر:

(يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الأَمْثَالَ لِتَعْتَبِرَ بِهَا وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا، إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ فَأَمُّوا مَنْزِلًا خَصِيبًا وَجَنَابًا مَرِيعًا، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ وَخُشُونَةَ السَّفَرِ

وَجُشُوبَةَ المَطْعَمِ لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَمًا وَلا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَمًا، وَلا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ.

وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ):

وللمثل أثره الفاعل في حمله على التأمل والتفكير، وبعثه على التصديق والتطبيق من خلال عرضه وتصويره وتجسيده للأفكار والمفاهيم صورًا محسوسة ملموسة.

وقد حفل القرآن الكريم بالأمثال المعبِّرة عن الحقائق خيرِها وشرِّها، وعلى هذا الهدي جرى المربُّون الإلهيُّون، كما في المأثور كثيرًا في حديث رسول الله والأئمة الهداة عليهم السلام ترويضًا ومراعاةً لمستوى المتلقِّي ليذعن بحق ما يوجّه إليه فيتأثر بمدلوله ويستجيب لندائه.

وقد عرض الإمام عليه السلام في وصيته الإلهية، وبرنامج التربية الربانية مثلاً حيًّا يحكي واقع الإنسان مبتدأ ومنتهى.

فمبتداه هذه (الدنيا) التي فيها يحيى وعنها ينقلب، ومنتهاه تلك (الآخرة) التي يرحل إليها وفيها يستقر.

وتلكم هي الحقيقة التي جهد عليه السلام في تقريرها والتركيز على خطرها، فكرّر

المقال وضرب الأمثال، لتستقرّ في العقول وتتبوَّؤها النفوس، وتلتحم بالأرواح، فلا يغفل عن الممر والمقر.

وطريف جدًّا ومن اللطف في الغاية أن يصدّر عرضه للمثل بقوله: «إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا»، فتلك حكاية البصيرة ونفوذها في استجلاء الحقيقة وقيامها ماثلة.

وقد جاء المثل بنحوين يعرضان وضعين، وإن كان موضوعهما واحدًا.

النحو الأول:

قوم سَفْرٌ[١]، وقد كانوا مقيمين في ضنك ومنزل جديب[٢]، فنبا بهم[٣]، فَأَمُّوا[٤] مَنْزِلًا خَصِيبًا[٥] وَجَنَابًا[٦] مَرِيعًا[٧]، وقد اكتنفتهم المصاعب في سيرهم ولزمتهم المتاعب من وعثاء[٨] طريق وفراق صديق وسلوك جادّة وعرة تشوي حرارتها الأقدام، تعلو بهم جبلاً وتهبط واديًا، يقتاتون قوتًا جشبًا لا يستسيغون مطعمه، وذلك زادُهم، وزادَ عناءُ سفرهم.

(١) سَفْرٌ: في سفر.
(٢) جديب: يبست أرضه لاحتباس المطر عنها.
(٣) نبا به المنزل: غير مهموزة، أي لم يوافقه ولم يناسبه.
(٤) أَمُّوا: قصدوا وتوَجَّهوا إلى.
(٥) خصيب: كثير النبات والعشب.
(٦) الجناب: الناحية.
(٧) المريع: الخصيب المُكْلِئ.
(٨) وعثاء: مشقة وشدة.

تحمّلوا العناء والإعياء ليدركوا ما أمّوا وأمّلوا، فما بزغت شمس يومهم حتى طفقوا مردِّدين: وعند الصباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى.

فهذا هو المنزل الرحب، وهذا موطن النعيم، ودار القرار، وزال بهذه النعماء تلكم البأساء، وهان عليهم تعبهم ونَصَبُهم، ونسوا عنتهم وشظفهم، فهم لما بلغوه منبسطون فرحون.

وقد جاء قول من سار إلى محبوبته: «نعم السير على بئس العير».

وهذه حالة الدنيا، بتجرّع غصصها، والبلاء في كربها، والشقاء في بؤسها، سرعان ما تذهب غممها، وتحلو مرارتها، وتغمر السعادة من اكتوى بضرّائها لفوزه بلقاء ربّه وجنّة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، بل وما لا عين رأت ولا أذن سمعت، بل ورضوان من الله أكبر، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1]، فذلكم هو النعيم الدائم.

كل ذلك لمن عقل الدنيا وأفلت من عقالها، وتحمل بلاءها وإن اشتد فهو منقطع، وإن طال فهو منته، وسجنها وإن ضاق فعاقبته الفرح والفرج.

النحو الثاني:

فذلك المغرور بزبرجها، المستريح إلى إقبالها ونعيمها، والمأنوس بلذاتها، الرافل في شهواتها، فلا يطيق عنها تحولًا، ولا يبغي بها بدلًا، ولا يرغب في سواها منزلًا.

---

(١) سورة العنكبوت / ٦٤.

أيدع ربعه الخصيب، ويتوق إلى موطن جديب؟!

وما ترعرع عشقه لدنياه الزاهية، وارتاح لبريق ذهبها، وحَسُن في عينه بريقها، إلاّ لأنه قصر نظر إليها وحدها، وحصر فكره فيها، ووقف نفسه عليها، فكأنما لم يخطر بباله دار أخرى، ونعيم مقيم آخر، فهو يحيى رافلاً في بلهنية العيش، ولا يدري إلى ما هو صائر، وماذا يفاجئه من ضيق وضنك ومكاره، ويباغته ما لا قبل له به، فينسيه نعيمه الزائل، ويرى أنه السراب الذي قد حسبه ماء، فهذه حال الغارق في دنياه، وقد فارقها إلى الدار الآخرة التي نسيها، ولم يحمل إلى البقاء الدائم فيها زادًا، فقد كان لها كارهًا، وعنها غافلاً.

تعقيب:

هذا شأن عامة أهل الدنيا، أمّا من أسرتهم وملكتهم ـ وإن ظنّوا أنهم قد ملكوها ـ فذلك الطغيان والتجبّر، حتى ادّعى بعضهم الألوهية والربوبية العليا، وبعضهم تمرّد وانسلخ من الحق.

﴿ **وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ** ﴾[١].

وقد قرأنا حديثًا عجبًا عن (قارون) وما ملك، وكيف هلك، تنزّلت به

---

(١) سورة الأعراف / ١٧٥ ـ ١٧٦.

آيات من سورة (القصص) حكاية وعبرة وحكمة لأولي الألباب.

ميزان التعامل مع الآخرين:

(يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ):

تمهيد:

أ) تعايش الأحياء ضرورة قائمة.

ب) اختلاف الطباع والميول.

ج) حبّ المرء لنفسه وتقديمه إيّاها.

فكيف تنتظم العلائق وتأتلف في مجتمع تختلف أفراده، فكل يعشق ذاته، فتنجم الأثرة، ويزهو التعالي، فيستعصي عليها خفض الجناح، وتجرع الغيظ، والجنوح إلى السلامة؟!

يعتمد الإمام عليه السلام ـ وهو المربّي الربّاني ـ المقياس الفاعل في ضبط التفاعل، وهو: (الإنسان ذاته، والمرء نفسه).

دواؤُكَ فيكَ وما تشعرُ وداؤُك منك وما تُبْصِرُ

وإنه لقسطاس مستقيم مطّرد الأثر إذا ما استقامت موازينه.

أجل.. هو المقياس السويّ للإنسان السويّ، لا لمن عفنت جِبِلَّتُه، وتنكّرت طبيعته، فانحرفت خلائقه.

وقد جاء في الحكمة العلوية العالية:

«مَن زاغَ ساءَتْ عندَهُ الحسنة، وحَسُنَتْ عندَهُ السيئة»(١).

ومن ثَمّ اعتدّه الإمام قانونًا محكمًا وأصلاً عامًّا.

«يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ».

ورائع جدًّا تجلّي الروح الإنسانية الكريمة والأفق العالي في اعتماد (الغير) مقياسًا بدلاً من روابط أخرى كعنصر الإيمان أو وشيجة النسب وما إلى ذلك.

ثم نصّ على ضوابط كليّة، تكفل مراعاتها الاستقامة والانضباط:

١، ٢) الحبُّ والكره:

والمرء مجبول على حبّ ذاته، ومتعلّق حدّ الاستئثار بتوفير ما تحب، وذلك شأنه فيما يكرهه لنفسه، فهو لا يطيق أن يلمّ به أو يعرض له شيء من ذلك قولاً أو فعلاً.

وهنا ينتصب (ميزان العدل) وتستوي كفّتاه، فلا تهبط به أنانيّته، ولا يميل لسان ميزانه فيحسب أنه رجح وربح، بل الاستقامة القائمة أن يرى نفع غيره نفعه وضرر غيره ضرره، ونفعه وضرره نفع غيره وضرره.

---

(١) نهج البلاغة، كلمة ٣١/ ٤٧٤.

ويتجلّى العدل والقسطاس المستقيم لاعتماد هذا المقياس الدقيق في خوض غمار الحياة والتوغّل في شؤونها والابتلاء بمعتركها قضايا وأشخاصًا، ولا ينفكّ من التعامل فيها ومعها ما بقيت حياة، وصلات بين الأحياء، واختلاف في الرغبات.

٣) الظلم:

فمن الحق استيفاء الحق غير متجاوز حدًّا، فلير ذلك لغيره فلا يبخس منه شيئًا.

وكثيراً ما تميل النفوس إلى المغالبة والاستئثار، فتحتال إلى نيل ما تهوى بكل سبيل، حيلة واستغفالاً ومخادعة ومراوغة فترى أنها غنمت.

ولو أقام نفسه مقام المغلوب على أمره لرأى أنه قد أُهين في ذاته، واحتُقر في معنوياته، فيردعه ذلك فلا يجرؤ أن يعامل غيره بمثله.

وإذا كان:

الظلمُ من شِيَمِ النفوسِ فإن تجدْ ذا عفّـــةٍ فلعلّـــةٍ لا يَظْلِـــمُ

فخير العلل المانعة من الظلم والموجبة للعفّة جعله نفسه مرآة نقيّة صافية لا يشوبها كدر، فهو لا يظلم أحدًا لأنه لا يحب أن يظلمه أحد.

٤) الإحسان:

والإحسان رتبة فوق العدل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[1].

---

(١) سورة النحل / ٩٠.

والإنسان في خضمّ حياته ومعتركها تلمّ به النائبة، وتنفلت منه الزلّة، وتعرضه الغفلة، ويفرط منه ما يسقطه ويُؤاخذ عليه ويُحاسب به، وربما أقامه ما اقترف انكسارًا وهوانًا وموقف خزي، فتضيق به رحاب دنياه فيتمنّى لو ابتلعته أرضها.

أمّا وقد تلقّاه وجه كريم، ونفسية عالية، وعين غضّت طرفها عن سيء صنيعه فقبلت عذره، وغفرت له جرمه، وعفت عن ذنبه، ونسيت إساءته فقد وهب له جديد حياة.

والإحسان قانون عام تواترت التوصية بإقامته وإعماله في شؤون جمّة ابتداءً ومجازاةً ومكافاة.

قال الله في الذكر الحكيم:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(١).

وقال عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران / ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) سورة المائدة / ١٣.

وقال ـ عظمت آلاؤه:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾(١).

وقال ـ زكت نعماؤه:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٢).

والعفو نمط من الإحسان وشعبة منه.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣).

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٤).

وأعظم بمقام يتبوّؤه المحسن فيعود مع الله وقريبًا من رحمته.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾(٥).

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٦).

---

(١) سورة النساء / ٨٦.

(٢) سورة يونس / ٢٦.

(٣) سورة النور / ٢٢.

(٤) سورة الشورى / ٤٠.

(٥) سورة النحل / ١٢٨.

(٦) سورة الأعراف / ٥٦.

وينشر الإمام عليه السلام لئالئ كلمه وغرر حكمه لينتج الإحسان ثمراته الحسان.

أ) «**عَاتِبْ أخاكَ بالإحسانِ إليه، وارْدُدْ شَرَّهُ بالإِنعامِ عليه**»[1].

ب) «**ازْجُر المسيءَ بثوابِ المحسن**»[2].

ج) «**أحسنوا في عَقِبِ غيرِكم تُحْفَظُوا في عَقِبِكم**»[3].

ولو عاشت الأمة هذا الخُلق واصطبغت حياتها بجماله لحييت الحياة الكريمة، ولسادت روح العفو والتعالي والتسامي عن المحاسبة والمداقّة والمؤاخذة.

أَحْسِنْ إلى الناسِ تستعبدْ قلـوبَهمُ ... فطالما اسـتعبدَ الإنسـانَ إحسـانُ

٥) الاستقباح:

وركيزة الاستقباح يجب أن يكون منطلقها حقًّا، وباعثها صدقًا، فربما استقبح لجهله الحسن، وتنكّر للجميل فجنح لغير الغرض، ومال إلى غير الجادّة.

أما وقد أقام نفسه مقياسًا فعنايته بخاصة ذاته أولى، فهو لا يرضى لنفسه ما يشينها، بل غايته ما يزينها.

فإذا مدّ طرفه لسواه، ونقم عليه سلوكه، ولم يَرُقْه نهجُه وتصرّفه، فعليه أن يرجع البصر، فلا يرضى لنفسه قبيحًا وصم به صاحبه وانتقص منه، فيشركه في النقص والخلل، ويفرده بالنقد والعيب.

---

(١) نهج البلاغة، كلمة ١٥٨ / ٥٠٠.

(٢) نهج البلاغة، كلمة ١٧٧ / ٥٠١.

(٣) نهج البلاغة، كلمة ٢٦٤ / ٥٢١.

٦) الرضا:

فإذا كان المرء مقصِّرًا في حق غيره، فلا يلومنّ من قصّر في حقه، (فكما تُدين تُدان).

فكيف به يرضى لنفسه أن يُعاد إذا مرض، ويُعفى عنه إذا أساء، ويُسعف إذا احتاج، ويُفتقد ويُتفقّد إذا غاب، ويرى ذلك حقًّا ومروءة، وهو لا يقوم بذلك في حق سواه؟! ما هكذا شرعة الإنصاف وخلّة الأشراف.

إذن من جفى فليتحمل الجفوة، ومن قطع فليرضَ بالقطيعة، ومن أساء فلا يتبرّمنّ بالإساءة المماثلة المضادّة، ومن جرّد لسانه وأطاله تجرّدت له ألسن طوال فلا يضجرن.

لسانك لا تذكرْ بـه عـورةَ امـرئٍ فكلُّـك عـوراتٌ وللنـاسِ ألسـنُ

٧) القول بعلم:

فاللسان أداة تعبير، وكشف ما في الضمير، فإن سئل عمّا يعلم أجاب بما يعلم، وإن كان فاقدًا للعلم فليقل: لا أعلم، وإن قال غير ذلك فهو الجهل.

وما خلقت هذه الآلة لتنفتح من غير إغلاق فتهرف بما لا تعرف، ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْرِ﴾[1]، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2]، ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة النحل / ٤٣.

(٢) سورة ق / ١٨.

(٣) سورة يونس / ٥٩.

ولا يغرنّك الشيطان فيغريك بالخوض فيما لا تفقه لئلاّ توسم بالجهل، وتلك منقصة يربأ المرء بنفسه عنها، فذلك من وساوس الشيطان وتسويلاته وإضلاله وإغوائه، وتعريضه للورطات القاتلات، فإن «مَنْ تَرَكَ قولَ: (لا أدري) أُصِيْبَتْ مَقَاتِلُهُ»[١].

القاسم بن محمد بن أبي بكر:

سئل عن شيء فقال: لا أحسنه، فقال له السائل: إني جئت إليك لا أعرف غيرك، فقال القاسم: لا تنظر إلى لحيتي وكثرة الناس حولي، والله لا أحسنه، فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي الزمها فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم، فقال القاسم: والله لئن يقطع لساني أحبُّ إليّ أن أتكلم بما لا علم لي به[٢].

فعلى اللسان لجام، وقد أطبق عليه فلا ينطلق إلا في مواطنه وميادينه، وإلاّ فلينطبق كما خلق.

٨) القول واللسان:

ومن حب المرء لذاته انبساطه للثناء والمدح، وانقباضه عن الذمّ والقدح، فيرتاح للحديث عنه بالجميل في محضره ومغيبه، بل ربما تأنس بعض النفوس بذكر ذلك عنها ولو علمت بكذبه وعدم حكايته لواقعه.

---

(١) نهج البلاغة، كلمة ٨٥/ ٤٨٢.

(٢) سفينة البحار ٢/ ٤٢٩.

والميزان العدل يقضي: فكما يُساء المرء من سامع نقده ومنتقص شخصه، ويراه حطًّا لكرامته وتجاوزًا عليه، فعليه أن يعرف مثل ذلك وثقله فيما يجرح به عواطف غيره، ويسلقهم بلسانه، وينتقصهم مواجهة أو غيبة، فتلك هي المشاعر والقلوب والألسن.

فأقم نفسك مقام من جرحته، وهتكت عرضه، فأبحت حماه، وبوّأته مقالة السوء خزيًا وهوانًا وحديث احتقار في المجالس، فكما لا ترضى لشخصك ذلاًّ وحطّة فلا ترضى لغيرك ذلك.

الإعجاب:

(وَاعْلَمْ أَنَّ الإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الأَلْبَابِ):

«ولما كان الصواب هو سلوك طريق الله باستجماع مكارم الأخلاق، وكان الإعجاب من رذائل الأخلاق ـ كان مضادًّا للصواب مضادّة الرذيلة للفضيلة»[1].

والعقل يدعو إلى نيل الحق والصواب، والنفس تعشق ذاتها وتسعى لما تهوى وإن أردت صاحبها، ومن ثمّ كان الإعجاب آفة الألباب.

وأحسب أن تعقيب الإمام عليه السلام وصاياه بذلك تنبيهًا وتحذيرًا من حسن ظن المرء بنفسه، فربما جرّه ذلك إلى نمط من العبودية لها، فلا يرى إلا نفسه، ولا سداد إلا رأيه، فيرديه إعجابه، ويأتي على عقله، ويذهب بدينه ومروءته.

---

(١) شرح نهج البلاغة للبحراني ٥/ ٢٩.

دأبه فيما يهمّه:

(فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ وَلَا تَكُنْ خَازِنًا لِغَيْرِكَ):

أ) والعاقل يعلم أنه يسير في طريق يوصله إلى غاية ويوقفه عند نهاية، فليسع في قطعه كادحًا مواصلاً جهده معتمدًا وثيق ما يبلّغه بسلام، سواء كان ذلك بكسب الطاعات، أو نيل المال من موارده وصرفه في مواطنه، فكلاهما زاده في طريقه، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١].

وما أوجزها من حكمة جمعت وأوعت، منتزعة من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٢].

ب) والكدح وتحمّل الجهد فيه ينبغي أن يعود نفعه للكادح ذاته فهو المفتقر إليه.

ويتجلّى ذلك في جمع المال وعدم بذله في جهاته، فقد أرهق نفسه ولم ينتفع منه بطائل، وإنما وفّره لغيره، فكان منه النصب والعناء، ولغيره الراحة والهناء، ولو عقل لقدّمه لآخرته، وتبوّأ به مقعدًا في الجنة.

وهذه الحكمة العالية اللاحقة لدة السابقة، وبهما اكتمال الحقيقة وقوام السعي والطريقة.

خشوع القلب لهداية الرب:

(وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ):

---

(١) سورة البقرة / ١٩٧.

(٢) سورة الانشقاق / ٦.

والتوقيف على الحقائق هداية ربّانية، والهداية لها توفيق ربّاني، فالخير كله من معدنه.

فحقيق بالقلب أن يخشع، والجوارح أن تخضع لقدس جلال ربّها ومربّيها، إذعانًا لعظمته، وشكرًا لنعمته، وامتنانًا لهدايته.

الطريق البعيد الشاق وسبيل اجتيازه:

(وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَا غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الِارْتِيَادِ وَقَدْرِ بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ فَيُوَافِيكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ):

فما ورد ابن آدم إلى هذه الدنيا ليبقى فيها مخلّدًا، ولا ليستقرّ على حال.

وإنما دنيا ممرّه وطريقه إلى مستقرّه، طال أو قصر أمده، وكما هو شأن الظاعن وديدن المتنقّل تهيئة راحلته وتوفير زاده، وما يقوم به سفره مما لا يقوى على بلوغ غايته إلا به، وهو وإن طال قصير.

فكذلك ـ وأولى ـ السفر الطويل ذو الشقّة البعيدة والمشقّة الشديدة.

ولئن كان سفر الدنيا يُكتفى في إعداد آلاته وأدواته قُبيل اعتزامه فإن سفر الآخرة لا بد فيه من إعداد دائم، وعمل قائم، فهو لا يدري متى يُنادى فيه

بالرحيل، فربما فُوجئ ولم يُنظر، فما حاله في سفر لا زاد فيه ولا راحلة؟!

فمن طمع في بلوغ الغاية سالمًا فلا غنى له عن:

أ) حسن اختيار ما ينفع.

ب) التزوّد بما يكفي.

ج) التخفّف مما يبهض.

«**تخفّفوا تلحقوا**»[(١)].

وإن المخفّ أدعى للحاق من المثقل، ولا سيما والشقة بعيدة، فيظلّ يراوح قدميه ويعيا بثقله، فلا يبرح موطنَه مقعدًا.

والارتياد الحسن بالعمل الصالح، وسبل القرب من الرب، وخير الزاد التقوى، والتخفّف من الذنوب، وظلمِ العباد، وتبعاتِ الخلق.

ومن سبل الإعداد لسفر الآخرة:

فالسفر بعيد المدى، وثقل الحمل يزيد في شقائه، وخفّة المؤنة تخفّف من عنائه، فإذا تهيّأ له (بريد) يكفيه مؤنة حمله ونقله فليغتنم ذلك.

وقد ذكر الإمامعليه السلام وسيلتي نقل مأمونتي الجانب مضمونتي الإيصال:

الأولى: الإحسان لذي الفاقة:

فالصدقة، وإسعاف المحتاج، وإغاثة اللهفان، والبذل في نظير ذلك على كثرته وتنوّعه واختلاف أمره أفرادًا وزمانًا ومكانًا ـ نعم الزادّ ليوم المعاد.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢١ / ٦٢ ـ ٦٣.

والله يُرْبِي الصدقات، و«**خير الصدقة ما أبقت غنى**»[(١)].

وكما يحلو للمرء أن ينعم في دنياه بما أفاض عليه مولاه من سابغ النعم، فيرفل في أبرادها، وكما يحب له ربّه من ظهور آثارها عليه في مسكنه ومركبه ورياشه ومطعمه ومشربه في حله وترحاله ليحيا هانئًا ويعيش مغتبطًا برهة قصيرة وإن طالت ـ فالأجدر أن يعدّ له ما يكفيه حينما يوافيه من أسباب النعيم المقيم في حياته الأخرى الطويلة، فـ«الدنيا مزرعة الآخرة»[(٢)]، ولا يليق بمن يُعنى بإسعاد ذاته أن يقصر نظره على الدنيا ويغضّ عن الأخرى، فيكون ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾[(٣)].

وليكن ممن سمع ووعى، وعمل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[(٤)].

ولا يسوّفنّ ذلك فيهمل ويفوته التدارك، فيتمنّى حيث لا ينفعه، فلات ساعة مندم، ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[(٥)].

إذن فهي الفرصة المواتية يغتنمها العاقل الكيّس فيسعى جاهدًا لنقل ما يثقله حمله جادًّا في ذلك ما استطاع إليه سبيلًا، مستكثرًا من ذلك ما أمكنه.

---

(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله. بحار أنوار ٤٧/ ٦١.

(٢) عوالي اللئالي ١/ ٢٧.

(٣) سورة القيامة / ٢٠ ـ ٢١.

(٤) سورة الحشر / ١٨.

(٥) سورة الفجر / ٢٣ ـ ٢٤.

و«**الفرصة سريعة الفوت، بطيئة العود**»[١]، وتفويتها غصة[٢].

فربما فاته البريد، وظلّ ينوء بأثقاله وأحماله.

الثانية: الإقراض:

وهو عطية تسترجع، وعارية تسترد، تبذل في اليسر، وتستعاد في أشد حالات العسر.

وكما أزاح المعسر علته بما أسدي إليه من قرض ـ فكذلك هذا الموسر يزيح علته يوم يعود معسرًا، وتشتدّ حاجته لما بذل في يسره.

ومن ثَمّ كان القرض أفضل من الصدقة، لمزيد نفعه دنيًا وآخرة، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[٣].

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[٤].

أجل.. نعم الزاد يوم المعاد الإحسان إلى العباد.

العقبة الكؤود:

(وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُودًا الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقِلِ وَالْمُبْطِئُ

---

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام. مستدرك الوسائل ١٢/ ١٤٢.

(٢) مضمون روايات. مستدرك الوسائل ١٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) سورة التغابن / ١٦ ـ ١٧.

(٤) سورة المزمّل / ٢٠.

عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ):

ولئن كان الطريق طويلًا شاقًّا عسيرًا لا يقطع إلا بشقّ الأنفس وشدة المكابدة ـ فثمّت عقبات كؤود وقناطر صعبة المرتقى لا تُتخطّى وتُتجاوز إلا بغاية المكابدة.

وأحسن المجتازين حالًا من خفّت مؤونته فقوي على اقتحام العقبة مسرعًا في بلوغها والانحدار عنها.

وما أقبح حال المثقل يبطئ به سيره فيشتد بلاؤه ويغمّه عناؤه، وماذا وراء العقبات واقتحام الصعاب؟

إنه موافاة ما عمل وقدّم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، فماذا بوّأ لنفسه من مقعد ومقام؟ «**إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ**»، ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[1].

هذا وقد كانت الفرصة مواتية، والقدرة قائمة، وسبل الإعداد مشرعة.

أمّا وقد وصل الركب إلى مناخه، وحطّ رحله وثقله فقد انفصل عن الدنيا وانقطعت عنه، فلا تدارك ولا عودة، ولا طلب عتبى.

وقد أنبأ الله عزّ وجلّ عن تلكم الأحوال والأهوال، والتفويت والتفريط، والوعد بالإنابة والتدارك، بقوله تعالى:

---

(١) سورة هود / ١٠٥.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(١).

فـ(البرزخ) وإن توسّط بين الآخرة والدنيا إلّا أنه مشهد من مشاهد الآخرة، فثمّت حساب ونحو مجازاة، فهو قنطرة وعقبة وإن أعقبته عقبات كؤود.

وقد أقام المولى ﷻ حجته، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾(٢)، فاحتجّ وأبلغ وأنذر وبشّر ووعد وتوعّد، فقال في كتابه الحكيم: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ * فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾(٣).

أعاننا الله على لقاه، وجعل ساعة لقاه ساعة رضاه، بعفوه ورحمته، وبمحمد وأهل بيته صلى الله عليهم وسلّم.

ألطاف المولى بعباده وسعة رحمته:

(وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ

(١) سورة المؤمنون / ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) سورة الأنعام / ١٤٩.

(٣) سورة البلد / ٨ ـ ٢٠.

أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ المَتَابِ وَبَابَ الاِسْتِعْتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ):

وقد عُني الإمام عليه السلام في هذا المقطع ـ وهو المربِّي الربَّاني ـ ببيان ضرورة تعلّق العبد بالله الربّ.

فالمولى ـ جّل جلاله وعمّت آلاؤه ونعماؤه ـ الكمال المطلق في سعة رحمته، وعموم عطفه ولطفه وفيض غناه وجوده، وإحسانه وإنعامه، لا تنفد خزائنه ولا تزيده كثرة العطاء إلا جودًا وكرمًا.

والعبد مسكين مستكين فقير مطلق لا غنى له عن مولاه، فهو ذو الحاجة والفاقة في كل شأن من شؤونه آخرةً ودنيا.

وقد فتح المولى أبواب رحمته لعباده، وأحبّ قربهم إليه، فرغّبهم في دعائه ومناجاته واستغفاره مما يقترفون، ومسألته فيما يريدون، والتوكّل عليه والتعلّق بجنابه فيما يعزمون.

فأيّ مطمع لراجٍ ومؤمّل فوق هذا؟! وأيّ دعوة أجلّ وأجمع من هذه؟! وأيّ عاقل كله فقر وحاجة تُفاض عليه سوابغ الخير والرحمة، فيحرم نفسه من عطائها؟!

والفصل مترع بصفات المولى الجمالية والكمالية.

فمن مواطن الألطاف والرعاية الربّانية:

١) الدعاء:

وبارعٌ قوله، وبليغٌ كلمه عليه السلام تصديره مسألة الدعاء:

بأن المولى المدعوّ مالك خزائن السماوات والأرض وفي قبضته، فهو الغنيّ المطلق.

ومن عطفه ولطفه ـ وهو الكريم الوهّاب المبتدئ بالإعطاء والإحسان ـ أن أذن لعبده ومولاه بدعائه، ولم يأذن له إلا ليستجيب إلى مسألته ويحقّق طلبته، بل أمره بذلك، ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[1]، وقوله الصدق، فهو لا يخلف وعده، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[2].

وهو الرحمن الرحيم، فليتعرض العبد لرحمة الربّ.

وقد سهّل له أمر إفضائه إليه بحاجته، فلا باب ولا بوّاب، ولا مانع ولا حجاب، ولم يلجئه إلى شافع يتولّى رفع دعائه وبثّ شكواه، بل قبل منه أن

---

(١) سورة غافر / ٦٠.

(٢) سورة النساء / ١٢٢.

يعمد إليه بطلبته واستمطار رحمته، «وبابك مفتوح للسائلين».

تنبيه:

لا منافاة بين (عدم الإلجاء إلى الشفيع) وبين حسن الشفاعة وجميل أثرها، إذ الشفاعة ذاتها لطف وكرم من المولى يعود خيرها للمتشفع برحمة منه ـ كرمت آلاؤه.

فللعبد أن يرفع دعاءه لذات مولاه، وقد يشوبه القصور والتقصير، فيتوسّل لإبلاغه بمن أقامهم ربّه شفعاء عنده وجهاء لديه، وذلك لطف مضاعف ورحمة واسعة.

٢) **التوبة:**

أ) فالله هو الكريم

وهو الغفور الرحيم، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1].

وقد مكّن الراغب فيها ولم يحرمه منها لسوء ما اقترف وقبح ما جنى، بل أغضى عن السيئة بعفوه، وقبل التوبة بكرمه، فأرخى له ـ وهو القادر على معاجلة العقوبة ـ ليفيء، ولم يذلّه بالتعيير، ويوقفْه مقام الهوان، وأسدل على جرمه الستر، ولو شاء لفضحه في الملأ، فهو أهل، لعظيم ما اقترف واجترى.

---

(١) سورة الشورى / ٢٥.

ب) الإنابة:

ولم يشدِّد ـ كرمت ذاته ـ على عبده الآبق في شرعة الإنابة إليه، فيوقّت له أمدًا يعاجله فيه، وإن رغّب في المبادرة وحسّنها، بل هو المقبل على من أعرض عنه ثم آب وأقبل، وتلك أناة الرحمة من القادر القهّار والعزيز الجبّار، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾(١).

والمولى ـ جلّت عظمته ـ عفوٌّ غفّار، ومن عفوه تركه المداقّة في المساءلة والمحاسبة، بل يتغافل، ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾(٢).

وأطمع المذنبين في سعة رحمته، واعتدّ اليأس والقنوط كفرًا وضلالًا لا يليق بجلاله وجماله وكماله.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٣).

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٤).

﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾(٥).

بل أحسن وهو المحسن قديم الإحسان، فتجاوز عمّن خلص نزوعه عن

---

(١) سورة النساء / ١٤٧.

(٢) سورة الشورى / ٣٠.

(٣) سورة يوسف / ٨٧.

(٤) سورة الزمر / ٥٣.

(٥) سورة الأعراف / ١٥٦.

ذنبه، وصدقت توبته، فيغمره إحسانه، فتُمحى تلك السيئة، بل وتُبدّل حسنة، فما أجلّ كرمه وأسبغ نعمه.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

ج) الإفضال:

وقد تجلّى عدله فيما استحقّه المذنب من مؤاخذة، فجازاه على السيئة بمثلها، ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾[2].

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[3].

وكافأه على الحسنة بأضعافها، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾[4].

٣) الإقبال:

وقد مهّد لعباده سبيل رحمته، ففتح لهم باب (المتاب) ليسلكوا إليه من أوسع أبوابه، فلم يغلقه دونهم ولم يوصده في وجوههم.

كما فتح لهم باب (الاستعتاب) ليعتذروا إليه ويطلبوا مرضاته، فتتمّ لهم النعمة بقبول التوبة والإقبال بالرضا.

---

(١) سورة الفرقان / ٧٠.

(٢) سورة يونس / ٢٧.

(٣) سورة الأنعام / ١٦٠.

(٤) سورة الأنعام / ١٦٠.

٤) **المهيمن على الأمر كلّه:**

فالمولى ﷻ محيط بما خلق، عالم بكل شؤونه، خبير بما يصلحه، ولا تخفى عليه خافية، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[(١)].

وهو ـ سبحانه ـ ذو الرحمة والعطف واللطف، وهو عالم السرّ والنجوى، ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[(٢)]، سامع الدعاء، وموطن الأمل ورجاء الشكوى، فعبده منه ـ جلّت نعماؤه ـ بمسمع ومرأى.

ومن سبوغ نعمته، وعموم رحمته لم يجعل بينه وبين عبده حجابًا، ولم يُقِمْ بوّابًا، بل أحبّ لعبده أن يقبل عليه فيصمد إليه في كلّ أموره، وكافة أحواله، فيدعوه ويناجيه ويبثّ إليه همومه، ويبوح بما يعتلج في خاطره، ويسأله كشف كروبه، ويستعين به في كافة شؤونه، صغيرها وكبيرها، حقيرها وخطيرها، فإنه القويّ ذو القوة الجامعة النافذة.

وهو الغنيّ المطلق، وخزائنه لا تنفد مهما أعطى وأغنى، «الباسط بالجودِ يدَه، الذي لا تنقص خزائنه، ولا تزيده كثرة العطاء إلا جودًا وكرمًا، إنه هو العزيز الوهّاب»[(٣)].

وهو ـ سبحانه ـ الواحد الأحد والفرد الصمد، فيض الخير، ونبع الإحسان، لا يقوى على شيء من إفضاله وإنعامه أحد من خلقه، وأنّى

---

(١) سورة الملك / ١٤.

(٢) سورة طه / ٧.

(٣) من دعاء الافتتاح الذي يقرأ كل ليلة في شهر رمضان.

للمخلوق قدرة يسعف بها نفسه، فضلًا عمّن سواه.

فالأعمار والآجال بيده، والصحة والسلامة في قبضته، والأرزاق من جوده وعطائه، فكل خير منه يبدأ وإليه يعود، تبارك ربّنا وتعالى.

تركيز وتأكيد:

(ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ):

افتتح عليه السلام المقطع بقوله: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ**».

وعاد ليكرّر مؤكّدًا حقيقة جليلة تغمرك أيها العبد أملًا مشرقًا ورجاءً حثيثًا، ونعمة كبرى بما أفضل عليك من الإتحاف، فقد سوّغك الطلب بما مكّنك، ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته.

أجل.. فخزائن السماوات والأرض بيده ـ عمّت قدرته ـ ومفاتيح تلكم الخزائن على وفرتها وعظيم غناها وسعتها بيد (العبد).

فما أرباها من نعمة، وما أوسعها من رحمة، وما أجلها من عطية، وما أعمّها من خير!

دور إيمان العبد بقدرة وحكمة الربّ:

فإن من طبع السائل ـ لأسباب وعلل ـ تعجّل الإجابة، ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ

عَجَلٍ﴾[(١)]، ومن قصوره وقصر نظره إلحاحه في استجابة طلبه وتحقيق إربه كما يرى أن في ذلك صلاحه ونجاحه، وهو لا يحيط خبرًا بما هو اللائق والموافق.

فربما تبرّم وعدّه شقاء وسوء حظ ونحس طالع، وربما أساء ظنًّا فاعترض فيجرّه إلى اليأس ويأخذه إلى القنوط، ولو تعقّل وتبصّر لراى أنه الفقير والربّ المسؤول هو الغني، وأنه الجاهل والربّ هو الحكيم الخبير، والرحمن الرحيم، وقد دعاه إلى المسألة وأعطاه مفاتيح الخير.

فإن أجاب سؤله وبلّغه أمله فذاك خير معجّل، وإن أرجأ طلبته فذاك مدّخر له، وخير مؤجّل يوافيه في مواطن أنفع.

وسيّان عند المولى القادر التعجيل والتأجيل، ولكنه برحمته وحكمته يصنع بعبده ما هو أفضل وأوفى وأجمل وأكمل.

وهذا ما شرحه الإمام المربّي الهادي مقرِّرًا هذه الركيزة القويمة في البنود التالية:

١) **عدم القنوط**:

(فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ):

فالقنوط يأس مرير يعصف بصاحبه وينتهي به إلى الخسران وضياع العقل وذهاب الدين.

فقد نهى المولى ﷻ عباده عن القنوط من رحمته واليأس من مغفرته وإن

---

(١) سورة الأنبياء / ٣٧.

عظمت جريرتهم وكثرت ذنوبهم.

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١].

ومن الطريف أن يسبق هذه الآية الكريمة بيان حول الرزق سعة وضيقًا، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

فمجاري الأمور كلها بيد مدبِّرها العليم الحكيم المهيمن، ولكن الإنسان في عجلته وحمقه كما حكى عنه خالقه:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[٣].

ومن الطريف أيضًا أن عُقِّبت هذه الآية بمثل ما سُبقت به الآية السالفة:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٤].

وكذلك كشفَ بيانُ الله عن دخيلة الإنسان وطبعه فيما يبتغيه ويراه صلاحًا له:

---

(١) سورة الزمر / ٥٣.

(٢) سورة الزمر / ٥٢.

(٣) سورة الروم / ٣٦.

(٤) سورة الروم / ٣٧.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾[1].

وقد تناول الإمام عليه السلام في نهجه الشريف جملة من شؤون هذه الحالة المردية وعلاجها، وبثّ ذلك في ثنايا خطبه وحكمه القصار العالية:

فقال عليه السلام:

«**ندعوك حين قنط الأنام، ومُنع الغمام، وهلك السَّوام**[2]...».

وختمها بجميل قوله انتزاعًا من كتاب ربّه[3] ـ عظمت نعماؤه ـ: «فإنك تنزل الغيث من بعدما قنطوا، وتنشر رحمتك، وأنت الوليّ الحميد»[4].

وقال في وفرة من غرر الحكم ودرر الكلم لمن سأله الموعظة:

«لا تكنْ ممنْ... يُعْجَبُ بنفسِهِ إذا عُوفِي، ويَقْنَطُ إِذا ابْتُلِي... إنِ استغنى بَطِرَ وفُتن، وإن افتقرَ قَنِطَ ووَهَن»[5].

وقال عليه السلام: «**عجبتُ لمن يقنط ومعه الاستغفار**»[6].

واعتدّ القنوط من سمات ذوي النفاق، فقال عنهم:

«**وأحذركم أهل النفاق، فإنهم الضالّون المضلون... حسدةُ الرخاء، ومؤكِّدو البلاء، ومقنِّطو الرجاء**»[7].

---

(١) سورة فصلت / ٤٩.

(٢) السَّوام: جمع سائمة وهي البهيمة الراعية من الإبل ونحوها.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾. سورة الشورى / ٢٨.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٥/ ١٢٢.

(٥) نهج البلاغة، حكمة ١٥٠/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

(٦) نهج البلاغة، حكمة ٨٧/ ٤٨٢.

(٧) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٤/ ٣٠٧.

كما اعتدّ البصير حقًّا، والفقيه صدقًا من وصفه:

«الفقيهُ كلُّ الفقيهِ من لم يقنِّطِ الناسَ من رحمةِ الله، ولم يُؤْيِسْهُمْ من رَوحِ الله، ولم يُؤْمِنْهُمْ من مكرِ الله»[1].

٢) **صدق النية**:

(فَإِنَّ العَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ):

فإن للنية دورًا فاعلاً بها تكشفه وتترجمه من صدق الاعتقاد وخالص الرجاء وواقعية الدعاء واستكانة الداعي للمدعو.

ومن ثَمّ ورد حُسن الإلحاح، وتكرار الطلب، والاستمرار وعدم اليأس وإن تأخرت الإجابة.

وربما كان التأخير لضعف النية وتراخيها، فإذا ما حزب الأمر واشتدّ الدعاء ارتفع البلاء وانفرج الكرب.

٣) **حكمة المولى المدبِّر**:

(وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الآمِلِ، وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ وَأُوتِيتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَالمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ وَلَا تَبْقَى لَهُ):

---

(١) نهج البلاغة، حكمة ٩٠/ ٤٨٣.

فهو ﷻ المقدِّر الحكيم، واللطيف الخبير، العليم بحقائق الأمور فيجري ما يقدِّر ويقضي على نظام الحكمة وشرعة المصلحة والنفع العائد بالأوفق، وإن جهل ذلك السائل، فالربّ المسؤول عالم محيط ومهيمن على الأمر كله.

وقد كشف الإمام عليه السلام طرفًا من وجوه الحكم والمصالح لتأجيل السؤل وإرجاء الإجابة:

أ) مضاعفة الأجر:

فالدعاء عبادة مطلوبة، وفي إبطاء الإجابة أو تأخيرها باعث حثيث للطلب الملحّ، ومن فيض عطاء المولى الإثابة على ذلك، وربما كان ذلك أجمل نفعًا من معاجلة الاستجابة.

ب) مضاعفة العطاء:

فيجتمع له بكل إبطاء عطاء، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]، والعطاء الأجزل خير للسائل من نيل معجّل لا يبلغ ذلك مما يرجو ويأمل، فكان الخير في التأخير.

ج) الأوفق الأجدى:

وذو الحاجة المبتلى لقصوره يرى أن ما يسأله هو صلاحه وخلاصه، والمولى لعلمه بصلاح عباده لا يجيبه كما يحب، بل بما هو خير له في عاجله

(١) سورة البقرة / ٢٦١.

وآجله، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[(١)]، وهو الحكيم الرحيم.

د) وربما كان الشقاء:

إذ يطلب في الواقع شرًّا يظنه خيرًا، فلو أُسْعِف بمأموله لكان فيه هلاكه وشقاؤه، وفي أقدس وأجلّ ما يحمله من فكر ومعتقد وعلم وعمل، وذلك هو القصور المردي، والعجلة المدمِّرة، والجهل المزري.

وفي صنع المولى كمال اللطف والحكمة، والعطف والرحمة.

فما أجلّ رحمة الإله بعباده، وتدبير الربّ للمربوب!

تبارك الله وعظمت آلاؤه وعمّت نعماؤه.

هـ) العقل وعلوّ الهمّة:

فليرتق العبد، وليسمُ فكره، وتطهر روحه، وتصفُ نفسه، ويزكُ ضميره، وتعلُ همّته، فتنبعث أمانيه وآماله صاعدة نحو الأفق الأعلى، عارجة إلى الكمال الأسمى والغاية الأرقى.

وهنا تتجلّى الملكات العلمية والتربية الروحية، فينزع المتحلّي بالكمالات لما هو أجدر وأولى وأكمل وأجمل وأعود نفعًا في عاجله وآجله.

وما أروع كلمة الإمام وأجمع! «فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُه».

وجماع ذلك ما يراد به وجه الله عزّ وجلّ والدار الآخرة.

---

(١) سورة الأنعام / ١٠٣.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾(١).

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٢).

ولقد صُدِّر دعاء (مكارم الأخلاق) بأجمل ما يليق أن يتحلّى به العبد فيسأل الكمال به من حضرة الربّ:

«اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وآلِه، وبلِّغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانتهِ بنيَّتي إلى أحسنِ النيَّات، وبعملي إلى أحسنِ الأعمال، اللهمَّ وفِّر بلطفك نيتي، وصحح بما عندك يقيني، واستصلح بقدرتك ما فسد مني، اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وآلِه، واكفني ما يشغلني الاهتمامُ به، واستعملني بما تسألني غدًا عنه، واستفرغ أيامي فيما خلقتني له»(٣).

أجل.. إن المال وكافة متع الحياة هي مما يُسعى إليها ويُدعى المولى لنيلها، ولكنها ليست الغاية ولا الشغل الأهم والمقصد الأولى، ومن ثَمّ فهي عوارض مفارقة، بل وذووها ذاهبون، فلا هي باقية ولا هم باقون.

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾(٤).

---

(١) سورة الشورى / ٢٠.

(٢) سورة القصص / ٦٠.

(٣) الصحيفة السجادية.

(٤) سورة النحل / ٩٦.

أبناء الآخرة:

(وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى الآخِرَةِ):

يغدو الإمام عليه السلام ويروح على تقرير الحقيقة الكبرى وتركيزها ثابتة نابضة وقائمة حية موغلة نافذة، لا تحول ولا تزول.

ألا وهي: **(الآخرة)**.

وماذاك إلا لغلبة الغفلة عنها ممن كان يؤمن بها، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾[1].

فكلّ الهمّ بالدنيا وإعمارها، والسعي الدؤوب والسير الحثيث لتحقيق المآرب والآمال الصاعدة المتوالدة التي لا تنقطع.

ومن شأن (المربِّي الربَّاني) العناية الفائقة بتأكيد محور الخلاص ومدار الصلاح.

فكونوا من أبناء الآخرة:

وهذا ما وقفنا عليه ونقف جليًّا من سرِّ هذا الإلحاح واللهج بذكر الإمام عليه السلام لذلك في مواطن عدة، وربما كانت متقاربة، وليس هو من القول المعاد متجاوزًا الحاجة، بل هي المُلحّة والحكمة القويمة، والإيقاظ الموجّه، والتوجيه الرصين.

---

(١) سورة القيامة / ٢٠ ـ ٢١.

هذا والإمام ربّ الكمال والكلام، يوجز جامعًا، ويفصّل مستفيضًا، ويؤسّس ويؤكّد سديدًا.

فأعره لُبَّك، وأَصِخْ إليه بقلبك في إيجازه المبدع:

«إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ».

فالغاية من الخلق (الآخرة)، فهي دار البقاء ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾، ولم يكن الخلق لـ(الدنيا) إذ هي دار الفناء والموت.

ثم يتوسّع شارحًا حال ساكن الدنيا بأن دنياه (قُلْعَة)، فلا أساس لها، فسرعان ما تنهار ويُقتلع من فيها منها، فهي غير صالحة للاستيطان والاستقرارا، ولا يملك نازلها منزله فيها، بل لا يدري متى يرحل عنه، وما هي إلا بلغة تسدّ الرمق حتى تنفد وتتقضّى، فما هي إلا طريق الآخرة، وهو فيها ساير وعابر.

الصيد الشارد والصائد المارد:

(وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ):

فابن الدنيا يحبها ـ ولا ملامةَ على حبّه لأمّه لو لم تشبها الشوائب ـ ويخلد للبقاء فيها غافلًا عن رقيب راصد، وقريب ناظر، وقادر قاهر، لا تحجزه قوة ولا تمنعه منعة، ولا يُستتر منه بمخبأ يحميه أو شقة موغلة، أو عمار من الخلق

فلا يعرف من بينهم.

كلا فالموت يلاحق صيده يرصده فيقصده موقنًا بأنه لا يفوته ولا يتفلت منه فيفلت.

فلا محالة من اقتناصه وافتراسه مكبَّلًا بالشراك رهن الشباك.

ومن هول ذلكم الغول مباغتته ومفاجأة فتكه لا ينتظر فراغًا وخلوة وانفرادًا، ولا يمهل صائمًا ولا طاعمًا أو نائمًا، ولا يرجى حتى يؤوب حبيب أو يلتقي عاشقان يقضيان وطرًا.

فلا حيلة لدفعه ولا قوّة ولا تدبير لصدّه ومنعه، ولا سبيل ووسيلة لإمهاله، فكل ذلك لا يجدي إذ لا مناص ولا خلاص.

أجل.. السلامة في الاستسلام وعدم الفرار، وتوقّع ملاقاته كل آن، متوفِّرًا على ما يضمن جميل الموافاة، متجنِّبًا كل ما يسيء اللقاء، حذرًا من التفريط والتسويف، مؤمِّلًا زاعمًا تدارك الخلل فيما يستقبل، فإن ذلك مما لا يركن إليه اليقظ الكيِّس، وعائدته الهلاك، ومباءته الخسران والندامة، ولات ساعة مندم.

إحياء أمر الموت وإدامة ذكره:

وطالما لهج الإمام الحكيم المربِّي بذكر (الموت)، ولازال كما كرَّرنا ذكر ذلك عنه عليه السلام.

وما ذلكم إلا لعظيم أمره، وجليل خطره، وأهمية أثره في انضباط سلوك

من يرعاه، واستقامة أعمال من يحياه بلبّه وقلبه، ويملأ جوانحه فتستجيب جوارحه لطاعة من حكم به وقضى، (فالموت حتمٌ في رقاب العباد).

ومن ثَمّ تواتر التكرار المؤكّد والعرض المشدّد، وتنوّعت أساليب البيان والتركيز إحكامًا لهذه القضية المصيرية والخاتمة الحتمية، وتنبيهًا قائمًا لافتًا، وإثارة موصولة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1].

فيستيقظ من نومة الغفلة المطبقة، واسترسال الآمال المطلقة، والتعلق الدنيا العاجلة، ونسيان الآخرة الآجلة.

وقد ركّز الإمامعليه السلام في هذا المقطع على جملة من الشؤون المترابطة مقدمات ونتائج، وقرّر الحقيقة وما تحمله من الصوَر والعبر، وما تمليه من الإعداد والاعتبار.

فأولًا: الدأب على ذكر الموت وما يعقبه:

(يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ):

أ) باتخاذه وِردًا لا يني عن اللهج بترديده، وإدمان ذكره كثيرًا، وليكن ذلك على شاكلة ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾[2]، الذي فُسِّرت حقيقته بأنه «اجتناب المحارم والوقوف عند الشبهات»، وليس هو انطلاقة اللسان بتسبيح الله وتحميده وتمجيده عزّ وجلّ، وإن كان ذلك ذكرًا.

---

(١) سورة ق / ٣٧.

(٢) سورة الأحزاب / ٤١.

فذكر الموت كثيرًا قيامه ماثلًا حاجزًا عمّا حظر الله، باعثًا لمرضاته يوم الوفود عليه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1].

ب) وإن ما بعد الموت لأشد من الموت، فثمّة عالم آخر في البرزخ والحشر، وغريب لم يُشهد من قبل، مفاجئ فيما يُقدَم عليه فيه، مباغت بما يُصنع به ويُسأل عنه، تحيط به الأهاويل.

ثانيًا: الاستعداد قبل الموت:

(حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ):

وإذا كان لا محالة من المصير إليه فالحاجة ملحّة، والضرورة قائمة، بالاستعداد لوروده، واتخاذ وثيق الحيطة للقياه، واستكمال القوة لمواجهته، فإن بغتك فقد كنت على توقّع مستجمع القدرة، فلا يصرعك مغلوبًا مقهورًا لا حول لك ولا طول.

الاغترار بالدنيا وأهليها والغفلة عن مآسيها:

(وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا):

وذلكم هو المحنة الكبرى، والبلية المتفاقمة العظمى، والمهيمنة على السواد الأعظم.

---

(١) سورة الانشقاق / ٦.

فقد غرّهم وأغراهم مَن مالوا ونالوا إليها ومنها، فملكوا وحكموا واقتدروا، وتكبّروا وتجبّروا، وعاثوا في الأرض فسادًا وإفسادًا حتى تمنى ما هم فيه الجاهل، وتلهّف عليها الغافل، كما حكى الله ـ جلّت حكمته ـ عنهم رأيهم ومقالهم:

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ * وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَـٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾.

هذا وقد حذّر قارونَ قومُه وبالغوا في نصحه ووعظه فلم يرعوِ وأسلم نفسه للدنيا مملوكًا، وتبختر مزهوًّا، قائلاً: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

وأنساه ماله وما كسب ربّه مالكه ودنياه، القادر على إفقاره وإفنائه، ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗا﴾.

أما أولئك الذين مالوا حيث مال قارون فقد نبّههم وأرشدهم حكماء إخوانهم، وبصّروهم عواقب أمانيهم، فلم يصرفهم ذلك عمّا يهوون ويأملون، حتى رأوا بأعينهم ما حلّ بساحة من يرجون مماثلته من ضربة قاهرة مدمّرة

قاصمة قاضية، لم تبق ولم تذر، فابتلعته، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

فعادت إلى الفئة حلومهم، وأدركوا قصر نظرهم، وقلة عقولهم، فاتّعظوا وعلموا أن الله مالك الملك قادر الرزق وباسطه، فحمدوه ـ سبحانه ـ بما منّ وأنعم بما حرم، ولولا ذلك لكانوا كقارون من الهالكين.

التبصير بالدنيا وكشف واقعها:

ولقد أفاض الإمامعليه السلام المقال في (الدنيا) مجليًا حقيقتها، عارضًا لألوانها وتلوّنها، مبيّنًا زيفها وإغراءها، ومحذّرًا من الركون إليها.

ونظرة إلى ما ورد في (نهج البلاغة) حول (الدنيا) وشؤونها وشجونها وأشجانها توقف المتأمل على شدة عناية الإمامعليه السلام بالتركيز على خطرها وعظيم بلائها وبلواها والابتلاء بها، فاقرأ (المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة / ٥٥٥ ـ ٥٦٠ مادة (دنو)، مما لو استوفي جمعًا ودراسة لجاء سِفرًا عظيمًا وفكرًا أصيلاً قويمًا يحكي (الدنيا عند علي)، وهوعليه السلام إمام الدين والدنيا، وقد تناولت شطرًا من ذلك في (الأخلاق من نهج البلاغة / ٦٧ ـ ٧٧).

ومَنْ ينظرِ الدنيا بعينٍ بصيرةٍ   يجدْها أغاليطًا وأضغاثَ حالِمِ

فهوعليه السلام المترجم الدقيق والخبير المحيط بسرّها وكافّة أمرها، فأصغِ إليه يقول: «**أنا كابُّ الدنيا لِوَجْهِها، وقادِرُها بقدرِها، وناظِرُها بعينِها**»(١).

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٢٨/ ١٨٦.

ومن ثم لم يفتأ مخبرًا، ومحذّرًا منذرًا، ضاربًا شواهد العبر ومشاهد الاعتبار مما حفلت به أيامها، وقامت عليه سوقها.

ولا تراه ذكر الموت والدنيا إلا وقرن أحدهما بالآخر تنبيهًا من استيلاء الغفلة عن الموت، وتحذيرًا من شدة التعلق بالدنيا.

وبعد..

فلا غرو لو وقفنا على ذلكم الإصرار على المعاودة والتكرار في كثير من الفصول والنصوص رغم قرب التذكير وتتابع التحذير.

وركّز الإمام عليه السلام هنا تحذيره وتبصيره على دعائم ثلاث:

الأولى: إنباء الله:

«فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا»:

فمضافًا إلى ما منح ـ سبحانه ـ الإنسان من عقل يدرك به الخير والشر، وينظر ويعتبر اختلاف الأحوال وتبدّلها، وعدم استقامتها على ميزان، فتراها ـ وكثيرًا ما تراها ـ بيد الأحمق الجاهل والأبله الغافل، يرفل في نعمائها، ويتقلّب في سرّائها، فكذلك ترى العالم العاقل والعبقري الكامل صفر اليدين شقيًّا في بؤسها وضرّائها.

بل ربما تقلّبت على الواحد مقبلة ومدبرة في ضروب شتّى من الشدة والرخاء والبؤس والنعماء.

فقد أنبأ الله عباده عن حقيقتها في محكم كتابه وشريف خطابه:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(١).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٢).

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٤).

وجدير بالتأمل ملاحظة الأساليب اللافتة التعبير والدالة في هذه الآيات ونظائرها الكثر من النفي والإثبات والحصر والتشبيه ونحو ذلك.

الثانية: حديث الدنيا عن واقعها:

(وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا):

فهي تفصح عن حالها ومآلها، فحالها تقلّب وشقاء، ومآلها انقضاء وفناء.

ولئن أسلست قيادها ومكّنت عشاقها منها فسرعان ما تتبدّل وتتنمّر ويُنسى نعيمها وينيخ جحيمها.

ولم يعد وضعها مجهولاً خفيًّا، بل كان ولا يزال معلومًا جليًّا، فتلك

---

(١) سورة العنكبوت / ٦٤.

(٢) سورة آل عمران / ١٨٥.

(٣) سورة الحجر / ٣.

(٤) سورة الحديد / ٢٠.

فتكاتها وضرباتها لمن أخلد إليها، ونعم ـ فيما يزعم ـ آنًا بزخرفها وزبرجها وحقير متاعها.

فخيّبت أمل من أمّلها، وقطعت رجاء من علّق رجاءه عليها، وهدّمت ركن من ركن إليها، فهذه وتيرتها، وعلى ذلك سيرتها، لم تصفُ لشارب ولم تهنأ لطاعم.

الثالثة: اللاهثون:

(فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا، نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ):

ولعلّ الإمام عليه السلام يوحي في عرضه الآتي إلى تقرير حقيقة جديرة بالبحث المتأمّل، ألا وهي:

إن التعلق والعناية بأمر يحكي روح المتعلق وذاته وطباعه واصطباغ مشاعره به.

فذو الكمال يعشق الكمال ويسعى جاهدًا لبلوغه.

وذو النقص يخلد للنقص وينخفض مستميتًا لأجله.

فكلاهما يترجم واقعه، ويجسّد مقاصده، وبذلك تتمايز شخصيتهما كما يتمايز (متعلقهما).

فكلٌّ يتعلّق بما يهوى، ولكلٍّ وجهة هو مولّيها.

فمن هم عشّاق الدنيا المفتونون ببريقها المستميتون في نيلها؟

أجل..

ينعتهم الإمام عليه السلام وينصّ على نزعاتهم:

أ) كلاب عاوية.

ب) سباع ضارية.

ج) من تملّكتهم العزّة.

د) كبار القوم القاهرون[١].

إذن فهم فئات وحشية قد انسلخت من سمات الآدمية الإنسانية، فلا يسمع منها غير النباح والعواء ودوام تعالي الهرير، (شرٌّ أهرّ ذا ناب)[٢]، ولا يرى من فعلها سوى التناحر والصراع والتهارش والنزاع، وعدتها أظفارها وأنيابها.

ودعوى القويِّ كدعوى السباعْ   مـن النـابِ والظِّفْـرِ برهانُهـا

والقوي العزيز بملكه وسلطانه وأعوانه يأتي على من دونه فيستذلّه ويأكل ما تحت يده، والكبير يأخذ به كبره فينفخ غروره فيقهر ويسحق الصغير الذي لا حيلة ولا قوة ولا منعة له.

فهي دنيا الغلبة والتغالب ومضمار التناحر والتكالب والأثرة والاستبداد والهيمنة والاستعباد.

---

(١) لاحظ نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٢/ ٧٤.

(٢) يلاحظ أصل المثل في (لسان العرب) ٥/ ٢٦١.

ويسترسل الإمام عليه السلام مضيفًا في التعريف والتوصيف، مصنّفًا أتباع الدنيا وطلابها، ناصًّا على بواعث عشقهم لها وتعلّقهم بها.

أما الصنفان:

أ) نَعَمٌ مُعَقَّلة[1].

ب) نَعَمٌ مُهْمَلة.

ماذا يعني الوصف بِـ(نَعَمٌ مُعَقَّلة)؟

اختلف الشرّاح في تفسير ذلك.

قال الشيخ الحكيم البحراني:

«وضرب للآخرين مَثَلَ النَّعَم باعتبار غفلتهم عمّا يُراد بهم كالبهائم، ثم قسّم هؤلاء إلى قسمين: مُعَقَّلة ومهملة، واستعار لفظ المُعَقَّلة للذين تمسّكوا بظواهر الشريعة والإمام العادل فقيَّدهم بالدين عن الاسترسال في اتباع الشهوات والانهماك فيها وإن لم يعقلوا أسرار الشريعة، فهم كالنَّعَم التي عَقَّلها راعيها»[2].

وقال السيد النقوي:

«إن الناس في الدنيا على ضربين: أحدهما كالنَّعَمِ المعقَّلة وهم أهل

---

(١) النَّعَم: الإبل.

المُعَقَّلة: مِنْ عَقَل البعير إذا شدَّ وظيفه إلى ذراعه.

والوظيف: مستدقّ الذراع والساق من الخيل والإبل وغيرهما.

(٢) شرح نهج البلاغة، للشيخ البحراني ٥/ ٤٠.

الشرايع، فإن الأحكام الشرعية والنواميس الإلهية بمنزل العقال لهم، حيث إن الأحكام تمنعهم عن الظلم والعدوان وارتكاب المعاصي»[١].

وقال الشيخ مغنية:

«أي أنعام مقيّدة مكبّلة، والمراد بها الضعفاء، كما قال الشيخ محمد عبده، وهم لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلاً إلّا سبيل الاستماتة من أجل تحريرهم وحياتهم، وهل من الضروري لمن يريد الحياة أن يكون دائم الجهاد ضد الطغاة متفرّغًا لحربهم ونضالهم؟»[٢].

أما السيد القبانچي شارح الوصية فقد أجمل القول إجمالاً مكتفيًا بالقول:

«فهي كلها تتصف بصفات حيوانية، إلا أنك تعرف الفرق بين المعقَّلة والمهملة، فالأولى أضيق حرية من الثانية»[٣].

وأما الشارح ابن أبي الحديد فقد ذكر معاني الألفاظ فقط ولم يعرّج على بيان المقام وإن تناول حديثه أمر الدنيا، كما أطنب في ذلك وفي شأن الموت السيد القبانچي.

وبعد فهذه جملة من تفسير الشرّاح لمقولة الإمام عليه السلام.

وإذا كان لي أن أدلي بدلوي في الدلاء ـ وإن كان قصير الرشا متراخي القوى ـ فأقول ـ ومن المولى أستمدّ السداد والرشاد:

---

(١) مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة ١٥/ ١٥٣.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٥١١.

(٣) علي والأسس التربوية / ٥٦٧.

إن الجملتين سيقتا في مساق واحد وهو سمات أهل الدنيا، ومساقهما الذم والانتقاص فهما صنفان وإن تفاوتا انهماكًا وانحطاطًا.

ولا يفيد وصف الأولى: (معقَّلة) مدحًا وثناءً، لا مطلقًا كما قرّره السيد النقوي، ولا مقيَّدًا كما شرحه الشيخ البحراني رحمه الله.

إذ كلا الصنفين موسومان بأنهما (نَعَمٌ)، والنعت بـ(المعقَّلة) لا يضفي عليها مدحًا، فمن البعيد جدًّا أنهم بذلك خرجوا عن أن يكونوا أهل دنيا.

بل المقصود ـ كما أحسب ـ أن الفئة الأولى مُنيت بما يعقلها ويكبح من جماحها لهوان أقعدها وضعف أوهنها فحدّ من طموحها وغلوائها.

ولعلّ فيما أورده من بيان للإمام عليه السلام في موطن آخر سندًا لما أرمي له من قول:

«والناس على أربعة أصناف: منهم لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلالة حدّه[1]، ونضيض وفره[2]، ومنهم المصلت لسيفه، والمعلن بشرّه، والمُجْلِب بخيلِه ورَجِلِه[3]... ومنهم من أبعده عن طلب الملك ضؤولة[4] نفسه، وانقطاع سببه، فقصرته الحال على حاله، فتحلّى باسم القناعة، وتزيّن

---

(١) ضعف سلاحه عن القطع.
(٢) قلة ماله.
(٣) المُجلب: الجامع.
رَجِلِه: جمع راجل وهو الماشي على قدميه.
(٤) حقارة.

بلباس أهل الزهادة، وليس من ذلك في مراح ولا مغدى[(١)]»[(٢)].

فهو لا يقوى على ما يبتغي وتنزع إليه نفسه، فهو مكبّل القوى مغلول اليدين، فقد استكان وأحجم لإقدام من هو أقوى وأمكن، فهذا ما عقله لا لصلاح في نفسه واستقامة في ذاته، ولو أمكنته الفرصة وامتلك ما يصول به ويجول لكان على شاكلة الفئة الأخرى (نَعَم مهملة).

ولعلّ العلاّمة الحكيم البحراني اعتدّ الفئة وقد وصفهم بأنهم تمسّكوا بظواهر الشريعة والإمام العادل فقيّدهم بالدين عن الاسترسال في اتباع الشهوات والانهماك فيها (وإن لم يعقلوا أسرار الشريعة) ـ اعتدّهم من (النَّعَم) لعدم وقوفهم على أسرار الشريعة فهم لذلك من الأنعام، وإن لم ينحدروا في الحضيض والمهوى السحيق، فهم بذلك من أهل الدنيا، ولكنهم على جانب من الدين، فهم ممدوحون لذلك، وكأنه جمع بين مدلولي المفردتين: نَعَمٌ، معقَّلة.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[(٣)].

طباع وأوضاع النَّعَم المهمَلة:

---

(١) المراح: الذهاب في العشي.
المغدى: الذهاب في الصباح.
(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٢/ ٧٤ ـ ٧٥.
(٣) سورة الفرقان / ٤٤.

(قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا، سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ العَمَى وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا):

ويسترسل الإمامعليه السلام في سمات هذا الصنف من أجل الدنيا وصفاتها، ويركّز على سرّ هذا الانفلات وما ينجم عن ذلك من عواقب وخيمة وانحراف في الفكر، وانجراف في مهاوي التردّي وتخبّط في سير الحياة.

وإليك البيان:

ماذا يُرجى ممن انحطّت بهم ملكاتهم العقلية فعادوا بهائم سادرة لا تحمل فكرًا ورويّة حيث أضاعت عقولها، فما حال من لا عقل له؟

أجل.. إنه قد فقد العقل وهو الباعث المحرك نحو العلم والرشاد، وحيث خلا من شرفه وفضله فلا محالة له من التيه وامتطاء المجهول والتخبّط في وادي الضلال، فينحرف من ظلمة وقع فيها لينصرف إلى مثلها أو أشد منها، فهم فيما هم فيه سائرون خابطون كالأنعام الراعية في مساقط الآفات ومنابت البليّات، رخوة الأرض لا تثبت عليها قدم لصعوبة السير فيها.

والسرُّ في ذلك:

أنها تُركت وشأنها، فلم يقم برعايتها راعٍ، ولم يتخيّر لها مرعى فيجنّبها العناء، ويوردها مواطن الماء والكلاء.

وقد جاء في الحكمة:

«ضلَّ من ليس له حكيم يرشده»(١).

العاقبة والمآل:

وحيث استبدّت بهم الدنيا وملكت عليهم أمرهم فهم في قبضتها مأسورون، وبأمرها يصدرون ويوردون.

فماذا هي فاعلة بهم؟

لقد ساقتهم في حندس الظلمات، وحجبت أبصارهم بل وأخذت بها، لئلا يعشوا إلى نور هداية، فتوحّلوا في مستنقع الجهل وتاهوا في مسالك الباطل، حيارى لا يعرفون ماذا يصنعون، وماذا يُراد بهم.

أجل..

إنها أتتهم من حيث يهوون فخدعتهم بنعمتها فأغرقتهم بملذاتها وزينتها، وبما يأمل فيها عشاقها.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾(٢).

فملكت قلوبهم فشغفتهم حبًّا، واستولت على مشاعرهم فاتخذوها ربًّا،

---

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام. الفصول المهمة في معرفة الأئمة ٢/ ٨٥٩.

(٢) سورة آل عمران / ١٤.

فلا غاية إلا هي، ولا نعمة إلا منها، ولا ربّ سواها، فهي منهم أقوى، ونفوذها أمضى، وسلطانها قائم حاكم.

ومن ثم فهي تلعب بهم كما تشاء، وتعبث كما تهوى، فكم رفيع وضعت، وآمال خيّبت، ومطامع أنجحت، وعاثت وعادت لترفع لترفع وتنصب وتخفض مبدّلة كما يحلو لها.

وفي مسيرة الحياة على امتدادها صور ومشاهد ودنيا الشواهد على إقبالها وإدبارها وعجيب تصاريفها.

وكفى بـ(الشيطان) مثل سوء للإغراء والإغواء.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[1].

أما عبيدها العاشقون الهائمون ﴿ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ﴾[2].

لقد استماتوا في نيل الدنيا وبذلوا أشرف ما يُملك وأعزّ موجود من عقل ودين وعمر، ولم يبلغوا ما أمّلوا، وإن حقّقوا بعض أحلامهم، فسرعان ما انفلت من قبضتهم رغم ما تجرّعوا لأجله من غصص، ولإن طال زمن المتعة

(١) سورة إبراهيم / ٢٢.

(٢) سورة الطلاق / ٩.

والنعيم فمن وراء ذلك حساب عسير، فيتجلّى لهم أنهم أتعبوا وأجهدوا أنفسهم لمتاع زائل فكان كل ذلك عبثًا ولعبًا.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١].

وبذلك لعبت الدنيا ولعب أهلها كلٌّ بصاحبه وعلى طريقته وقدرته.

والمغلوب أولاً وآخرًا هو عبد الدنيا، وعلة مغلوبيته قصر فكره وبصره على الدنيا، ناسيًا الحياة الآخرة والنعيم الدائم مما خُلق لأجله ليدخل خالدًا في أبراد السعادة.

ولا تظنَّنَّ ـ ظنًّا مطلقًا ـ بـ(الدنيا) شرًّا، فتلك نظرة قصيرة قاصرة، وإن الحديث الآنف إنما يحكي شأنها العام وطابعها الغالب وصورتها البشعة المذمومة، وأما وجهها الآخر فله حديث آخر كما سبقت الإشارة، وكفى بقول:

«**الدنيا مزرعة الآخرة**»[٢].

بيانًا لاستثمار الأعمار فيما خُلقت لأجله، فتكافأ بما وُعدت:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

(١) سورة الكهف / ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) عوالي اللئالي ١/ ٢٦٧.

ٱلۡعَظِيمُ ﴾[١].

النهاية الحتمية[٢]:

(رُوَيْدًا يُسْفِرُ الظَّلَامُ كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الأَظْعَانُ، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ، وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفًا وَيَقْطَعُ المَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَادِعًا):

ويجمل الإمام عليه السلام حديثه عن الموت والدنيا وأهلها بتقرير الحقيقة التالية:

سرعان ما تنجلي الحقيقة، وتنجاب الغشاوة، وينكشف الستر عن المصير والمآل، «**الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا**»[٣].

فإذا القوافل وردت موردها واستقرّت في غايتها ومستقرّها، متتابعة يبلغ اللاحق السابق، فيلتقون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ * قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾[٤].

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[٥].

---

(١) سورة التوبة / ٧٢.

(٢) آثرت أن يكون هذا المقطع تتمة ونهاية للفصل، لا ابتداء للفصل اللاحق، لتناسبها اختتامًا، وإن أمكن جعلها صدرًا كما قال وصنع بعضهم معاودة في الإلفات والتذكير.

(٣) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام. خصائص الأئمة، للشريف الرضي / ١١٢.

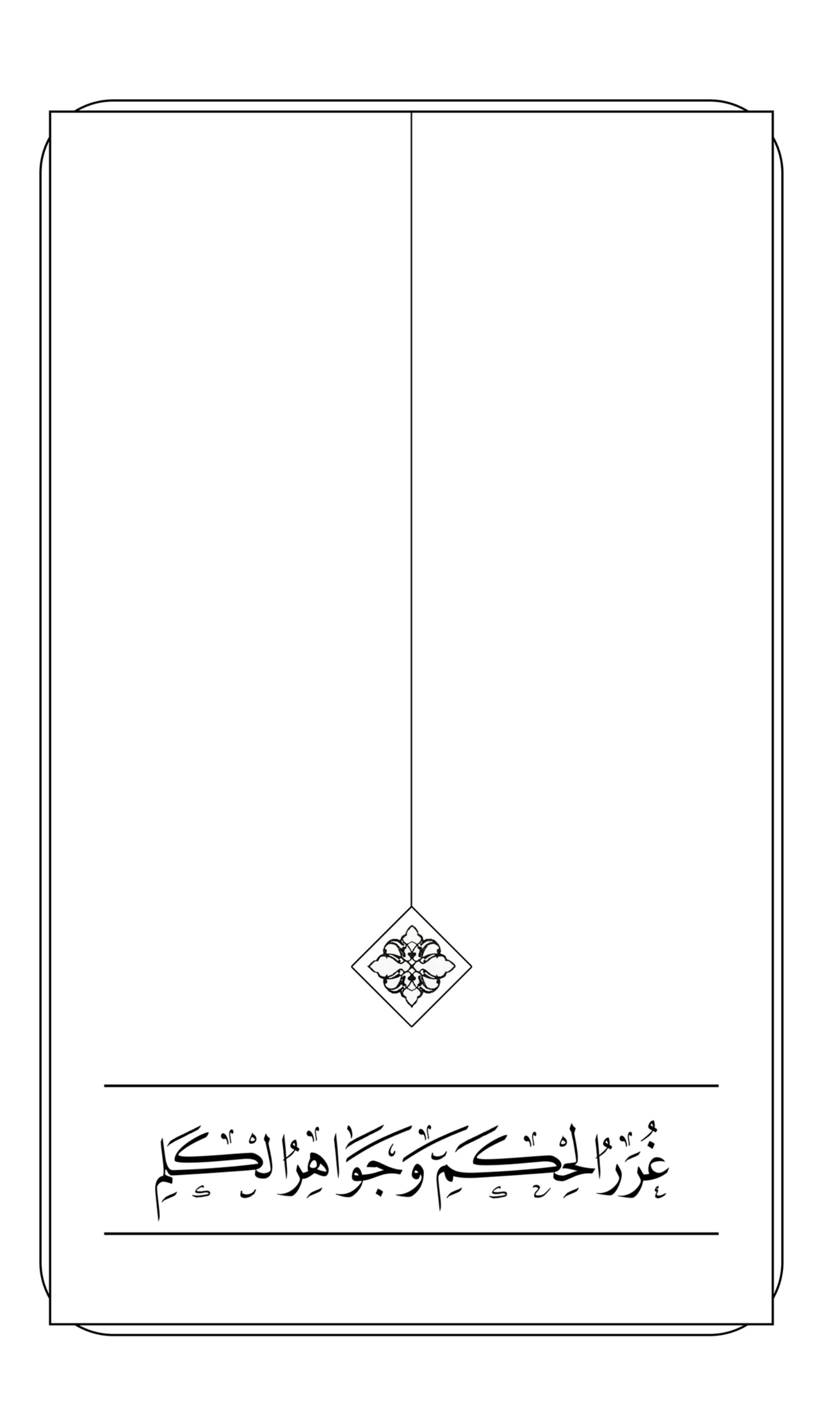
(٤) سورة الواقعة / ٤٧ ـ ٥٠.

(٥) سورة المرسلات / ٣٨.

فكل من كان على هذه البسيطة مشمول: «إن الليلَ والنهارَ يعملان فيك»[1].

ومن عملهما السير الحديث مبتدئًا من يوم الولادة، فهما المطية المغذّة تنقل من عليها شاء أم أبى، واقفًا أو نائمًا أو قاعدًا مستريحًا وادعًا، لا تلوي على شيء حتى تبلغ بظعينتها مأواها ومستقرّها.

(١) عيون الحكم والمواعظ / ١٤٤.


غُرَرُ الحِكَمِ وَجَواهِرُ الكَلِم

ويتحفنا الإمام عليه السلام بعقد فريد من نفائس الدرر وكنوز اللئالئ الآسرة للعقول، والآخذة بمجاميع القلوب، والمهيمنة على المشاعر، والباعثة الروح لتحلّق في سماء الكمال وآفاق الجلال.

نضّد الإمام عقده الفريد بجواهر باهرة تشعُّ كل حبة منه نورًا، وتنشر معرفة، وتتلألأ حكمة، وتتّقد خلقًا كريمًا، وتتوهّج بهاء وحسنًا وجمالاً في آفاق من أشرقت على عقله، وأحيت روحه، ونفذت إلى سويداء قلبه، وغشت شعوره ومشاعره وجوانحه وجوارحه.

فإلى غوالي اللئالي:

الأولى: الأمل:

(وَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ):

وقد سبق: أن لا حياة بلا أمل، فهو قوام وروح وباعث العمل، «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا»[1].

وفي ذلك يتمثّل الأمل الإيجابي.

---

(١) عن الحسن المجتبى عليه السلام. مستدرك الوسائل ١٣/ ٥٨.

ولكن الأمل يمتدّ فلا يقف عند حد، ولا يستريح إلى مدى، ففي كل آن يتجدّد، فيبقى المرء مادام حيًّا يفرّخ آمالاً[١]، ويعيش أحلامًا، غير مستقر على حال، وغير راض عن وضع، متطلّعًا لكل ثروة ومقام، نهمًا في امتلاك كل شيء، غافلاً عن مقاييس الحق ونواميس العدل، جاهلاً أو متجاهلاً قدراته، وضوابط التقدير والتدبير، راغبًا في تسخير كل ما يؤمّل ليستأثر به في قبضته.

وما هو على هذه الشاكلة فهو الأمل السلبي، والبلاء المبرم، والعناء الدائم، والشقاء القائم، والاسترسال المردي، وليس لهذا الطامح إلا النكد ومرارة الحرمان فيما يصبو إليه ويؤمّله ويرتجيه.

إذن ثمّت موازنة دقيقة بين شأن الأملين.

ولاستجلاء عمق دور الأمل بشقّيه وفاعليته وكشفه عن دخائل المؤمّلين ـ نستعرض جملة مما جلاّ بها الإمام عليه السلام وجه الحقيقة:

«ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله، ولم يضرره أجله، ومن قصّر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله، وضرّه أجله... وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى، وطول الأمل، فتزوّدوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غدًا»[٢].

---

(١) كما جاء في حكمته عليه السلام: **«الدهر يُخْلِقُ الأبدان، ويجدِّدُ الآمال»**. نهج البلاغة، حكمة رقم ٧٢/ ٤٨٠.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٨/ ٧١ ـ ٧٢.

ووازن بين العمل والأجل والأمل في بيانه ميزة التقوى والمتقين:

«واستقربوا الأجل، فبادروا العمل، وكذبوا الأمل، فلاحظوا الأجل»[١].

«من أطال الأجل أساء العمل»[٢].

كما بيّن أن من عبر الدنيا:

«ومن عبرها أن المرء يشرف على أمله فيقتطعه حضور أجله، فلا أمل يدرك، ولا مؤمّل يُترك»[٣].

وقال عليه السلام:

«لو رأى العبد الأجل ومصيره لأبغض الأمل وغروره»[٤].

وقرّر السلبية القاضية لطول الأمل:

«وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[٥].

«فأزمعوا ـ عباد الله ـ الرحيل عن هذه الدار، المقدور على أهلها الزوال، ولا يغلبنّكم فيها الأمل، ولا يطولنّ عليكم فيها الأمد»[٦].

«فاتقى عبدٌ ربَّه، نصح نفسه، وقدّم توبته، وغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكّل به»[٧].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٤/ ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٦/ ٤٧٥.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٤/ ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٤) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٣٤/ ٥٣٤.

(٥) نهج البلاغة، خطبة رقم ٤٢/ ٨٣ ـ ٨٤.

(٦) نهج البلاغة، خطبة رقم ٥٢/ ٨٩.

(٧) نهج البلاغة، خطبة رقم ٤٢/ ٨٣ ـ ٨٤.

واعتدّه قوام الزهادة:

«**أيها الناس، الزهادةُ قصر الأمل**»[١].

كما اعتبر من سيئاته:

«**وأعلم أن الأمل يسهي العقل، وينسي الذكر، فأكذبوا الأمل فإنه غرور، وصاحبه مغرور**»[٢].

وأنه من عوامل التسويف:

«**لا تكنْ ممن يرجو الآخرةَ بغيرِ العمل، ويُرَجِّي التوبةَ بطولِ الأمل**»[٣].

وأحال على ما كان عليه عريضو الآمال في طرفي أيامهم:

«**وقد رأيتَ من كان قبلك ممن جمع المال وحذر الإقلال، وأمن العواقب ـ طول أمل، واستبعاد أجل ـ كيف نزل به الموت، فأزعجه عن موطنه، وأخذه من مأمنه... أما رأيتم الذين يأملون بعيدًا كيف أصبحت بيوتهم قبورًا...**»[٤].

وفي مقابلهم المتحلون بالتقوى:

«**تراه قريبًا أملُه**»[٥].

وبعد..

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨١/ ١٠٦.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨٦/ ١١٨.

(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٥٠/ ٤٩٧.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٣٢/ ١٩٠.

(٥) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٣/ ٣٠٥.

فهذا بيان لأبعاد الأمل، ومناحي خطره، وفاجع ضرره، وإيقاف على بؤره منبع الشقاء مناداحة البلاء.

كما أنها تفسير وتفصيل لما أجمله قرآن الله الحكيم:

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾[1].

وعلي عليه السلام ينتزع فكره وكلمه من هدي الله وكلمه.

الثانية: الأجل:

(وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ):

فالحياة لا تبقى، والموت حتم، فلا بد لها من نهاية وأمد مضروب، قدّره من خلق الموت والحياة، ولا شأن لمن يجري عليه الموت أن يسابقه فيتجاوزه، بل ربما باغته إبّان قوّته وسلطانه (فالموتُ يأتي بغتةً).

وتلكم حكمة الله البالغة، وقدرته القاهرة، فلا حول ولا طول للعاجز القاصر أن يُنْسَأَ آنًا في أجله، وإنما هو أمر واهب الحياة، فهو القابض الباسط والمهيمن على الأمر كله.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾[2].

(١) سورة الحجر / ٣.

(٢) سورة الحجر / ٥.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[١].

وتلكم هي الحقيقة الراهنة، والسنة القائمة، (فهذا سبيلٌ كلُّنا فيه سائرُ).

وصدق الله وقوله الحق:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[٢].

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٣].

الثالثة: الطلب وإجمال المكسب:

(فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ):

فالعمر وإن طال فهو قصير، والآمال طويلة عريضة، والنفس شرهة لا تقنع، فإذا استرسل المرء في تحقيق ما يصبو إليه فقد ركب المحذور، واستباح الحرمات، وأقلق نفسه، وأجهد بدنه، وآثر ما يرديه على ما ينجيه، وفقد جرّاء ذلك خيرًا كثيرًا، بل والخير كلّه.

والحق أنها موازنة دقيقة:

فالكسل وهن وتقصير، والاستماتة عناء وشقاء، والسعي الجميل عقل وقناعة، وغنى وكفاية، واستقرار نفس، وانضباط خُلق وسلوك، واستقامة حياة.

---

(١) سورة النحل / ٦١.

(٢) سورة الرحمن / ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) سورة القصص / ٨٨.

والاعتبار شاهد صدق:

فمن ينظر طرائق الأرزاق، وسعي الحثيث والبطيء يجد عجبًا، فربما خاب السعي وضلّت الحيلة وإن كانت محكمة، فباءت الصفقة بالخسران، والتجارة بالبوار، فلم يُسعف بما يرجو، بل ذهب رأس المال وأفلت فلم يسلم لصاحبه، ولم ينفعه كدّه وجدّه.

وربما طلب الرزق صاحبه فوافاه من غير بلاء وعناء، وقد يجمل الطلب فينال ما أمّل، وأكثر مما رغب.

الطلب والرزق:

(فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ، وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ):

الحَرَب: سلب المال.

وجاء في الحكم والأشعار شواهد الاعتبار:

«رُبَّ طمعٍ أدنى إلى عطب».

واليأسُ مما فاتَ يعقبُ راحةً ... ولربَّ مطمعةٍ تعود ذباحا

وقال ابن عبدل:

قد يُرزقُ الخافضُ المقيمُ وما ... شدّ بعَنْسٍ[1] رحلاً ولا قتبا

ويُحرم الرزقَ ذو المطيةِ والرحلِ ... مَنْ لا يزالُ مغتربا

---

(١) العَنْسُ: الناقة القوية، شبهت بالصخرة لصلابتها.

وقال الآخر:

وليس رزقُ الفتى مِنْ فضلِ حِيْلَتِهِ ... لكــنْ حظـوظٌ بـأرزاقٍ وأقســامِ
كالصيدِ يُحْرَمُهُ الرامي المجيدُ وقد ... يرمي فيحرِزُهُ مَنْ ليس بالرامي[1]

وبعد..

فحديث الرزق بسطًا وقبضًا وسعيًا ونيلاً وحرمانًا واسع الأطراف متشعب المناحي.

وقد تناوله الذكر الحكيم والقرآن الكريم، وعلى نهجه جاءت الأحاديث الشريفة، فأوضحا أمره وحلّلا وعلّلا شؤونه وشجونه، وقرّرا سبله الآمنة، وعوامل نمائه وتغيره، ومصارفه، بما يشكّل فكرًا ونظامًا وتربية وهديًا.

والأمر الجامع:

إن المولى ـ جلّت حكمته ـ هو الرزّاق المدبّر، يقبض ويبسط، ويقدّر كما تقتضيه الحكمة وإن جهلها العبد المخلوق المحروم والمرزوق.

وعلى العبد ـ وبمقتضى الإيمان والحكمة ـ السعي في طريق غير ذي عوج، متحلّيًا بالتسليم والصبر وحسن التدبير، والتماس مواطن الحلال، واستمطار الخير والبركة ممن بيده الأرزاق ومقاليدها، فإنه المهيمن على الأمر كله، وهو الربّ العليم الحكيم العدل، الرحمن الرحيم، وهو على كل شيء قدير.

---

(١) الأبيات نقلاً عن (بهج الصباغة) ٨/ ٢٩٣.

الرابعة: صونُ النفس عن الدنايا إكرامُها:

(وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضًا):

والنفس إذا استرسلت لبلوغ مناها وإشباع هواها فلا يفي بذلك الدنيا بما حوت، وإذا كان همها تحقيق رغابها فهي غير آبهة ولا مكترثة بما يحط من قدرها ويهوي بها إلى قعر الحضيض فيوحلها ويدنسها، وساء ذلك عملاً وبئس به بدلاً، فتعود (النفس) وهي أجلّ ما يُملك فداء مهينًا لحقير مهين لا يملك، وإن اتفق امتلاكه فسرعان ما يذهب ويضمحل تلك التجارة البائرة والخسران المبين والسراب الخادع.

الخامسة: العبودية لله حرية حقيقية:

(وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا):

والخلق وإن تفاوتوا في ملكاتهم وتمايزوا في مقاماتهم واختلفوا في طباعهم وأوضاعهم فكلٌّ يحتاج إلى الآخر، وذلك لا يعني أن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا ولا يقضي أن يعتَدَّ ذو السلطان رعيته عبيدًا، فذو القدرة وإن جرت على يديه نعمة لأحد فهو ممن تجري عليه نعمة غيره فيما يتولاه من إصلاح أمره.

أجل.. إن الله ﷻ هو المولى المطلق والمَلِك والمالك الحق والمعبود الصدق، فهو سبحانه وحده لا شريك له، الذي يُصمد إليه، مالك الأمر كله القيّوم المدبّر المحيي المميت القابض الباسط، وما سواه ومن سواه فقير عاجز لا حول

له ولا طول إلا ما يعطيه مولاه ويمكنه منه إنعامًا وإحسانًا وابتلاءًا وامتحانًا، وما يستتبعه من ثناء وامتنان ممن نالهم برّه ومعروفه فالله به الأولى، فهو المنّان وقديم الإحسان.

والحق أن هذه الحكمة العالية: «لا تكن عبدَ غيرِك وقد جعلك اللهُ حرًّا» مكتنز الحقائق ومعدن الواقع ومنجم الخير المطلق، وقوام الإنسان في كافة شؤونه اعتقادًا وفكرًا وفقهًا وسلوكًا وحياة إنسانية.

فلا يتخذ من هواه إلهًا ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾(١).

بل يخلص كاملاً لربه فلا يشرك به أحدًا ولا يقرن به أربابًا، وإن جرت عليه نعمة من أحد فالله وحده هو المنعم الحق، فعليه توكله وإليه انقطاع أمره يرجو ثوابه ويخشى عقابه، وهو مدبّره في كل شأنه، خالقه ورازقه وإليه المآب، وبذلك عزّه وفخره وكرامته ونزاهته عن الشرك وتلكم هي العبودية الخالصة والحرية الواقعية الصادقة، ولا تتحقق إلا بالتوجه الحق إلى جلال الله وكماله وجماله ونبذ الركون إلى ما سواه: الدنيا وما فيها ومن عليها، ولينظر المتأمل إلى سر هذه الآية الشريفة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٢).

والآية قبلها: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

فمكامن الشرك جمة ونوازعها خفيّة تنفذ إلى الجوانح بأشد الحيل وأخبث

---

(١) سورة الفرقان / ٤٣.

(٢) سورة يوسف / ١٠٦.

(٣) سورة يوسف / ١٠٣.

السبل حتى تأتي على عقل صاحبها وقلبه وروحه وبدنه وتجري في وجوده وتهدم كيانه الإيماني كما يجري نَفَسُه ودمُه فيه.

ومن ثَمَّ عمّ بلاؤها، واستشرى داؤها فعظمت محنتها على الكافّة إلا من عصم الله وسدّد وأرشد.

ولعلّ بؤرتها ومصدر خبثها: (الهوى)

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(١).

ولقد أكّد القرآن العظيم هذه المقارنة والمقابلة بين سر الإيمان والهدى وعلة الضلالة والردى:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(٢).

وبعد..

فإن الحرية الحقّة وهي أجلّ إكرام وأعظم إنعام من المولى للإنسان تتمثّل في العبودية الخالصة لذي القدس والعزة والجلال.

وإن العبودية لسواه تمثّل الذلّة الحقيرة والهوان، فإذا ما طمح المرأ إلى الارتفاع من الحضيض والارتقاء إلى معارج الكمال ومراقي العز وتسنم ذرى

---

(١) سورة الفرقان / ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) سورة النازعات / ٣٧ ـ ٤١.

الشرف والحرية ـ فلينبذ كل ما سوى الله من هوى ومال وجاه ودنيا وسعي إلى تعلق بشيء من ذلك بل إلى الله ومن الله فلا يشرك بعبادة ربه أحدًا.

السادسة: الخير والشرّ:

(وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ):

فلما كان الخير مبتغى وغاية يبذل الجهد لنيله وتحقيقه فاللائق أن تكون مقدماته على نسقه وشاكلته.

والشر مباين له ولا ينبغي سلوكه كما لا ينبغي قصده ونيله فهو المرذول غاية وطريقًا وهو ينافي الرغبة في الخير والرغبة عن الشر.

السابعة: اليسر والعسر:

(وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ):

فاليسر دِعة وسهولة وطمأنينة، والعسر ركوب الصعاب وخوض المشاق واقتحام العناء وتلكم منغصات الحياة وتجرع المرارة وذلك مما لا يحسن بالعاقل ارتكابه والولوج في بلائه.

وأماني الحياة الدنيا لا تنفك ـ إذا ولعت النفسُ بنيلها ـ من إجهاد بدن وضياع زمن وهدر مكرمات العزة وإجمال الطلب وصون الوجه والقناعة وحسن التوكل ووثوق الاعتماد على جميل التقدير والتدبير من مالك الأمر كله والمهيمن عليه، فأي يسر ينال بكل هذا العسر؟!

الثامنة: الطمع يورد المهالك:

(وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الهَلَكَةِ):

وهو من شعب حب الدنيا فتشرئب النفس إلى حيازة كل شيء والاستئثار به فتغذ السير لاهثة موجفة[١]، فتمتطي مطايا الطمع مسرعة لتقطع الوعر والحزون لا تلوي على شيء ولا يوقفها حد ولا حاجز، لتجمع ما أمّلت فإذا بها وبعد كدها ونصبها تقع ضحية سعيها وقد أوردت نفسها المهالك فلا هي استراحت من طويل عناء ولا هي حقّقت ما رجت وأمّلت وقد جنت على نفسها فخسرت بذلك دنياها التي شقيت لأجلها وفقدت إيمانها وهو قوام وجودها وعزها.

وقد جاء في شريف الأحاديث ما يشرح أبعاد ذلك.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر**»[٢]، وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**بئس العبد عبد له طمع يقوده وبئس العبد عبد له رغبة تذله**»[٣]، **وعن الصادق عليه السلام وقد قيل له: ما الذي يثبت الإيمان في العبد؟ قال: «الورع والذي يخرجه الطمع»**[٤].

وفي حكم الإمام عليه السلام في نهج البلاغة:

---

(١) الإيجاف: الإسراع.

(٢) نهج السعادة في شرح نهج البلاغة ١٥/ ١٦٧.

(٣) نهج السعادة في شرح نهج البلاغة ١٥/ ١٦٧.

(٤) نهج السعادة في شرح نهج البلاغة ١٥/ ١٦٧.

«أزرى بنفسه من استشعر الطمع»[١].

«فإن سنح له الرجاء ذلّه الطمع وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص»[٢].

«الطمع رقٌّ مؤبَّد»[٣].

«إن الطمع مورد غير مصدر وضامن غير وفي»[٤].

وللمزيد من الوقوف على كلمه الجامع وهديه الناجع تلاحظ مادة (طمع) من المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة / ٨٣٦ ـ ٨٣٧.

التاسعة: الاعتماد على الله وحده:

(وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ):

وتتبعنا الإمام عليه السلام في مناهج هديه فألفيناه لهجًا بإسراج مصباح الهداية ليشرق نور الحق فتستضيء به العقول وتطمئن له القلوب وينفذ في آفاق النفوس فتطوي مراحل سيرها آمنة مطمئنة بربّها ومدبّرها واثقة مستقرة بخالقها ورازقها محيطًا بأمرها جهرها ونجواها وصلاحها في دنياها وأخراها.

وقد قرّر الإمام عليه السلام في هذه الحكمة الحياتية حقائق دقيقة:

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢/ ٤٦٩.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٠٨/ ٤٨٧.

(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٨٠/ ٥٠١.

(٤) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٧٥/ ٥٢٤.

١ـ التضرع إلى الله وحده ﷻ ووثوق التوكل عليه سبحانه فهو المولى المصمود إليه وليّ كل نعمة وصاحب كل حسنة.

٢ـ عدم الاغترار بـ(ذي النعمة) وإن عظمت في نفس الناظر نعمته فهي من عطاء مولاه وربما كانت مؤقتة وابتلاء وفتنة.

٣ـ إن رزق العبد لا يفوته وما قُسم له لا يعدوه وإن الاستماتة في الطلب والإيغال في المكسب لا يجديه نفعًا ما لم يكن مقدرًا مكتوبًا.

٤ـ إن ما يصنعه اللطيف الخبير بعبده صلاح وخير وحسن تدبير وجميل تقدير قليله وكثيره، فهو برعاية الخالق الرازق واليسير منه عظيم وكريم، بما يستبطنه من مصدره من البركة والخير والنفع وهو ما يفقده عطاء المخلوقين المرزوقين وإن جلّ وكثر.

٥ـ إن الوفير من عطاء العباد هو من فيض عطاء رب العباد، فليتعلقوا بجنابه وليطرقوا بابه، فإنه جلت نعماؤه الخير كله ومنه الخير كله لا منعم سواه ولا معطي غيره في كافة الطلبات وعامة الحاجات والرغبات.

العاشرة: الصمت والمنطق:

(وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ):

الفرط: القصور عن إفادة الغرض.

وحديث الموازنة والمفاضلة بين الكلام والسكوت طويل عرضت له فيما

سبق وفيها كتبت[١].

احفـظ لسـانَكَ لا تقـولُ فتُبـتلَى　　　إن الـــبلاءَ موكَّـــلٌ بـــالمنطقِ

وهما من أهم وأشد ما ابتلى به ابن آدم ومن أعظم جوارحه خطرًا.

وهذه القطعة الواحدة المفردة محبوسة تطبق عليها الشفتان وصاحبها في قلق وفكره في اضطراب وهي غير مستقرة في محبسها مُلِحَّة في الانطلاق والانفلات، ومن ثم نصّت التربية الهادية الهادفة إلى التروّي والفكر أولاً، فإن كان مساغ للقول وإلا فالصمت، «**الكلام في وثاقك ما لم تتكلم به فإذا تكلمت به صرت في وثاقه فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك ووَرِقَك فربّ كلمة سلبت نعمة وجلبت نقمة**»[٢].

والإمام أمير الكلامعليه السلام في هديه النيّر يقرّر: أن الحكمة تقضي بـ(الصمت)، فإن لم يقع الصمت موقعه فيمكن تداركه وتلافيه بالبيان وحسن الاعتذار، اما المبادرة بـ(النطق) فربما كانت (مضى السهم بما فيه)، فلا يسع القائل ردّ مقالته وتدارك خللها وخطرها وما تجرّ من هنات وويلات، إذن فالصمت أحجى والأناة أولى.

الحادية عشرة: حفظ ما يصان:

(وَحِفْظُ مَا فِي الوِعَاءِ بِشَدِّ الوِكَاءِ):

---

(١) الأخلاق من نهج البلاغة / ٢١٢ ـ ٢٢٦.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٨١/ ٥٤٣.

وذلك شأن ما يراد بقاؤه فيودع في مأمنه وحرزه وليس ذلك كافيًا وحده ما لم يرع حق رعايته من إحكام إغلاقه ليأمن انسيابه وانفلاته، وليس ذلك منحصرًا بالمال ولا باللسان بل هي الحكمة السارية في كل عزيز مصون.

الثانية عشرة: الضبط وعدم الاتكال:

(وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ، وَمَرَارَةُ اليَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ):

أ) ويمثل ذلك القناعة والرضا بما قسم له المولى وقدّر وقضى، وهو عنوان (عزّة النفس) وإكرامها عن إراقة ماء الوجه ومدّ يد المذلة وإن أعطي، (بل ولو كان العطاء مأمولاً)، فكيف به إن حرم.

ب) وإن دعت حاجة تورث مرارة العيش فالصبر عليها أحجى، فهي أحلى من التماس ما في أيدي الناس وأمرى، لما فيه من رذيلة المهانة، وإن كان طعم اليأس مرًّا فإنه ألذّ وأحلى من سؤال الأراذل، بل وحتى من سؤال الأفاضل، وقد جاءت الأحاديث الشريفة والحكم والأمثال وغرر الأشعار في مقت هذه الخلة، ومما قيل:

«دعا حذيفة ابنه عند موته فقال له: أظهر اليأس مما في أيدي الناس فإن فيه الغنى وإياك وطلب الحاجات إلى الناس فإنه فقر حاضر».

وقال أعرابي لرجل مطله في حاجته: «إن مثل الظفر بالحاجة تعجل اليأس فيها إذا عسر قضاؤها وإن الطلب وإن قل أعظم قدرًا من الحاجة وإن عظمت».

ومن الشعر:

وتركـك مطلـب الحاجـات عـز ... ومطلبهـا يـذل عـرى الرقـاب

لئن طبت نفسًا عن ثنـائي فـإنني ... لأطيب نفسا عن نداك على عـسري[1]

وقال الآخر:

أظنـك أطغـاك الغنـى فنيسـتني ... ونفسك والدنيا الدنية قـد تـنسي

فإنَّ كنت تعلو عند نفسك بالغنى ... فإني سيعليني عليك غنى نفسي[2]

الثالثة عشرة: القلة والنزاهة:

(وَالْحِرْفَةُ مَعَ العِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الغِنَى مَعَ الفُجُورِ):

وقد فسرت (الحرفة) بمعنيين:

الأول: إنها من المحارفة وتعني ضيق الرزق وقلة المال.

قال الشيخ مغنية: «المراد بالحرفة هنا الحرمان أو الضيق في الرزق»[3].

«العسر مع النزاهة والإباء خير من اليسر مع الحرام والخساسة»[4].

ونحو ذلك شرحها غيره.

---

(١) الحكمتان والبيتان: بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ٨/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٢) الوافي بالوفيات ٢٣/ ١٣٣.

(٣) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٥١٣.

(٤) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٥١٦.

وقال السيد النقوي: «المراد بالحرفة مطلقها لا حرفة خاصة كالتجارة والزراعة والصناعة... والمراد بالعفة عدم تجاوز الإنسان في حرفته عن سبيل الشرع والعقل، من الغش والخيانة وعدم الإنصاف وأمثال ذلك مما يوجب خروجها عن العفة»[١]. ويلتقي الرأيان في لزوم الاتصاف بالعفة وإن كان قد قدر عليه رزقه ويقبح منه الفجور وإن استتبع ثراء، وسيان في ذلك ممتهن الحرفة والمحارف.

الرابعة عشرة: السر وكتمانه:

(وَالمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ):

فقد تفلت من المرء كلمة يود أن لم يقلها، وربّ كلمة تقول لصاحبها: (دعني)، فلا يجب أن تروى عنه وتذاع وقد يطلع على خطير من الأمر لا يليق أن يشاع وقد يستودع سرًّا وثوقًا بحفظه وعدم إفشائه، بل وربما كان من أسرار الاعتقاد التي يجب أن تصان عن الكافة أو عن من لا يطيق احتمالها، إلى شؤون جمّة تعرض للفرد والجماعات في تصاريف حياتهم سلمًا وحربًا وقوة وضعفًا وعلمًا وجهلاً، وقانون الحكمة الدقيق يقضي بالنظر الثاقب لصون ما يجب ستره وكشفه لأهله وفي محله.

والإمامعليه السلام يركّز هنا على رعاية الفرد لسرّه وحياطته لأمره، فهو المعني أولاً وبالذات بسر نفسه وصونه إياه صونه لملكاته ودينه وكشفه كشف عن

(١) مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة ١٥/ ١٧٢.

ضعفه وضعفها وغلبة قوى أخرى عليه وعليها، فسرّه في وثاقه وقبضته فإن أفشاه فعليه تبعته ويناله مكروهه.

وحديث السر سائر ذائع في الروايات والآثار والحكم والأشعار، فمن ذلك:

قال الصادق عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**من كتم سره كانت الخيرة بيده، وأيما حديث جاوز اثنين فقد فشا**».

وعنه عليه السلام: «**لا تطلع صديقك من سرّك إلا على ما لو أطلعت عليه غيرك لم يضرك، فإن الصديق قد يكون عدوًّا يومًا ما**».

وقال المهلب: «أدنى أخلاق الشريف كتمانه السر وأعلى أخلاقه نسيانه ما أسر إليه.

وقال:

ولها سرائر في الضمير طويتها   نسي الضمير بأنها في طيّه

وقال الآخر:

إذا المرء أفشى سره بلسانه   ولام عليه غيره فهو أحمق

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه   فصدر الذي يستودع السر أضيق

قال حكيم:

«**قلوب الأحرار قبور الأسرار**»[1].

---

(١) نقلت كل ذلك من (مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة) ١٥/ ١٧٢ ـ ١٧٤.

وليت كل القلوب قبورًا بل إن كثيرًا لا تطيق حبسها ولا تستريح إلا ببثها.

ولا أكتم الأسرار لكن أنمّها ... ولا أدع الأسرار تغلي في قلبي
وإن قليل العقل من بات ليلة ... تقلبه الأسرار جنبًا إلى جنب[1]

هذا وقد مضى شطر من ذلك فيما سلف.

الخامسة عشرة: التبصر قبل العمل ومن الله التوفيق:

(وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ):

ولخوض غمار الحياة لا بد من البصيرة وحسن التدبير قبل الولوج فإن وفق المرء في مسعاه فذاك وإن خاب فليس عليه من لائمة.

على المرء أن يسعى لإصلاح شأنه ... وليس عليه أن يكون موفّقا

وقد قال الحكيم الرباني: «تذل الأمور للمقادير حتى يكون الحتف في التدبير»[2].

ومن البلاء: أن يكد الرجل ويجاهد ويكابد فيؤول كدحه إلى الإضرار بنفسه فكأنه ساع لشقائه وحتفه بظلفه.

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

أجل إن الإخلاص والانقطاع المطلق إلى المولى ﷻ والتماس عوامل

---

(١) بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ٨/ ٣٠١.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٦/ ٤٧١.

التوفيق خير معين لنيل المقاصد وإنجاح المطالب وكفاية المهمات ودفع البليات.

السادسة عشرة: إكثار القول يجر إلى الهذيان:

(مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ):

وتلك بلية الإنسان ومحنة اللسان وهو لا يطيق احتباسًا، مغرم بالانفلات والانطلاق والفضول والانزلاق، وهو كوصفه جارحة، فإذا احتدّ لم يقف على حدّ، بل يتجاوز الحدود «ومن كثر كلامه كثر خطؤه»[١] ، وجمت زلاته وتفاقمت عثراته، «والصمت حكمة وقليل فاعله»[٢].

وعن الرضا عليه السلام: «**ما أحسن الصمت من غير عي والمهذار له سقطات**»[٣].

السابعة عشرة: الفكر عامل البصيرة:

(وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ):

فالارتجال مظنّة الخطأ والأناة والتأمّل مدعاة للصواب والبصيرة فيما يقدم عليه من أمر فيشرح لذلك صدره، فيعرف أن يرمي ببصره ويضع قدمه ويرفعها.

قد يدرك المتأني بعضَ حاجتِهِ ... وقد يكون مع المستعجلِ الزللُ

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٤٩/ ٥٣٦.

(٢) شرح أصول الكافي ١/ ١٤٤.

(٣) مفتاح السعادة ١٥/ ١٧٥.

الثامنة عشرة: عدوى القرين:

(قَارِنْ أَهْلَ الخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ):

فالصحبة بطبعها مؤثرة وباعثة على محاكاة الأخلاق والتطبع بطباعهم وخلائقهم، وهي روافد من روافد التربية، فينهج القرين نهج قرنائه وخلطائه انسياقًا دونما رويّة، بل ربما رأى خلاف ذلك شذوذًا، وعن النبيﷺ: «**لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم، وقال لقمان الحكيم رحمه الله لابنه: «يا بني كن عبدًا للأخيار، ولا تكن ولدًا للأشرار»**»، وقال الشاعر:

صاحب أخا ثقة تحظى بصحبتِهِ ... فالطبعُ مكتسبٌ من كلِّ مصحوبِ
كالريحِ آخذةٌ مما تمرُّ بهِ ... نتنًا من النتنِ أو طيبًا من الطِّيبِ[1]

التاسعة عشرة: آفة الطعام:

(بِئْسَ الطَّعَامُ الحَرَامُ):

وهو غذاء الإنسان وبه قوامه ومنه حركته وله فاعل الأثر في خلقه وطباعه وحياته وأوضاعه.

والبلاء به مبرم والابتلاء دائم قائم، ولعمر الحق إنه الإبداع اللافت المتجلي في سن التشريع الدقيق وإحكام النظام العميق وسعة الأفق في تناول هذا الشأن الحياتي في متشعب أبعاده، وذلكم من سمات دين الاسلام وانفراده بالكمالات،

(١) الحديث والحكمة والشعر من (بهج الصباغة) ٨/ ٣٠٣.

فالأموال ومصدرها ومصرفها وتصنيف الطعام حليةً وحرمةً على تعدد أنواعها واختلاف أصنافها برية وبحرية حيوانية ونباتية سائلة وجامدة، إلى شعب وضروب في موادها وزاخر من أحكامها وجليل آثارها ودقيق أسرارها[١].

إنها حكمة المشرع العليم الخبير والخالق القدير المحيط بما فيها من مصالح ومفاسد ومنافع وأضرار، جلّت حكمته وعظمت نعمته ووسعت رحمته عزّ وجلّ، والحديث في هاتيك الشؤون ذات الشجون مستفيض قرآنًا وسنة عمومًا وخصوصًا ومباشرة وتسبيبًا دنيا وعاقبة.

فقد قال الله العظيم في القرآن الكريم والذكر الحكيم عن الربا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۞ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[٢].

وقال الله في آكلي مال اليتيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٣].

قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**إن لله ملكًا على بيت المقدس ينادي كل ليلة: من أكل حرامًا لم يُقبل منه صرف ولاعدل**»، وعنهصلى الله عليه وآله: «**من لم يبال من أين**

---

(١) وقد كتبت رسالة في ذلك: (الأطعمة والأشربة حكم وأسرار).

(٢) سورة البقرة / ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٣) سورة النساء / ١٠.

اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار»، وقال صلى الله عليه وآله: «**كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به**»، وقال صلى الله عليه وآله: «**من أصاب مالاً من مأثم فوصل به رحمًا أو تصدق به أو أنفق في سبيل الله جمع الله ذلك جمعًا ثم أدخله النار**»، وقال صلى الله عليه وآله: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي هذه المكاسب الحرام والشهوة الخفية والربا**»، وجاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ليس بولي لي من أكل مال مؤمن حرامًا**»، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**كسب الحرام يبين في الذرية**»، وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «**إن الحرام لا ينمى إن نمى لم يبارك فيه وإن أنفقه لم يؤجر عليه وما خلفه زاده إلى النار**»[1].

اللهم أغننا بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك ولا تحوجنا إلى لئام خلقك.

العشرون: الظلم ظلمات:

(وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ):

فهو صفة سبعية وصبغة الوحوش الكواسر تضل عقلها ويموت قلبها ووجدانها وتنسى عدل ربها ومداينة القصاص في المحيا والمات، فتفتقد بذلك إنسانيتها فتعود جوارحها: يد تفتك وتسلب ورجل تركل وتضرب ولسان يفحش ويجرح وعين شزراء تطفح شرًّا، وتلكم سمة مستشرية لا يسلم منها إلا من ملك عقله وخشي ربه ونهى النفس عن الهوى.

---

(١) الأحاديث من (مفتاح السعادة) ١٥/ ١٧٧ ـ ١٧٨.

والظلمُ من شِيَمِ النفوسِ فإنْ تجِـدْ ذا عفّـــــةٍ فلعلـــــةٍ لا يظلـــــمُ

والظلم قبيح في ذاته ومنطلقه ومتعلقه، وإن تفاوتت دركاته واختلفت ضروبه وتبعاته.

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضـةً على المرءِ من وقـعِ الحسـامِ المهنـدِ

وفسرت الإضافة في حكمة الإمام عليه السلام أنها من الإضافة إلى المفعول فالقوي هو الظالم والضعيف هو المظلوم.

ووجه أنه (أفحش الظلم) أن الضعيف المستضعف موطن الرحمة والإحسان لا الشدة والعدوان إذ لا حيلة له ولا قدرة على ممانعته ومدافعته والقوي من شأنه الجور والعسف.

كما فسرت الإضافة أنها إلى الفاعل فالضعيف هو الظالم المتطاول على من هو أقوى منه فلم يرع قدر نفسه وطاقته فتجاوز على من هو أقوى وأقدر على الانتقام منه فعرض نفسه للمخاطر وتورط فعاد ظلمه عليه فما عساه ينال من اعتدى عليه إلا بما يضاعف محنته في ذاته بما هو أفحش وأشد وأوجع.

والمعنيان لا تأباهما العبارة وسلامة التركيب وإن أصرّ الشارح السيد النقوي على الثاني وخطّأ القائل بالأول، وإن كانت الإضافة إلى المفعول صحيحة.

ولا ضير في إرادة المعنيين حيث قبح الظلم وذمّ المتلبس بشناعته أيًّا كان مصدره قويًّا أو ضعيفًا فكلاهما ظالم وربما صدر من كل منهما ما هو أفحش

بالنسبة إليه أو إلى من وقع عليه.

الحادية والعشرون: الرفق والخرق:

(إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقًا كَانَ الْخُرْقُ رِفْقًا):

الخرق: العنف والشدة.

إن هدي التربية الربانية قائم على جميل التعامل وحسن المعالجة فمنطلقه الرحمة وشعاره اللين والأخذ بالسهولة واليسر والبعد عن الشدة والعنت والعنف.

ذلكم هو المنهج اللاحب والصراط الأقوم والطريقة المثلى، فبه تعمر الحياة وعليه تأتلف القلوب ويجتمع الشمل ويسود الصفاء وهو نظام يجب أن يشاع ويذاع على سنن فضائل الأخلاق وفواضل الصفات من الرحمة والإحسان والعفو ونبذ الشنآن وجميل المداراة وحسن المجاملة والتغافل وهذه السجية في صبغتها الأولى وطبيعتها الحسنى وميزانها الراجح.

فإذا اختلت الموازين وانقلبت المقاييس لم يعد الرفق رفقًا فلا ينفع ولا ينجع بل يعود إغراء بالصلف واستشراء المنكر، فلا محيص من معالجة الداء بالدواء وبها يحسم مادة الفساد، فلا موطن للرفق وإنما الاستئصال بالخرق فالخرق هنا هو الرفق ولا يقطع الشر إلا الشر فالخير في ذلك.

فإن ترفقي يـا هنـدُ فـالرفقُ أيمـنٌ　　　وإن تخرقي يا هنـدُ فـالخرقُ أشـأمُ

وفي رجز لبيد مما جرى مجرى المثل: (يا رُب هيجا هي خير من دعه).

وكذا في مقولة المتنبي الحكيمة:

ووضعُ الندى في موضع السيفِ بالعلا

مُضِرٌّ كوضع السيفِ في موضع الندى

وقال ابن الصيفي حيص بيص:

وجـــوه لا يحمرهـــا عتـــاب جـــدير أن تصـــفر بالصـــفار

فـــما دام اللثـــام لغـــير بـــأس ولا لان الحديـــد لغـــير نـــار

وقوله الآخر:

لا تلطفـــنَّ بـــذي لـــؤمٍ فتطغِيـــهِ واغْلُظْ له يأتِ مِطواعًا ومِذعانا

إن الحديـــدَ تُلِـــينُ النـــارُ شـــدَّتَهُ ولـو صـببتَ عليـه المـاءَ مالانـا(١)

ونظائر هذه الحكم مستقاة من نبع الحكمة وإمام الحكماء أمير المؤمنين عليه السلام، فقد أوصى بعض عماله: «وارفق ما كان الرفق أرفق واعتزم بالشدة حين لا تغني عنك إلا الشدة»(٢).

ولقد عقد العلامة المجلسي أعلى الله مقامه بابًا جميلاً في كتابه بحار الأنوار ٧٢/ ٥٠ ـ ٦٤ أورد فيه جملة من الآيات الشريفة والروايات الطريفة موشحة بتفسير وبيان جديرة بالمراجعة المتأملة.

ومن الخير إيراد شطر منها استجلاء لحقائقها وعلو مضامينها وسعة

---

(١) أدب الطف ٣/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم ٤٦/ ٤٢١.

آفاقها وأبعادها:

قال الله الحكيم في القرآن الكريم:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[(١)].

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[(٢)].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[(٣)].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٤)].

وقال الرسول العظيمﷺ: «**الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شأنه**».

وجاء في تتمة حديث آخر: «**فمن أعطي الرفق أعطي خير الدنيا والآخرة ومن حرمه حرم خير الدنيا والآخرة**»[(٥)].

وعن الصادق عن آبائهعليهم السلام قال: قال رسول اللهﷺ: «**ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غدًا؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **الهيّن القريب الليّن السهل**».

«**أعقل الناس أشدهم مداراة للناس وأذل الناس من أهان الناس**».

---

(١) سورة آل عمران / ١٥٩.

(٢) سورة الإسراء / ٥٣.

(٣) سورة الفرقان / ٦٣.

(٤) سورة الحجر / ٨٨.

(٥) بحار الأنوار ٧٢/ ٥٥.

«نِعْمَ وزيرَ الإيمانِ العِلْمُ، ونِعْمَ وزيرَ العِلْمِ الحِلْمُ، ونِعْمَ وزيرَ الحِلْمِ الرِّفْقُ، ونِعْمَ وزيرَ الرِّفْقِ اللِينُ».

«إنا أمرنا معاشر الأنبياء بمداراة الناس كما أمرنا بأداء الفرائض»(١).

«إن الله رفيق يعطي الثواب ويحب كل رفيق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»(٢).

«الرفق يمن والخرق شؤم»(٣).

وقد ضمّن ذلك من قال:

فإن ترفقي يـا هنـدُ فـالرفقُ أيمـنٌ   وإن تخرقي يا هنـدُ فـالخرقُ أشـأمُ

«ما من عمل أحب إلى الله تعالى وإلى رسوله من الإيمان بالله والرفق بعباده، وما من عمل أبغض إلى الله تعالى من الإشراك بالله تعالى والعنف على عباده»(٤).

«ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجرًا عند الله تعالى وأحبهما عند الله تعالى أرفقهما بصاحبه»(٥).

«إن الله يحب الرفق ويعين عليه فإذا ركبتم الدابة العجف(٦) **فأنزلوها منازلها،**

---

(١) بحار الأنوار ٧٢/ ٥٣.

(٢) بحار الأنوار ٧٢/ ٥٤.

(٣) بحار الأنوار ٧٢/ ٥٤.

(٤) بحار الأنوار ٧٢/ ٥٤.

(٥) بحار الأنوار ٧٢/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٦) العجف: الهزال.

فإن كانت الأرض مجدبة فانجوا[1] عليها، وإن كانت مخصبة فأنزلوها منازلها»[2].

«لو كان الرفق خلقًا يرى ما كان مما خلق الله ﷻ شيء أحسن منه»[3].

وعن أبي جعفر عليه السلام: **«إن لكل شيء قفلاً وقفل الإيمان الرفق»[4].**

«من قسم له الرفق قسم له الإيمان»[5].

وعن أبي عبدالله عليه السلام: **«إن الله تبارك وتعالى رفيق يحب الرفق فمن رفقه بعباده تسليله أضغانهم ومضادتهم لهواهم وقلو بهم، ومن رفقه بهم أنه يدعهم على الأمر يريد إزالتهم عنه رفقًا بهم لكيلا يلقي عليهم عرى الإيمان ومثاقلته جملة واحدة فيضعفوا، فإذا أراد ذلك نسخ الأمر بالآخر فصار منسوخًا»[6].**

«ما زوي الرفق عن أهل بيت إلا زوي عنهم الخير»[7].

«أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق، والرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال، والرفق لا يعجز عنه شيء، والتبذير لا يبقى معه شيء، إن الله ﷻ رفيق يحب الرفق»[8].

---

(١) انجوا: أسرعوا.

(٢) بحار الأنوار ٧٢/ ٦٢.

(٣) بحار الأنوار ٧٢/ ٦٣.

(٤) بحار الأنوار ٧٢/ ٥٥.

(٥) بحار الأنوار ٧٢/ ٥٦.

(٦) بحار الأنوار ٧٢/ ٥٦.

(٧) بحار الأنوار ٧٢/ ٦٠.

(٨) بحار الأنوار ٧٢/ ٦١.

عن هشام بن أحمر عن أبي الحسن عليه السلام قال: «**وجرى بيني وبين رجل من القوم كلام فقال لي: ارفق بهم فإن كفر أحدهم في غضبه ولا خير فيمن كان كفره في غضبه**»(١).

عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «**الرفق نصف العيش**»(٢).

وعن الفضيل بن عثمان قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «**من كان رفيقًا في أمره نال ما يريد من الناس**»(٣).

الثانية والعشرون: الدواء والداء:

(رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالدَّاءُ دَوَاءً):

وهذه الحكمة على نسق سابقتها فهي حاكية عن تبدل الوضع الطبيعي في معالجة الأمور، فإن من شأن الداء معالجته بالدواء ولكن ربما اختلف الحال فعاد الدواء داءً وآل الداء دواء.

فالقضايا لها وجوه شتى ظاهر وباطن والحكم فيها جلية وخفية، فقد يكون الفقر دواء والسلامة حينًا كذلك، كما قال المتنبي:

لعلَّ عتبَكَ محمودٌ عواقِبُهُ ... فربما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ

إذ قد تقطع بعض أطراف الإنسان لضمان سلامته ويسوغ له أكل الميتة إبقاء عليه ويجوز الكذب المحرم لصون الأهم، والتواضع للمتكبر داء

---

(١) بحار الأنوار ٧٢/ ٦١ ـ ٦٢.

(٢) بحار الأنوار ٧٢/ ٦٢.

(٣) بحار الأنوار ٧٢/ ٦٤.

والتكبر عليه عبادة والإحسان للمجرم بلاء.

«خرج قوم إلى الصيد فطردوا ضبعًا فتبعوها حتى ألجأوها إلى خباء أعرابي فاقتحمته، فخرج إليهم، فقالوا: صيدنا وطرديتنا، قال: كلّا لا تصلون إليها ما ثبت قائم سيف في يدي فرجعوا وتركوها، فقام الأعرابي إلى لقحة له فحلبها وقرب إليها الحليب وقرب إليها ماء، فأقبلت مرة تلغ من هذا ومرة من هذا حتى سمنت، فبينما الأعرابي نائم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وشربت دمه وأكلت حشوته وخرجت، فجاء ابن عم له فوجده على تلك الصورة فالتفت إلى موضع الضبع ـ وكنيتها أم عامر ـ فأخذ كنانة واتبعها حتى أدركها فقتلها، وقال:

ومَنْ يصنعِ المعروفَ مع غيرِ أهلِهِ　　　يلاقي الذي لاقـى مجـيرُ أمِّ عـامرِ

ومنه المثل: كمجير أم عامر»[1].

وفي الحكمة هداية ودعوة للنظر الدقيق والفكر الحصيف وحسن التعامل في مثل هذه القضايا وجميل معالجتها ورعاية الأهم والأولى واللائق والأجمل.

الثالثة والعشرون: الناصح والمستنصح:

(وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ):

نبّه الإمام عليه السلام على دقيق من شأن النصيحة وسيأتي الحديث عنها في حكمة لا حقة، والإثارة اللافتة هنا التركيز على ثقل النصيحة والتوفيق لنيلها، إذ

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣٠٥.

مقتضى الجري السائر: اعتماد قول من ترتضى مشورته ويرتاح إلى رأيه وثوقًا بعقله وركونًا إلى صلاحه، والواقع أن المقياس الدقيق هو: ذات النصح لا مصدره، ولا غرابة في ابتغاء هذا المسلك ولا مفارقة، فالحكمة ضالّة المؤمن يأخذها أنّى وجدها ولو من أفواه المجانين.

إذن فهي المدار والمعيار وبها الاعتبار، وهنا يأتي دور العقل الحصيف والتأمّل والأناة وتقليب وجوه الأمر حتى يتجلّى الحق فسرعة الاسترسال اعتمادًا على الثقة لا يؤمن فيها العثار، وقد أدار الإمام عليه السلام حول (الناصح والمستنصح) في مواطن من كلمه وحكمه تقوم بالإحاطة والرؤية الثاقبة لمعرفة دلائل الحق والصدق وزيف الباطل والكذب فيما يتلقّى من أفواه المشيرين.

«أيها الناس إن من استنصح الله وفّق»[١].

«وتمسّك بحبل القرآن واستنصحه»[٢].

«ولا يغش العقل من استنصحه»[٣].

«الفكر مرآة صافية والاعتبار منذر ناصح»[٤].

«اقبلوا النصيحة ممن أهداها إليهم واعقلوها على أنفسكم»[٥].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٤٧/ ٤٠٥.

(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم ٦٩/ ٤٥٩.

(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٨١/ ٥٢٥.

(٤) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٦٥/ ٥٣٨.

(٥) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٢١/ ١٧٨.

«فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة»[١].

«ولرب ناصح لها (الدنيا)عندك متهم وصادق من خبرها مكذّب»[٢].

«ولا تعجلن إلى تصديق ساع فإن الساعي غاش وإن تشبّه بالناصحين»[٣].

«إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه وإن أغشهم لنفسه أعصاهم لربه»[٤].

وقد جاء في شعر الحكمة: **(وقد يستفيدُ الظنةَ المتنصِّحُ)**[٥].

رُبَّ مستنصَـــحِ يغـــشُّ ويُـــردي   وظنـــينٍ بالغيـــبِ يلفـــي نصـــيحا

ألا رب مــن تغشــه لــك ناصــحٌ   ومــؤتمنٍ بالغيــبِ غــير أمــينِ

وما كل ذي لب بمؤتيك نصـحه   ومـا كـل مـؤت نصـحه بلبيـبِ

الرابعة والعشرون: المنى والحمق:

(وَإِيَّاكَ وَالِاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى):

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٥/ ٧٩.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٢٣/ ٣٥٤.

(٣) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣/ ٤٣٠.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨٦/ ١١٧.

(٥) الظنة: التهمة.

المتنصِّح: المبالغ في النصيحة.

وقد صدّر عليه السلام الحكمة بـ(إياك) لما تحمل من دلالة على تأكيد الزجر والنهي وشدة المقت والنكير على من يتخذ الأماني طريقًا والآمال سلّمًا فتعشش في مخيلته أحلام السراب وتفرّخ وتتكاثر وتنداح طويلة عريضة في عالم الأهواء والخيال والخبال.

ويتخذ سلام الله عليه تنظيرًا معبّرًا بتوصيف تلكم الأمنيات المتسعة بأنها (بضائع النوكى) فأي بضاعة يجمعها أحمق الرأي ويعتدّها رأس مال تجارته؟ وأي عقل يحمله ليديرها مدارها الحق؟ وشأنه السفه والإضاعة.

ومن الشعر في ذلك:

إذا تمنيت بت الليل مغتبطًا   إن المنى رأس أموال المفاليس

ولا تكن عبد المنى فالمنى   رؤوس أموال المفاليس

وقال الآخر:

أعلل نفسي بما لا يكون   كما يفعل المائق الأحمق

وحكايات الحمقى تروي دخائلهم ونمط تفكيرهم، فمن ذلك:

أن ناسكًا كان له عسل وسمن في جرة ففكر يومًا فقال: أبيع الجرة بعشرة دراهم، وأشتري خمسة أعنز فأولدهن في كل سنة مرتين ويبلغ النتاج في سنتين مئتين، وأبتاع بكل أربع بقرة، وأصيب بذرًا فأزرع، وينمى المال في يدي فأتخذ المساكن والعبيد والإماء والأهل، ويولد لي ولد فأسميه كذا وآخذه بالأدب، فإن عصاني ضربت بعصاي رأسه، وكانت في يده عصا فرفعها حاكيًا للضرب

فأصابت الجرّة فانكسرت وانصب العسل والسمن على رأسه[١].

وعلى مثل هذا شاكلة الحمقى وأمنياتهم فتنحدر بهم إلى حضيض السخف والعته.

قال الوليد بن عبد الملك لبديح المغني: خذ بنا في التمني فو الله لأغلبنّك، قال: والله لا تغلبني أبدًا، قال: بلى فإني أتمنى كفلين من العذاب وأن يلعنني الله لعنًا كثيرًا، فخذ ضعفي ذلك، قال: غلبتني لعنك الله[٢].

الخامسة والعشرون: العقل والتجارب حفظها وخيرها:

(وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ):

والعقل وهو أسمى المواهب وأشرف المنح وجوهرة الجواهر وهو الرائد الأول والناصح الأمثل والعقل العملي منه وهو المركون إليه، وله دوره وأثره، ومن شعب وظائفه: حفظ التجارب والاعتبار بواقع الحياة وتصاريف الزمان، فمعاصر الأيام ومصارعها يرعى ويقرأ ويسمع ويرى أممًا وأفرادًا ملوكًا ورعية تتقلب بهم الأحوال وعصفت بكيانهم الأهوال فتبدل الملك صعلوكًا والصعلوك ملكًا وساد الذليل الحقير وذلّ العزيز الكبير، وثمت حضارات سادت وبادت فما السرّ في ذلك كله؟

ربما أدرك شيئًا فعقل من الحياة درسًا وأفاد تجربة تبعثه أو تمنعه في مضمار

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣٠٩.

(٢) بهج الصباغة ٨/ ٣٠٩.

شهد أشواطًا من السباق والتجارب جمة متفاوتة كتفاوت المجربين والناظرين والمراقبين، وخيرها ما أغنى علمًا، وهدى نهجًا وطريقًا، وأفاد خبرة وعبرة، فتتضح الرؤى ويسهل المسرى فيقدم أو يحجم ويضع قدمه أو يرفع، ومما أفدته من التجارب:

١ ـ الاندفاع المتعجل:

فقد عاصرنا فئات أحسنت بنفسها ظنًّا يؤهّلها لتتبوّأ مقامًا أسمى في المرجعية الدينية، فلم تترقَّ نحو ما ترجو مرقاة مرقاة بل هي الطفرة وسريع الوثبة وربما يسوغ لها ظنها ما لايحسن ولا يجمل ولو تأنّت وتدرجت وواصلت سيرها العلمي لبلغت ما أمّلت إذا أمدها المولى بتوفيقه.

قد يدرك المتأني بعضَ حاجتِهِ		وقد يكون مع المستعجلِ الزللُ

ونسجل بمرارة وأسف: كنا نشهد أوائل الأيام شرذمة قليلة من ذوي التطلع، وأما الآن فقد استشرى الداء وعمّ البلاء (فكلٌّ يدعي وصلاً بليلى)، (وحتى استامَها كلُّ مفلسٍ).

مصيبة ما أعظمها وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أجل.. رأينا فشلهم وضياع سعيهم المجهد الحثيث.

٢ ـ محنة الأحزاب والتحزب:

وصدق الله الحق في قوله ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1]، فقد عايشنا

---

(١) سورة المؤمنون / ٥٣.

ورأينا الصورة المعروضة للأحزاب الإسلامية وبما تحمله من بنود وتطلعات وتأصيل وتفريع وأحلام وتوجيه لبذل النفس والنفيس، وهي في كل ذلك تعيش رؤيتها وكأنها وحدها في الساحة، والفرصة مواتية متاحة، وسرعان ما تتكشّف الأوراق وتختلف الأذواق وتتبدّل الأخلاق وتتوزّع الانتماءات وتتعدّد الولاءات، فيسعى كل فصيل إلى احتماء بقوة واعتماد المدد من جهة فكرًا ومالاً وربما كان من نجار مختلف وفكر مختلف وهدف مختلف، ومفاجأة الأحداث تعصف وتكشف وتطيح فتتبدل الأرقام وتتكسر عقارب الساعة.

رأينا من كثب وقرأنا للروّاد والمنتسبين وسمعنا هتاف الأعلام ودوي الإعلام، وكيف علت الأصوات وخفتت وكيف اهتزت الرايات والأعلام وطويت ولفت، حتى بلغت بي القناعة: لو أسس مرجع الأمة الأعلى حزبًا ووضع بنوده وأشرف على إدراته لما انخرطتُ فيه ولا انضممت إليه إذا لم يجعل ذلك واجبًا عليَّ، فشتان بين ذات الأهداف المقدسة والأفكار المثلى والأمل المنشود والقيام على حسن الرعاية إليها وبين تطبيقها على أرض الواقع وبما ينتابها من تلافيف وتعقيد وقيام لسانين ووجهين بل ألسن ووجوه وهيئات وجهات.

ولا يظنَنَّ ظانٌّ بمقالتي هذه سوء في قدس (المرجعية الحقّة) وجلال فقهائها، فهم حماة الدين وأركان المذهب، وكلّ ما أرمي إليه هو ما حلّ بساحة الأمة من اختلاف وتمزّق أفرزته الحزبية والمتحزِّبون.

ونظرة ولو عابرة على الأوضاع الحاضرة توقف على المَشاهد والشواهد والمزالق والمخاطر ومن الله الكفاية وبه سبحانه الاعتصام.

٣ ـ المال محنة العالم ومصيبة المؤمن:

فهو المعترك الشائك والبلاء المتفاقم والغصص الخانقة والمرارة العالقة فالطبع العام ميّال للمال ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[١]، ويدعو إلى الحرص ويجرّ إلى الطمع ويغرس الأثرة ويلغي ثوابت الدين ويذهب بالمروّة والإنصاف، فتموت مكارم الأخلاق.

فهو البلية العظمى والامتحان الصعب، ويتمثّل خطره في سبل نيله وتحصيله وصرفه وبذله، والائتمان عليه، ويتمثّل في (الشركة) والشين من حروف الشوك، بل وفي الميراث وصية ونصيبًا وترجيحًا ونزاعًا مريرًا وخصامًا محتدمًا بين الأشقاء وذوي الرحم اللصيقة الماسة في إنفاذ وصية مورثهم، وهو مال آل إليهم بدون كسب وعناء، ولكنه اقترن بالتعاسة والشقاء.

وأدهى من ذلك: نزاع الورّاث مع مورّثهم وهو حي قائم بينهم فضلاً عن صراعهم مع أنفسهم.

ويجرّ الجهل والطمع إلى الترافع والتحاكم لمن لا يرتضى مذهبه ونهجه في التوريث رجاء ـ وربما كان رجاء كاذبًا ـ زيادة حفنة زهيدة من حطام الدنيا

---

(١) سورة الفجر / ٢٠.

على حساب الدين وضياع تشريعاته وانتهاك حرماته ومقدساته، وتتداخل العقد ويضرى الصراع والنزاع والترافع في المحاكم وتشتدّ القطيعة وتمتدّ، فيموت فترةَ الدعوى طبقةٌ من الورّاث لم تنل من ميراثها شيئًا، ولكن ورّثت الخصومة لمن بعدها، وتبقى المداعاة قائمة حية لم تمت.

هذا شيء مما خبرنا وبعض مما رأينا وشهدنا فأفدنا:

التفاعل الصدق مع تلكم الشؤون مقياس للإيمان والالتزام وأن الداخل في هذه الموارد يجب أن يحسب لها حسابها محتملاً متحمّلًا سؤاتها وسلبياتها.

وبكلمة: هدي الدين وفقه المال خير مقوّم ومرشد ومعين، وتجارب الحياة وفي عموم مرافقها جمة وافرة والحديث عنها متسع وحسبي ما ذكرت نموذجًا، ولست أرمي إلى ما قد يلوح من قولي من السلبية المطلقة فذلك ما لا أعنيه وأنّى يتم وشؤون الحياة قائمة على ذلك ومترابطة وإنما قصدت:

أولاً: إنها من مواطن التجربة الحياتية القائمة وما أفدته منها.

ثانيًا: أن على من يدخل غمارها ويسلك فجاجها أن يعدّ لكل أمر عدته منطلقًا عن رؤية واضحة المعالم والمبادىء والأهداف محتملاً ما يلقى صبورًا على مايكره موطّنًا نفسه على ما تؤول إليه الأمور، ناظرًا في عواقبها.

ولكل مجال آلاته وأدواته ودراساته ورجاله، وقبل ذلك ومعه وبعده:

العقل الحصيف والإيمان الصادق والمعرفة الحقة بكل ما يلتقي وهدفه وأولها وأولاها موافقة الدين القويم وصراطه المستقيم.

ولقد ركّز الإمام عليه السلام على التجربة ودورها في مواطن عدة من خطبه الطوال وحكمه القصار:

«فقد جربتم الأمور وضرستموها[١] **ووعظتم بمن كان قبلكم وضربت الأمثال لكم ودعيتم إلى الأمر الواضح فلا يصم عن ذلك إلا أصم ولا يعمى عن ذلك إلا أعمى ومن لم ينفعه الله بالبلاء والتجارب لم ينتفع بشيء من العظة وأتاه التقصير من أمامه... »**[٢].

«واعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار فارحموا نفوسكم فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا، أفرأيتم جزع أحدكم من الشوكة...»[٣].

«فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري»[٤].

وقال عليه السلام في عهده للأشتر ـ فيما يخص عمّال الوالي ـ :

«توخّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة»[٥].

وجاء في كتابه لأبي موسى الأشعري: **«فإن الشقي من حرم نفع ما أوتي**

---

(١) ضرّستموها: جربتموها.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٧٦/ ٢٥٤.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٣/ ٢٦٧.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٥/ ٧٩.

(٥) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣/ ٤٣٥.

من العقل والتجربة»[١].

وقال عليه السلام: «**ومن التوفيق حفظ التجربة**»[٢].

السادسة والعشرون: اغتنام الفرصة:

(بَادِرِ الفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً):

فالسوانح المؤاتية تستثمر إبّان إقبالها وتحققها، ولا يرجأ العمل فيها ويسوّف فيه ويؤخّر فتذهب الفرصة ولا يتأتّى العمل، فمن الحزم إنفاذ العزم إذ «الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود»[٣].

بل قد يعقب التسويف والتفويت غصة وحسرة، إذ لات حين تدارك، فكأن تلك الفرصة السانحة كانت غصة نظرًا لما آلت إليه من حرمان اغتنامها، والإنسان أيام عمره تعرض له فرص نادرة من علم يحصله وصنعة يكسبها وأخ في الله يصحبه وحقّ يؤدّيه وخير يسديه، إلى وفرة من الأعمال ينتفع وينفع في حياته وبعد مماته، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك**»[٤].

---

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم ٧٨/ ٤٦٦.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢١١/ ٥٠٦.

(٣) عن أمير المؤمنين عليه السلام. مستدرك الوسائل ١٢/ ١٤٢، وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٢٠/ ٣٢٨.

(٤) مفتاح السعادة ١٥/ ١٨٣.

وللإمام عليه السلام فكرعميق ومقال أنيق حول (الفرصة) والبدار والبطء وخيرها وشرها:

أ) **«والفرصة تمر مر السحاب فانتهزوا فرص الخير»**[١].

ب) **«من الخرق المعاجلة قبل الإمكان والأناة بعد الفرصة»**[٢].

ج) **«قد يرى الحُوَّلُ القُلَّبُ وجهَ الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»**[٣].

د) **«وإياك... وحب الإطراء فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين»**[٤].

السابعة والعشرون: الطلب وإصابته:

(لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ):

فالعاقل الكيس يسعى سعيًا قويًا لما يبتغيه، فإن لم يصبه فلا يأسفنّ على مافاته، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾[٥].

على المرء أن يسعى لإصلاح شأنه   وليس عليه أن يكون موفّقا

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢١/ ٤٧١.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٦٣/ ٥٣٨.
(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ٤١/ ٨٣.
(٤) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣/ ٤٤٣.
(٥) سورة الحديد/ ٢٣.

وقيام هذه الحقيقه في فكره يجمع له الرضا بنيل ما أمّل وعدم البرم والسخط بالحرمان.

ما كل وقت ينال المرء ما طلبا ولا يسوّغه المقدار ما وهبا

الثامنة والعشرون: الغيبة والأوبة:

(وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَئُوبُ):

وهذه شاكلة تلك فالغائب قد يعود وقد يبقى على طول الزمان مغيبًا، فالعودة مرجوّة والغيبة الدائمة متوقعة، فتستقرّ النفس ولا تقلق.

التاسعة والعشرون: صلاح المعاد بحفظ الزاد:

(وَمِنَ الفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ وَمَفْسَدَةُ المَعَادِ):

إن زاد الدنيا غذاء البدن ومن عوامل حياته وسلامته، وذلك سنة الفطرة وقضاء الحاجة في أصله وذات قوامه وفي نوعه وخصائصه، ومن ثم يتجنّب المهلك والمضر المنغص إلا إذا غلب الميل والهوى وتقديم ما يُشتهى فيجني المرء على نفسه بسوء اختياره.

وللآخرة زادها، فيعدّ ويمهّد ويوفّر ولا يفسد، فبه النعيم المقيم وبلوغ عالي الدرجات ونيل خير الأمنيات، وإفساده الخسران المبين والجحيم المقيم وسافل الدركات والشقاء والحسرات، ومن ثم لابد من اكتناز العمل الصالح وصيانته عما يمحقه ويبطله ويذهب به هباء منثورًا، ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٍ

يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[٢].

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴾[٣].

الثلاثون: الأمور بعواقبها:

(وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ):

فلكل شيء أمد ونهاية (وكلُّ شيءٍ بلغَ الحدَّ انتهى)، فللعمر انقضاء وللقوة ضعف وللملك زوال، ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ * وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾[٤].

وجاء في رواية الكليني: «ولكلِّ امرىءٍ عاقبة»، وفي نهج البلاغة زيادة: «**حلوة أو مرة**»[٥].

والإخبار بذلك وان كان بيانًا للحقيقة الواقعية التي لا حيلة للمرء في تأخيرها وإلغائها إلا أنها تأخذ بفكر العاقل الكيّس إلى السعي نحو الأجلِّ الأجمل فيما يحوم

---

(١) سورة البقرة / ١٩٧.

(٢) سورة آل عمران / ١٠٢.

(٣) سورة البقرة / ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٤) سورة الرحمن / ٢٦ ـ ٢٧.

(٥) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٥١/ ٤٩٩.

فيه الفكر وابتغاء أفضل الغايات واكتساب أكمل الملكات والكمالات.

وقد جاء في دعاء مكارم الأخلاق: «اللهم صل على محمد وآله، وبلّغ بإيماني أكمل الإيمان واجعل يقيني أفضل اليقين وانته بنيتي إلى أحسن النيّات وعملي إلى أحسن الأعمال».

فتعمر دنياه بالصالحات وتختم بخير وعافية تقرّبه إلى ربّه زلفى فالعاقبة للمتقين.

ومما ورد في نهج البلاغة من حديث ذلك:

أ) «**الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ وَالطَّرِيقُ الوُسْطَى هِيَ الجَادَّةُ عَلَيْهَا بَاقِي الكِتَابِ وَآثَارُ النُّبُوَّةِ وَمِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ وَإِلَيْهَا مَصِيرُ العَاقِبَةِ**»[1].

ب) ومما جاء في كتاب إلى معاوية: «**فاحذر يومًا يغتبط فيه من أَحْمَدَ عاقبتَهُ عملُه، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه**»[2].

ج) ومن كتاب لواليه مالك: «**والحق كله ثقيل، وقد يُخَفِّفه الله على أقوامٍ طَلَبوا العاقبة فصَبّروا نفوسَهم، ووَثِقُوا بصِدقِ موعودِ الله لهم**»[3].

«**وأَلْزِمِ الحقَّ مَنْ لَزِمَهُ من القريب والبعيد وكن في ذلك صابرًا محتسبًا... وابتغِ عاقبتَه مما يثقل عليك منه فإن مغبة ذلك محمودة**»[4].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٦/ ٥٨.

(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم ٤٨/ ٤٢٣.

(٣) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣/ ٤٣٩.

(٤) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣/ ٤٤١ ـ ٤٤٢.

د) «**أُوصيكُم عبادَ الله بتقوى الله؛ فإنّها خيرُ ما تَواصى العِبادُ به، وخيرُ عَواقِبِ الأمورِ عند الله**»(١).

اللهم اجعل عواقب أمورنا خيرًا.

الحادية والثلاثون: المقدر لا يفوت:

(سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ):

يسعى العاقل ـ وعليه ذلك ـ لإصلاح معاشه وشؤون حياته، كما عليه أن يعنى بدينه ومقوماته وإعمار معاده، ولابد أن يمتزج بسعيه المشروع روح الرضا والإيمان بالقدر والقضاء، مذعنًا بأن جميل التدبير من الربّ الحكيم الخبير، فالعمر والرزق والتوفيق والسلامة والجاه والمقام وكافة ما يهمه ويسعى لنيله مقدرات مكتوبات، فالإلحاح في الطلب والاستماتة في تحقيق المأرب لا يعجّلان ولا يقدّمان أو يؤخّران.

أجل.. عليه التعرض لذلك في ضمن ضوابطه القويمة.

ونيلُ المبتغى والحرمانُ منه بيدِ المهيمنِ على الأمر كله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾(٢).

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾(٣).

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٧٣/ ٢٤٨.

(٢) سورة الطلاق / ٣.

(٣) سورة الحجر / ٢١.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾[(١)].

الثانية والثلاثون: خطر التجارة:

(التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ):

والتجارة لها شأنها الفاعل ودورها الكبير في الحياة عامة والجنبة الاقتصادية.

ومن اللافت حقًّا ما أولته الشريعة الإسلامية من إيفاء كافّة شؤون التجارة وأحكامها التكليفية وآدابها وسائر أمورها العجيبة الدقيقة، من ترسيخ قواعد الإحسان والمعروف، وعوامل البركة والخير، إلى فيض من البنود والأسس والآثار دنيا وآخرة.

ونظرًا لخطورة شأنها وما يكتنفها من دقيق الأمور أرشد الإمام عليه السلام في بليغ حكمته إلى احتفافها بالمخاطر الواجب اجتنابها ليسلم من ينخرط فيها من بلائها والمحظور فيها فيسلم له دينه وتسعد دنياه.

ومن الحديث في ذلك: عن النبي صلى الله عليه وآله: «**من باع واشترى فليحفظ خمس خصال وإلا فلا يشترين ولا يبيعن: الربا، والحلف، وكتمان العيب، والمدح إذا باع، والذم إذا اشترى**»[(٢)].

وعن الأصبغ: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول على المنبر: «**يا معشر التجار الفقه ثم المتجر، الفقه ثم المتجر، الفقه ثم المتجر، والله للربا في هذه الأمة أخفى**

(١) سورة الشورى / ٢٧.

(٢) بهج الصباغة ٨/ ٣١٤ عن مصادرها.

من دبيب النمل على الصفا، شوبوا أيمانكم بالصدق، والتاجر فاجر والفاجر في النار إلا من أخذ الحق وأعطى الحق»[١].

إلى وفرة من الأحاديث في مناح شتى عالجت الموضوع في عموم أبعاده وفقهه الواسع المستوعب لسننه وآدابه، يقف على السمو والرقي من جاس خلال تعاليم الشرع الشريف وقارن بينه وما عليه أوضاع التجارة وأساليبها الجشعة المستبدة.

قال الشيخ مغنيةرحمه الله: «والتجارة في أيامنا فنّ من فنون اللصوصية وعلم بأساليب الغش والاحتيال على الشعوب الضعيفة ونهب أقواتها ومقدراتها»[٢].

وما ذكرناه من تفسير (التجارة) هو المتبادر من المقولة الشريفة وإن فسّرها البعض بأن المقصود: خلط الصالح من الأعمال بالطالح، وأنه من المخاطرة التي لا تضمن معها حسن العاقبة وذلك بعيد عن ظاهر العبارة وسياق ما قبلها من قولهعليه السلام: «سوف يأتيك ما قدر لك».

نعم ما ذكره العلامة التستريرحمه الله: «يمكن أن يراد به المخاطرة من حيث الآخرة إذا لم يعرف مسائل المعاملة فتصدر منه معاملات غير مشروعة كالربا وغيره أو يحمله الحرص على الخيانة والكذب والبخس»[٣] ـ معنى مقارب إذ هو عاقبة المخاطرة في تجارة الدنيا.

---

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣١٤ عن مصادرها.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٥١٩.

(٣) بهج الصباغة ٨/ ٣١٣.

الثالثة والثلاثون: ربما كان الخير في اليسير:

(وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ):

فليست القضية مدار الكثرة فقد يلم بالجم الضياع وعدم الإمتاع ووفرة التبعات وعدم تحقيق المنى والرغبات، وقد ينجم من قليل البذر كثرة الزرع وزيادة الثمر والخير الوفير والبركة الواسعة، وهكذا الأعمال، فـ«قليل تدوم عليه أرجى من كثير مملول منه»[1]، فالمعيار الإفادة في الحياة والممات وقد عدت الزكاة وفيها نقص المال نماءً لحسن عاقبتها وعائدة بذلها، وقد قيل:

بغـــاثُ الطـــيرِ أكثرُهـــا فراخًـــا   وبنـــتُ الصـــقرِ مقـــلاةٌ نـــزورُ

و(بقية السيف أنمى عددًا).

الرابعة والثلاثون: لا إسعاف لمهين:

(لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ):

فلا تلتمس النصرة من ذليل ولا القوة من ضعيف، ومهانته أقعدته عن رفع نفسه فكيف يقوم بأمر غيره إذ فاقد الشيء لا يعطيه.

وإذا قُرئت (مُهِين) فذلك ذلّ المستعين، ولا خير في صدقة يتبعها أذى، وهو غرم لا غنم، فصبره على سوء حاله أولى به من إذلال نفسه وحطّ شرفه.

الخامسة والثلاثون: لا ركون لظنين:

(وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ):

---

(١) نهج البلاغة، كلمة رقم ٢٧٨/ ٥٢٥.

فالصديق من صدقت مودته، وكان سرّه كعلانيته وظاهره كباطنه، فإذا كان متّهمًا بخيانة أو كذب أو تلوّن فلا اطمئنان بحقيقته، فليكن صاحبه على حذر واحتراز حتى يعرف دخيلته ويثق بإخلاص.

لا خيرَ في الودِّ ممن لا تزالُ له   مستشعرًا أبدًا من خيفةٍ وجلا
إذا تغيَّبَ لم تبرحْ تسيءُ به   ظنًّا وتسألُ عمّا قالَ أو فعلا

السادسة والثلاثون: المصانعة لا المصارعة:

(سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ):

القعود: البعير الذي يقتعده الراعي في كل حاجة.

والدهر قعود الإنسان وله فيه مقاصد ورغاب تتأتّى تارة وتأبى أخرى.

فعلى المرء السعي لنيل طلابه مادام الدهر له مسالمًا، فإن حرن أو هاج ولم يسلم له قياده فلا يغالبنه ظنًّا منه أن يكبح جماحه ويلوي عنقه ويقوده بخطامه، فربما ركله وأطاح براكبه وأناخ بكلكله على كلكله، إذن هي المرونة والمساهلة واغتنام الفرص زمن الإقبال، فإن تنكّر الزمان فلا جدوى في المغالبة والتمرد.

والحق إنها دعوة حكيمة لفهم الزمان وتقلّب الأحوال وجميل التعامل في السرّاء والضرّاء واليسر والعسر.

إذا الدهرُ أعطاك العنانَ فسِرْ به   رويدًا ولا تعنفْ فيصبحَ شامسا

السابعة والثلاثون: المغامر يخسر ما لديه ويفوته ما أمَّل:

(وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ):

الأمل يحدوه والطمع يغريه فلا يقنع بما في يده بل يتطلع إلى زيادة مضطردة ويبالغ في ذلك فيوجه موجوده راجيًا عائدته بإضعافه فيخسر رأس ماله ولا ينجح سعيه في تحقيق غرضه فيؤوب بخفي حنين.

وليست الحكمة تعني الاستثمار وإنماء المال والتماس وجوه السعة ومنافذها.

وإنما هي الدعوة إلى التروي، وعدم الطمع والاسترسال دونما رعاية للضوابط.

وقد شهدنا ما حلَّ بالساحة من الطامة العظمى التي عصفت (الأسهم) فأتلفت الأموال، وخيبت الآمال، وجرَّت الويلات، وأعقبت الحسرات، وعمَّ بلاؤها وتفاقمت محنتها.

الثامنة والثلاثون: اللجاج يصرع ممتطيه:

(وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ):

جمح: الفرس غلب راكبه في الجري فلم يقدر أن يثني رأسه، والرجلُ: إذا ركب هواه فلم يردّه شيء[1].

فلكل شيء ميزانه، ولكل غاية نهجها ولكل حمل دابته ولكل حق وسيلته.

---

(١) معجم متن اللغة ١/ ٥٦٣.

وإذا لم تجر الأمور مجاريها، وموازينها، وتنكب جدد سبيلها فقد انحرفت ومالت وضلَّت ولم تبلغ مقصدها.

والخصومة لها آلاتها وأساليبها فإن حققت غرضها المرجو فذاك وإلا فلا يبالغ فيها فتبلغ (اللجاجة) والإصرار على النزاع فـ(إن للخصومة قُحمًا) أي تقحم أصحابها في المهالك والمتالف في الأكثر[1].

وبئس المركب مركب يودي بصاحبه ويرديه.

وإن التبس الأمر فلتجتنب:

«وَإِيَّاكَ والعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا أَوِ التَّسَقُّطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنكَّرَتْ»[2].

فإن آفتها:

«اللَّجَاجَةُ تَسُلُّ الرَّأْيَ»[3].

فتنزعه وتذهب به.

التاسعة والثلاثون: حقوق الإخوان وعلاج الخلل فيها:

ولقد أودع الإمام عليه السلام في القطعة التالية حكمًا عالية، وهديًا بالغًا وأدبًا بارعًا ونظرًا ثاقبًا، عالج فيه مايشوب علائق الأخوة من كدر، ويعكرها من

---

(١) من غريب كلامه عليه السلام، نهج البلاغة/ ٥١٧.

(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣/ ٤٤٤.

(٣) نهج البلاغة، حكمة ١٧٩/ ٥٠١.

صفو، ويباعدها من قرب لتعود إلى وئام كان يسودها، ومحبة متبادلة، وعرى وثيقة، وأخوة صادقة.

وسنلاحظ في هدي الإمام وحكمه تركيزه على الجانب الإيجابي لعلاج الجانب السلبي فيجعل الإحسان دواء لداء الإساءة وهكذا في كل متقابلين من فضائل الأخلاق ورذائلها.

وإليك جريدة الصلاح والإصلاح:

(احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى البَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى العُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ):

١ ـ القطيعة والصلة:

فإن هو قطع صلته كما حرمه أخوه فقد شاركه في القطيعة والصرم، واستحكمت بذلك النفرة، واتسعت الشقة.

ويستبطن العلاج معاناة ويحمل ثقلًا:

معاناة المرارة الناجمة من قطع حبل المودة، والباعثة على المماثلة والمقابلة.

وثقلًا يستنهض عزيمة لاطّراح وحمل النفس وحثّ الخطى لتحقيقه.

قال ابن الأنباري:

وكم من قائلٍ قد قال دَعْهُ ... فلم يكُ وُدُّهُ لك بالسليمِ

فقلـتُ إذا جزيـتَ الغـدرَ غـدرًا   فـما فضـلُ الكـريمِ عـلى اللئـيمِ
وأيـــن الإلـــفُ يعطفنـــي عليـــهِ   وأيـــن رعايـــةُ الحـــقِّ القـــديمِ

٢ ـ الصدّ والمقاربة:

فربما ضاقت نفسه فمال بوجهه عنك صدودًا، فإن صددت عنه كما فعل تباعدتما واتسعت الهوَّة والشقة.

فالخير في الالطاف به بما يبعث على إقباله قولًا وعملًا، وباستمالته والارفاق وتألفه حتى يعود إلى سابق عهده.

٣. الجمود والبذل:

فمن الخلق الكريم سماحة نفسي الأخوين فإذا ما انقبضت نفس أحدهما وبخلت فلتبسط نفس الآخر ولترشح بالعطاء وتجود بالبذل.

٤ ـ البعد والدنوّ:

فإن جدَّا في بعدهما فقد افترقا فلا يلتقيان، أما إذا سعى إليه أدركه قبل نأيه وأوصل حبله بحبله فعاد بعد البُعدِ قريبًا.

٥ ـ الشدَّة واللين:

فإذا اشتدّا معًا فلا يرجى اجتماعهما، وإذا لان أحدهما أوشك أن يلتئما فذاك عامل القطيعة وهذا باعث الصلة.

٦ ـ الجرم والعذر:

فإن اعتد ما اقترفه في حقه جرمًا فقد يقابله بمثله، أو يقطع صلته به، أو حمل في نفسه عليه.

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تلمّه   على شعثٍ أي الرجالِ المهذّبُ

أما لو التمس له عذرًا فيما أقدم عليه وارتكبه فقد هان أمره إذ لم يظن فيه سوء فلم يغيره عليه، وبقيت منزلته كما كانت.

والظاهر أن المعنى ما ذكرتُ، لا أنه إذا ما جاء معتذرًا عن جرمه وتقصيره فعليه أن يقبل عذره ويصفح عن ذنبه، فإن الحكمة جاءت بـ(العذر).

٦ ـ الصديق مولى ذو نعمة:

وقد تكون هذه الجملة الجميلة تتمة للحكمة سابقتها حاملة على المبالغة في ترويض النفس على ما هو أولى بـ(الاعذار) وترقى إلى النظر إليه بعين ترمقه مولى وله منَّة.

وتحتمل أن تعتبر بندًا قويًا يحكم شؤون الصداقة والعلاقة الأخوية ومنهجًا مثاليًا فيما ينبغي أن يسود بين الصديقين كل منهما للآخر سواء أيام الصفاء وأيام شوبها بالجفاء.

والحق أنها تمثل الخلق الأعلى والخِلَّة المثلى في عقد رابط الأخوة والصداقة وعلائق الإخوان والأصدقاء.

وهي قمينة أن ينظر إلى ما ترمي إليه بما تستحق من الفكر العميق والتأمل

الدقيق ولا تؤخذ مجردةً عن ضوابط الحقوق الأخرى كما سنلاحظ ذلك فيما يأتي.

٧ ـ المقياس الصحيح للوظائف والحقوق: الموضع، الأهل:

(وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ):

ولافتٌ يحمل دلالة أن يصدِّر الإمام عليه السلام الجملتين بأداة تحمل النهي الأكيد، والزجر الشديد.

وما ذلك إلا إحكامًا للضوابط وإبرامًا للقيود والحدود وإعلامًا بنصب محور ومدار.

ولقد سبق منه عليه السلام التنبيه والتنويه على هذا في قوله: «**إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقًا كَانَ الْخُرْقُ رِفْقًا رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالدَّاءُ دَوَاءً**»، ونحوه وسيأتي نظيره.

وإن هذه الحكمة حكمٌ حقٌّ وفيصلٌ عدلٌ وميزان قويم وقسطاس مستقيم.

فربما انقلبت وتبدلت المواضع التي تقابل بالصلة والإقبال والندى والإفضال، واللين والإرفاق، فلم تعد مواطن تعمر بكرائم الأخلاق، بل ينحصر إصلاحها بما يستأصل فسادها، ويعمر خرابها.

وربما حمقت العقول، ودنئت النفوس فلم تعد للإحسان أهلًا ولا للمعروف والخير محلًا.

هذا وقضية الأخوة تعيش في واقع المجتمع والأمة وقد علّق عليها أدوار

ومن ورائها آثار فلا محيص من حياطتها، ورعاية عوامل بقائها، وقطف ثمارها.

وقد أبدع الشعراء فنظموا الحكم عقود لؤلؤ ومرجان فقالوا:

ومن يصنعِ المعروفَ في غيرِ أهلِهِ يلاقي كما لاقى مجيرُ أُمِّ عامرِ

فقل لذوي المعروفِ هذا جزاءُ من غدا يصنعُ المعروفَ مَعْ غيرِ شاكرِ

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ وإن أنت أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدا

٨ ـ ومن لوازم الصداقة:

(لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ):

وحيث يتم بناء الصداقة على أساس قويم وقاعدة ثابتة فلم يتخذ صديقًا إلا بعد ارتضاء دينه وخلقه، وخلوص صداقته وصدقه.

ومن شأن الصديق المرتضى وخلائقه ألّا يعمد إلى عدو صديقه فيعتدّه صديقًا فيكون صديقًا للمتعاديين.

ولا يخفى أن مورد هذا المنع والتحذير في مصادقة العدو الذي لا يرتضى في ذاته ولا تحمد خلائقه فيكون الجمع بينهما صلة بين المرضي ومن لا يرتضى وهما متنافيان فتشوب صداقته للأول الشوائب.

أما لو كان باعث الخلاف والاختلاف تغاير في المزاج والسليقة والرؤى مما لا يتنافى والصداقة فلا ضير. فلكل طبعه ونمط تفكيره.

نعم إن ذلك ـ عادة ـ من معكّرات الصداقة، ومما تضيق به النفوس لما طبعت عليه من حب الانسجام، واتفاق الميول والعواطف.

ويشمل هذا النظر لمن اعتدَّهم الإمام عليه السلام أصدقاء وأعداء.

«أَصْدِقَاؤُكَ ثَلاَثَةٌ وَأَعْدَاؤُكَ ثَلاَثَةٌ فَأَصْدِقَاؤُكَ صَدِيقُكَ وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ وَأَعْدَاؤُكَ عَدُوُّكَ وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ»(١).

وقال رجل للإمام: إني أحبك وأحب معاوية.

فقال الإمام: أنت أعور الآن، ونهايتك العمى أو الشفاء من العور(٢).

ومما جاء في شعر الحكمة:

تـــودُّ عـــدوّي ثـــم تـــزعمُ أننـــي ... صديقُكَ إن الرأيَ عنك لعـازِبُ

إذا صـافى صـديقُك مـن تعـادي ... فقـــد عـــاداك وانقطـــعَ الكـــلامُ

٩ ـ النصيحة الخالصة:

(وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً):

فالأخ يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكرهه لنفسه، فزينه زينه، وشينه شينه، فإذا من أخيه خلة لا تحسن سعى لإصلاحها فيمحضه النصح.

«عن أبي جعفر عليه السلام: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لينصح الرجل منكم أخاه

---

(١) نهج البلاغة، حكمة ٣٩٥/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٥٢٢.

كنصيحته لنفسه»[١].

ولا يمنعه من القيام بحقه أن لا يروق له ذلك، ويثقل عليه فيعد النصيحة قبيحة، كلّا فهي كالحسنة، فكلاهما تأخذ به إلى الاستقامة والكمال، بل يعد ترك ذلك غشًا ولا مبالاة.

ومقولة الإمامعليه السلام نسق قولهصلى الله عليه وآله: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، فقيل: كيف أنصره ظالمًا؟ فقال: تردُّه عن ظلمه، فذاك نصرك إياه»**[٢].

وللإمام الحكيم الرباني مشاهد وشواهد في النصح والنصيحة:

«وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلاَّ خُبْثُ السَّرَائِرِ وَسُوءُ الضَّمَائِرِ فَلاَ تَوَازَرُونَ وَلاَ تَنَاصَحُونَ»[٣].

«فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ العَالِمِ الُمجَرِّبِ تُورِثُ الحَسْرَةَ وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الحُكُومَةِ أَمْرِي وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الُمخَالِفِينَ الجُفَاةِ والُمنَابِذِينَ العُصَاةِ حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَـرْتُكُمْ أَمْـرِي بِمُنْعَـرَجِ اللِّـوَى　　　فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلاَّ ضُحَى الغَدِ[٤]

---

(١) الكافي ٢/ ٢٠٨.

(٢) كشف اللثام، للفاضل الهندي ١٠/ ٣٠٦.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٣/ ١٦٨.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٥/ ٧٩ ـ ٨٠.

«وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ وَاعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ»(١).

أي احبسوها على أنفسكم لا تتركوها فتضيع منكم، والجملة ختام خطبتهعليه السلام بعد ليلة الهرير.

وقال معاذ بن مسلم:

نصـحتُك والنصـيحةُ إن تعـدَّتْ   هـوى المنصـوحِ عـزَّ لهـا القبـولُ
فخالفـتَ الـذي لـك فيـه حـظٌّ   فغالــتْ دونَ مــا أمَّلْــتَ غــولُ

وبعد..

فبالنصح يُقَوَّم المعوج، ويبطل الباطل، ويحق الحق، وتعمر الحياة، والحق وإن كان ثقيلًا ومرًا إلا أنه يبلغ به خير العواقب.

١٠ ـ جرعة الغيظ حلوة:

(وَتَجَرَّعِ الغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً):

والإنسان في طبعه نفس ثائرة، تستفزّه الكلمة النابية، وتهيّج عاطفته الحركة المزعجة، ويخرج من إهابه لانتقاص قدره، فماذا هو صانع؟

فإن انفعل بغضبه فقابل الكلمة بمثلها فيسمع كلمات جارحات، وهكذا لو قابل التصرف المشين بمثله، وقد يستشري الأمر بما لا يحمد عقباه، ويجر من ويلات، أما لو ملك عقله وملكه عقله وتصبر على ما سمع ورأى، وإن عانى في ذلك ما عانى من إغراء النفس بالمقابلة بدافع حفظ الكرامة، وعدم

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٢١/ ١٧٨.

الاستكانة للمذلة، فيتميز غيظًا فتفلت أعصابه وينطلق لسانه وسنانه.

أجل.. لو تجرع الغيظ ومرارته أنًّا قليلًا فإن سورة الغضب ستذهب، وجمرته تنطفي، وينعم بالسلامة، ويغنم بالمسكة والتماسك، فتقلب المرارة حلاوة باقية لذيذة المنال والمآل، فالصبر محمودة عواقبه، ومن جميل المثل: (الحلم مرارة ساعة وحلاوة الدهر كله).

وقد بثَّ الإمام في جواهر كلمه وغرر حكمه دررًا من محاسن كظم الغيظ، وحُلي أهل الإيمان، وحذَّر من الثائرة والثأر والانفعال من بواعث الغيظ.

أ) «**فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مِنَ العَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الخِصَالِ وَمَحَامِدِ الأَفْعَالِ وَمَحَاسِنِ الأُمُورِ الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الُمجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ العَرَبِ وَيَعَاسِيبِ القَبَائِلِ بِالْأَخْلاَقِ الرَّغِيبَةِ والأَحْلاَمِ العَظِيمَةِ والأَخْطَارِ الجَلِيلَةِ والآثَارِ المَحْمُودَةِ فَتَعَصَّبُوا لِخلاَلِ الحَمْدِ مِنَ الحِفْظِ لِلْجِوَارِ والوَفَاءِ بِالذِّمَامِ وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ والمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ والأَخْذِ بِالْفَضْلِ والكَفِّ عَنِ البَغْيِ والإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ والإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ والكَظْمِ لِلْغَيْظِ**»[(١)].

ب) وكتب عليه السلام لابن عباس:

«**فَلاَ يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ**»[(٢)].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٢/ ٢٩٥.

(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم ٦٦/ ٤٥٧.

ج) وكتب عليه السلام إلى الحارث الهمداني:

«**وَاكْظِمِ الغَيْظَ وَتَجَاوَزْ عِنْدَ المَقْدَرَةِ وَاحْلُمْ عِنْدَ الغَضَبِ وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ**[1] **تَكُنْ لَكَ العَاقِبَةُ**»[2].

د) ونبه عليه السلام على موبقة الغيظ لسوء ما يجر إليه:

«**أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا لاَقِيًا رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهلاَكِ نَفْسٍ**»[3].

هـ) ومما عدَّد من حلية المؤمن:

«**مَيِّتَةٌ شَهْوَتُهُ مَكْظُومًا غَيْظُهُ الخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ**»[4].

ومما جاء في شريف الأحاديث:

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول: «**ما أحبُّ أن لي بذل نفسي في حمر النعم، وما تجرَّعت جرعة أحبُّ إليَّ من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها**»[5].

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «**نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها، فإن عظيم الأجر لمن عظيم البلاء، وما أحب الله قومًا إلا ابتلاهم**»[6].

---

(١) أي عندما تملك السلطة والقوة.
(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم ٦٩/ ٤٥٩.
(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٥٣/ ٢١٤.
(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٣/ ٣٠٥.
(٥) الكافي ٢/ ١٠٩ ـ ١١٠.
(٦) الكافي ٢/ ١٠٩ ـ ١١٠.

قال أبو عبدالله عليه السلام: «**ما من عبد كظم غيظًا إلا زاده الله عز وجل عزًا في الدنيا والآخرة، وقد قال الله عز وجل ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وأثابه الله مكان غيظه ذلك**»(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**من كظم غيظًا وهو يقدر على إمضائه حشا قلبه أمنًا وإيمانًا يوم القيامة**»(٢).

وعن علي بن الحسين عليهما السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مِن أَحبِّ السبيل إلى الله عز وجل جرعتان: جرعة غيظ تردُّها بحلم، وجرعة مصيبة تردُّها بصبر**»(٣).

وأحسب أن الحث والبيان بهذا النحو يمثل تربيةً وترويضًا لغلبة النفس والهوى العاطفي وكبح جماحهما فتنقاد لتجرع غصة الغيظ المرَّة واستمرائها واستساغتها لجميل عاقبتها، وحسن مغبَّتِها.

١١ ـ واللين يثمر:

(وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ):

فمغالظة من غالظ تعني مقابلة الشدة بمثلها، فما عساها إلا أن تثمر بُعدًا وافتراقًا وشرًا.

وأما اللين فإنه يقطع على المغالظ استرساله وفورة دمه، ولعله يفاجأ بما لم يتوقع من طيب النفس وسهولة الخلق ولين العريكة، فتهدأ أعصابه، وتسكن

---

(١) الكافي ٢/ ١٠٩ ـ ١١٠.
(٢) الكافي ٢/ ١٠٩ ـ ١١٠.
(٣) الكافي ٢/ ١٠٩ ـ ١١٠.

نفسه، ويبرد غيظه، فكما لنت له يلين لك، وتنجلي بذلك العاصفة الهائجة، وتسكن الرياح العاتية، وتلك السلامة المطلوبة، والعافية المحبوبة.

١٢ ـ الإفضال الظفر الأحلى:

(وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ):

فغلبة العدو نصر، والنصر يبعث العزة والفخر، ويدعو إلى الانتقام، وإذلال المغلوب.

وهذا خلق الطبيعة السبعية، وهو ما يشفي غليلها، ويطفئ غيظها، كما يحقق ظفرها.

وأما التربية القويمة، فلا تتنكر للعاطفة إن انفعلت بحق، فذلك ميزان عدل، ومجازاة بقسط.

ولكنها تغرس في ذاتهم ما هو أجمل وأكمل، إلا وهو: شرعة الإفضال.

فتثمر العفو، وتخصب بالإحسان على من كانت مؤاخذته عدلًا وحقًا، والقدرة عليه ظفرًا.

فما أجمله من نصر، وما أحلاه من ظفر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[1].

﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[2].

---

(١) سورة النحل / ٩٠.

(٢) سورة البقرة / ٢٣٧.

وأحسب أن في قولهعليه السلام: «**وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ**» لطفًا دقيقًا.

فقد يتخذ السلاح آلة للانتقام والإزهاق.

وقد يستبدل ذلك بسلاح آخر للإنعام والإرفاق وذاك يؤذي ويفني وهذا يغني ويبقي.

فلا غرو أن يعتدَّ الإفضال أحد الظفرين وأهدى النهجين.

١٣ ـ خط الرجعة لصلة المقطوع:

(وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْمًا مَا):

فالصفاء يعرضه الجفاء، والعلاقة يعقبها الانفصام، والقرب يقوض بالبعد، فحياة الأخلّاء ينغّصها الكدر، ويشوبها المعكر فهي عرضة الاختلاف، وتغيُّرِ الأحوال.

وهنا تتجلى الحكمة فيمن يتحلى بأبرادها:

فاستقامة العلائق الأخوية قيامها على قواعدها المحكمة لتبقى محكمة وسالمة.

وإذا طرأت عوارض الفرقة والاختلاف فتعالج بما يصلح الخلل.

فإذا كانت القطيعة هي الخيار الأخير فلا تكن بائنة لا تحتمل رجعة، فتقوض فرص عودة العلاقة إلى سابق عهدها.

بل يبقى من الصلة ما يكون سبيلًا لالتئامها فيما لو تأتى للحبل أن يوصل

وللنقض أن يبرم.

وهذه لفتة رائعة لحياطة (الأخوّة) ورعاية حقوقها، والحفاظ على سلامتها واستقامتها بكل سبيل.

وقد يلتقي بمضمونها في بعض جهاتها حكمة الإمام عليه السلام «**أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا**»[١].

وقال الصادق عليه السلام: «**لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه، فيسد عليه طريق الرجوع إليك، فلعل التجارب ترده عليك**»[٢].

١٤ ـ مكافأة ظن الخير:

(وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدِّقْ ظَنَّهُ):

فالمؤمن خيره مأمول، وقد تعلق به ظن أخيه الحسن، فالجدير به ألّا يخيِّب له ظنًّا، بل يصدّق ويحقّق ظنّه.

وتلكم هي الأريحية، والنفس الكريمة، وحفظ الكرامة، وصون ماء وجه من يسل.

ومن طريف ذلك:

أتى أعرابيٌّ قثمًا ـ والٍ من بني العباس ـ فقال:

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٦٨/ ٥٢٢.

(٢) بحار الأنوار ٧١/ ١٦٦.

يـا قـثم الخـير جُزيـتَ الجنـهْ   أكْـسُ بُنَيَّـاتي وأمهنـهْ

أقسـم بـالله لَتفعلنَّـهْ

فقال قثم: والله لا أفعل، فقال الأعرابي: لكن لو أقسمت على معن بن زائدة لأبرَّ قسمي، فبلغت الكلمة معنًا فبعث إليه ألف دينار[١].

وقال الشاعر:

لا تجـبهنْ بـالردِّ وجـهَ مؤمِّـلٍ   فبقـاء عـزِّكَ أن تُـرى مـأمولا[٢]

١٥ ـ التقصير في الوفاء بحق الإخوة إضاعة لها:

(وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ):

فحبل الأخوة وثيق موصول ممدود، وبقاؤه كذلك مرهون برعاية الحقوق، ودوام التعاهد، وحسن التفقد.

فمن المنافاة للأخوة المجافاة، بترك وظائفها اتكالًا على استحكامها، فلا تثريب في عدم الوفاء بشؤونها اتكاءً على مقولة:

(بين الأحباب تسقط الآداب).

كلّا فإن الأخوة من أسمى الصفات، ومن أمتع ما في الحياة، فجدير لها أسنى الصلات، وأوفى الباقيات الصالحات.

---

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(٢) بهج الصباغة ٨/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

وما أجمل تعبير الإمام عليه السلام وأجله موقعًا وغرضًا:

«فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه».

إذن فإضاعة الحقوق نفي للأخوة، وهدم لبناء راسخ الأركان مشيد الدعائم.

هذا وحديث حقوق الأخوة ورعاية وظائفها واسع مستفيض، وثيق مؤكد.

١٦ ـ الأقربون أولى بالمعروف:

(وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الخَلْقِ بِكَ):

فالقربى رحمٌ ماسَّة، ولُحمة وشيجة، أقرب الخلق إليه نسبًا، وأعلقهم به نوطًا، وهم أصوله التي تفرع منها، وفروعه التي هو أصلها.

فخيره يغمرهم، وبرّه يشملهم، وعنايته تغشاهم، وعينه ترعاهم، وقلبه ينبض بحبهم، ويده ممدودة بصلتهم، وعفوه يصفح عن هناتهم، ويقيل عثراتهم.

والمؤمن الكريم خيره مأمول وشره مأمون حتى لمن بَعُدَ نسبه، وضعف سببه، فكيف بحامَّته وأهله وخاصته فهم بذلك أولى وهو بالإحسان فيهم أحرى.

وإذا ما عممنا مدلول (الأهل) إلى:

«أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما من

صناعة وبيت وبلد»[١].

فيعني ذلك سعة دائرة الخير، وشمول الإنعام والإحسان، في المجال الأرحب وإن لم يكونوا رحمًا ماسَّة، ولم يعدُّوا من الأهل شرعًا وعرفًا.

وذلكم خلق كريم، وسجية جميلة، والأقرب بالإفضال أولى وأجدر.

ويعود من المفارقة سعادة الأبعد وشقاء الأدنى.

هذا وسيأتي في ختام وصيته الشريفة حثُّه عليه السلام على إكرام العشيرة.

١٧ ـ الزهد في الزاهد فيك:

(وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ):

وقد جاءت الحكمة في بعض من النسخ بلفظ (زهد عنك) وفي كثير منها (فيك) وهو الصواب كما قال الشارح الشيخ التستري[٢].

فقوام الأخوة التقاء رغبة مشتركة، وإلا فإذا كانت من طرف واحد فقط فقد انحلت عقدة الصلة والارتباط، بل لم تنعقد حتى تحل.

ولنعم ما قال الحكيم البحراني رحمه الله:

«وأراد بمن زهد فيه من ليس للصنيعة موضعًا، ولا للمودة أهلًا، وإلا لناقض ما قبله وما بعده من الأمر بصلة من قطعه، والدنو ممن تباعد عنه، والإحسان إلى من أساء إليه»[٣].

---

(١) مفردات غريب القرآن / ٢٩.

(٢) بهج الصباغة ٨/ ٣٢٥.

(٣) شرح نهج البلاغة ٥/ ٥٦.

إذن فهي في أساس تكوين بناء الأخوة وإقامتها لا في إصلاح خللها ومعالجة عللها.

ومما وصف به إمام المتقين عليه السلام المتقين:

«بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ»[1].

ومن جليل حكمه عليه السلام:

«زُهْدُكَ فِي رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ وَرَغْبَتُكَ فِي زَاهِدٍ فِيكَ ذُلُّ نَفْسٍ»[2].

ويلتقي هذا وحكمته العالية الأخرى:

«وَلاَ تَأْمَنَنَّ مَلُولًا»[3].

ومما جاء في شعر الحكمة في ذلك:

ما زلت أزهد في مودة راغبٍ　　　حتى ابتليت برغبة في زاهد
هذا هو الداء الذي ضاقت به　　　حِيَلُ الطبيب وطال يأس العائذِ

١٨ ـ قوة القطيعة والصلة:

(وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ):

وفي ذلك إهابة بالمؤمن وحث له على وصل من قطعه، فكلا الخلقين الممدوح والمذموم منبعثان عن قوة وقدرة، أعملت احداهما في الشر والأخرى في الخير.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٣/ ٣٠٦.
(٢) نهج البلاغة، كلمة رقم ٤٥١/ ٥٥٥.
(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢١١/ ٢٠٥.

فيُربأ بالمؤمن أن يتملكه الضعف ويغلبه الوهم فيتراخى عمَّا فيه كماله ويضرى الآخر ويشتد فيما عليه وباله فيشتركان في التبعة وإن كان حِمْلُ القاطع ثقيلًا.

وتلتقي الحكمة بالتوجيه الرشيد:

(صل من قطعك) و(أحسن إلى من أساء إليك) وما سبق من قوله عليه السلام: «**احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ**».

١٩ ـ الإساءة والإحسان:

(وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَةِ أَقْوَ ى مِنْكَ عَلَى الإِحْسَانِ):

وقد يلوح من جملة من الشرّاح ربط هذه الحكمة بسابقتها، ويمكن اعتدادها تأسيسًا وبيانًا لهدي مستقل في ذاته وإن شملت غيره وأكّدته.

فالإنسان مادام قادرًا على اكتساب المكارم، وصنع الخير والعفو والإحسان فالجدير به والمنسجم مع إيمانه وكماله اصطباغ خليقته بذلك.

فهو إعمال قدرة خيّرة يمتلكها، والبواعث إليها جمَّة، ولم يمنعه دونها مانع، ولم يحل بينه وبينها حاجز.

وهو كذلك قادر على الإساءة والقطيعة والهجر والإعراض والمؤاخذة والتعامل بالمثل.

فهو في ذلك يقوى على الخلتين، والتخلق بالخلقين، فليوجه تلكم القوة في أجمل مواطنها وخير مظانها فهو بذل أولى وأجدر.

٢٠ ـ لا استعظام لظلم من ظلمك:

(وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ):

الظلم ظلماتٌ، «ومرتع مبتغيه وخيم».

ولكن خير للإنسان أن يكون مظلومًا محسودًا لا ظالمًا حاسدًا، وإذا وقع عليه الظلم وعصف به، فليهن ذلك عليه، ولتهدأ نفسه، ويسكن قلبه.

فإن الظالم بسوء فعله قد أساء إلى نفسه وتناله مغبته عاجلًا أو آجلًا، فما أراد به إضرار غيره عاد عليه هو بالضرر فعلى نفسه جنى.

والمظلوم وإن جرى عليه ظلم الظالم فإن الله العدل ناصره ومنتقم له في الدنيا والعقبى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ و«يوم المظلوم الظالم على أشد من يوم الظالم على المظلوم»، فالظالم عذابه شديد طويل يوم المؤاخذة والقصاص، والمظلوم ظلم في فترة من حياته منقطعة، ويعقبها نصر من الله واستيفاء الحق أحوج ما يكون له، فكأن الظالم أسدى للمظلوم نفعًا، وأفاده خيرًا.

٢١ ـ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان:

(وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ):

وهو نظام عدل، وشرعة إنصاف، وميزان حق، فلا تستوي الحسنة والسيئة، ولا يقابل المعروف بالمنكر، ولا الإحسان بالكفران.

وإذا كان اللائق الإحسان إلى المسيء فمن أولى مقابلة الإحسان بمثله، إن لم يكن بأوفى منه.

واعتدَّ البعض حكمة الإمام عليه السلام هذه تتمة وتعليلًا لسابقتها «فإنه يسعى في مضرته ونفعك»، ولم يرتضِ هذا التفسير العلّامة مغنية انطلاقًا من منافاة ذلك (الإحسان) لما يجب من التعامل وردة الفعل تجاه الظالم.

«ونسي هذا الشارح وجوب الجهاد ضد البغي، وإن مات دون عقال من ماله مات شهيدًا، وأنه لا معنى للعدل إلا الضرب على أيدي المعتدين، وأن السكوت عليهم هو تشجيع للفساد في الأرض»[1].

وآخر اعتبرها قولًا مستأنفًا، وكلامًا مستقلًا، ولا ضير أن تكون منطبقة على النحو الأول المرتبط، وإن كانت ظاهرة في المعنى الثاني المؤصل لحسن المكافأة، وامتداد المعروف، ودوام شكر النعمة، بدلًا من كفرانها، والتنكر لها.

الأربعون: الرزق والمال وفوتهما وإدراكهما والبصيرة في ذلك:

وحيث تتجه الحكم العالية الآتية لما يليق بالمؤمن من بصيرة في نظرته للمال وامتلاكه وفقده وحسن التعامل وجميل الانفعال والتفاعل في شؤونه أفردته بعنوان لنقف على هدي الإمام عليه السلام وبصائره وتبصيره وبعد مراميه وسموّ أهدافه وبديع سننه.

فأولًا: الرزق طالب ومطلوب:

(وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ):

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٥٢٣.

وجدير الالتفات إلى:

أ) أن المولى ـ جمّت آلاؤه وعظمت نعماؤه ـ هو الخالق الرازق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[1]، فما شقَّ فمًا إلا وتكفّل برزقه وقدَّره له.

فرزق يأتيه وإن لم يسعَ له، كالميراث يأتيه من حيث لا يحتسب ما يغنيه والهدية ممن لا يرجو، وذلك شأن من شؤون الربوبية الرحمانية.

كان للخيل بن أحمد رضي الله عنه «راتب على سليمان بن حبيب بن المهلّب بن أبي صفرة الأزدي، وكان والي فارس والأهواز، فكتب إليه يستدعيه، فكتب الخليل جوابه:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة ... وفي غنًى غير أني لست ذا مالِ
شحًّا بنفسي أني لا أرى أحدًا ... يموتُ هُزلًا ولا يبقى على حالِ
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ... ولا يزيدك فيه حول محتالِ
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ... ومثل ذلك الغنى في النفس لا المالِ

فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل:

إن الذي شقَّ فَمِي ضامنٌ ... للرزقِ حتى يتوفّاني
حَرَمْتَنِي خيرًا قليلًا فما ... زادَكَ في مالِكَ حرماني

فبلغت سليمان فأقامته وأقعدته، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه، وأضعف راتبه، فقال الخليل:

---

(١) سورة الذاريات / ٥٨.

وزلـةٍ يكثـرُ الشـيطانُ إِنْ ذُكِـرَتْ   منهـا التعجُّـبَ جـاءتْ مـن سـليمانا
لا تعجـبنَّ لخـيرٍ زلَّ عـن يـدِهِ   فالكوكبُ النحسُ يَسْقِي الأرضَ أحيانـا»[1]

ب) أن على المرء السعي إلى تحصيل رزقه من موارده النقية، فتلك وظيفته، فربما أصاب وربما خاب، غير مقصِّر اتّكالًا على تكفّل المولى له برزقه بل يسعى متوكّلًا عليه.

والأمر في ذلك كله للحكيم المدبّر والمالك المقتدر.

والناظر في أنحاء جريان أرزاق الخلائق يقف على العجب العجاب، فمن حديث ذلك:

«وكان عروة بن أذينة كثير القناعة، وله في ذلك أشعار سائرة، وكان قد وفد من الحجاز على هشام بن عبد الملك بالشام في جماعة من الشعراء، فلما دخلوا عليه عرف عروة، فقال له: ألست القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خلقي   أن الذي هـو رزقـي سـوف يـأتيني
أسـعى لـه فيُعَنِّيـني تطلُّبـه   ولـو قعـدت أتـاني لا يعنينـي

وما أراك فعلت كما قلت! فإنك أتيت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق.

فقال: لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالغت في الوعظ، وأذكرت ما أنسانيه الدهر، وخرج من فوره إلى راحلته فركبها وتوجّه راجعًا إلى الحجاز، فمكث هشام يومًا غافلًا عنه، فلما كان في الليل استيقظ من منامه وذكره، وقال: هذا

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٦.

رجلٌ من قريش قال حكمة ووفد إليَّ فجبهته ورددته عن حاجته، وهو مع هذا شاعر لا آمن لسانه، فلما أصبح سأل عنه، فأُخبِرَ بانصرافه، فقال: لا جرم ليعلمنَّ أن الرزق سيأتيه، ثم دعا بمولى له وأعطاه ألفي دينار، وقال: الحق بهذه عروة بن أذينة فأعطه إياها، قال: فلم أدركه إلا وقد دخل بيته، فقرعت عليه الباب، فخرج وأعطيته المال فقال: أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له: كيف رأيت قولي؟ سعيت فأكديت، ورجعت إلى بيتي فأتاني فيه الرزق[١].

وطريفة أخرى:

كان ابن باشا النحوي يومًا في سطح جامع مصر وهو يأكل شيئًا وعنده ناس، فحضرهم قط فرموا له لقمة فأخذها في فيه وغاب عنهم ثم عاد إليهم فرموا له، وتردد مرارًا وهم يرمون له حتى عجبوا منه وعلموا أن هذا الطعام لا يأكله وحده لكثرته، فتبعوه فوجدوه يرقى إلى حائط في سطح الجامع ثم ينزل إلى موضع خراب وفيه قط آخر أعمى يحمله إليه ويضعه بين يديه وهو يأكله، فقال ابن باشا: إذا كان هذا حيوانًا أخرس قد سخر الله تعالى له هذا القط وهو يقوم بكفايته ولم يحرمه الرزق، فكيف يضيّع مثلي؟

ثم قطع الشيخ علائقه واستعفى من الخدمة ونزل عن راتبه ولازم بيته واشتغاله متوكلًا على الله سبحانه وتعالى وما زال محروسًا محمول الكلفة إلى أن مات[٢].

---

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ٥١٦ ملخصًا.

«وفي (المعجم) دخل الناشي الأحصى على سيف الدولة فأنشده قصيدة له فيه، فاعتذر سيف الدولة بضيق اليد يومئذ، فخرج من عنده فوجد على بابه كلابًا تذبح لها السخال وتطعم لحومها، فعاد إليه وأنشده:

رأيــتُ ببــاب دارِكُــمُ كلابًــا ... تغــذّيها وتطعمهــا الســخالا

فما في الأرض أدبـرُ مـن أديـبٍ ... يكون الكلبُ أحسنَ منه حـالا

ثم اتفق أن حُمل إلى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال، فضاع منها بغل بما عليه وهو عشرة آلاف دينار، وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشي بالأحص، فسمع حسّه فظنّه لصًّا فخرج إليه بالسلاح فوجده بغلًا موقرًا بالمال، فأخذ ما عليه من المال وأطلقه، ثم دخل حلب ودخل على سيف الدولة وأنشد قصيدة يقول فيها:

ومن ظن أن الـرزقَ يـأتي بحيلـةٍ ... فقـد كذبتـه نفسُـه وهـو آثـمُ

يفوت الغنى من لا ينام عن السُّرَى ... وآخـرُ يـأتي رزقُـهُ وهـو نـائِمُ

فقال له سيف الدولة: بحياتي وصل إليك مال كان على البغل، قال: نعم.

قال: خذه بجائزتك مباركًا لك فيه.

فقيل لسيف الدولة: كيف عرفت ذلك؟

قال: عرفته من قوله»[(١)].

ثانيًا: تماسك النفس محتاجًا وغنيًّا:

---

(١) بهج الصباغة ٨/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(مَا أَقْبَحَ الخُضُوعَ عِنْدَ الحَاجَةِ وَالجُفَاءَ عِنْدَ الغِنَى):

فاللائق بالنفس الإنسانية تبوّء الكمال في عسرها ويسرها ففي ذلك العزَّة والكرامة، والإعطاء والبذل.

والعسر واليسر حالان يعرضان للإنسان في أدوار حياته فما هو انفعاله وتفاعله إبَّانهما؟

أمَّا في عسره فالصبر والعزة شعاره ودثاره، فلا يذل نفسه، ولا يستكين تعرضًا للإسعاف، فالمؤمن أعزَّ من الجبل.

وأما في يسره فالبذل والإحسان خليقته وحليته، غير مانٍّ ولا متكبر معتدًا ذلك نعمة يشكر عليها المنعم عليه بفضلها.

وما أجمل حكمة الإمام عليه السلام الجامعة:

«مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ الأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَبًا لِمَا عِنْدَ اللهِ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ تِيهُ الفُقَرَاءِ عَلَى الأَغْنِيَاءِ اتِّكَالًا عَلَى اللهِ»(١).

وعلى هذا الهدي جاء شعر الحكمة:

خُلقانِ لا أرضاهما لفتى ... تيه الغِنَى ومذلَّةُ الفقرِ
فإذا غنيتَ فلا تكنْ بَطِرًا ... وإذا افتقرتَ فتِهْ على الدهرِ

ثالثًا: خطر ما ينال من الدنيا:

«إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ»:

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٤٠٦/ ٥٤٧.

يطمع المرء أن يحيا في دنياه رافلًا في النعيم، مستجمعًا لما يهواه من ضروب المتع واللذائد، ويعيش الأماني والأحلام حتى ينقطع عن الحياة ولم يحظ من آماله بطائل.

وليس الحديث في بيان تفاصيل ذلك وحدوده مما هو مشروع ولائق، وإنما عناية الإمام تركيزه في حكته العالية تقرير هذه الحقيقة:

إن العاقل الكيِّس ينظر بثاقب رأيه وحصيف فكره ما يحقق له في سعيه في دنياه وإصلاح مثواه.

والمثوى: المقام وموطن القرار:

ولا يقوم ذلك إلا بالكسب الحلال والبذل الحلال كما قررته الضوابط الرائعة الجامعة.

وهذا هو ما ينفقه في حياته وإن جمع أموال الخلائق، وما تجاوز ذلك فهو جامع لغيره مورِّثه لسواه.

فإن كانت الدنيا (مثوى) آنيًّا فليكن همه الحياة الكريمة.

و(المثوى) الحق إنما هي الدار الآخرة، وهي الحياة الحقيقية، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1]، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

فالخير كل الخير في توجيه المؤمن همته لإصلاح مقره في آخرته، ليحصد ما زرع، «الدنيا مزرعة الآخرة».

---

(١) سورة النازعات / ٤١.

(٢) سورة العنكبوت / ٦٤.

والحق إنها الدعوة الواقعية الصادقة لإسعاد النفس في ممرها ومقرها.

فلا رهبانية مبتدعة، ولا حرمان من الطيبات، ولا تهالك في جمع الحطام والفضول، ولا إغفال للآخرة ففيها النعيم المقيم «الجنة قاع صفصف» إنما تبنى وتعمر بالصالحات وتنال راقي الدرجات في أعلى عليين ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾(١).

رابعًا: الأسف على الفائت:

«وَإِنْ كُنْتَ جَازِعًا عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ»:

تتعلق النفس بما جمعت، وتُنشئ علاقة ـ وكأنها روحية ـ تشدّه وتربطه بما ملكت يداه، ويتفاوت الانجذاب تبعًا لقيمتها في ذاتها، وميله نحوها، قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾(٢).

ومن التعبير الدارج عندنا: المال عديل الروح.

ويتجلّى الوله والهيام بالمال جمعًا وحياطةً وتجملًا ومباهاةً وعرضًا حينما يفقده واجده ويتفلَّت من يديه، وهو ما عبر عنه عليه السلام: بـ(الجزع) وهي محنة عاصفة ربما ذهبت بالعقل والدين كما ذهبت بالمال.

---

(١) سورة القمر / ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) سورة الفجر / ٢٠.

ويعالج الإمام الحكيمعليه السلام الابتلاء بذلكم الداء:

بأن الجزع إذا كان لأجل يسير ذهب وولَّى، فالأولى أن يستولي على فاقد الأموال الكثيرة، والنفائس الخطيرة، وعلى كل مالم ينله ويقع في حوزته ودائرة ملكه، وهي أشياء عديدة ووفيرة.

ولو جزع على ذلك كله فهو الحمق الأرعن، والرأي المأفون، فمن الأجدر والأولى عدم الفزع والجزع للشيء اليسير والمتاع الحقير، فلا أسف على ما فات فلا يجديه أسفه، وليس ذلك بمسترجع ما فات.

ولستُ بمدركٍ ما فاتَ مني   بلَهْفَ ولا بلَيْتَ ولا لَواني

وتلتقي الحكمة الشريفة بالنظر إلى الدنيا، وفنائها وعدم الوله بها، واستيلائها على عقل المؤمن ووجدانه ومشاعره وأحاسيسه.

فأين الصبر، والقناعة، والتسليم لقضاء الله وقدره، وحسن تقديره وجميل تدبيره؟!

ولو نظر إلى ما تفلت منه ولم يثبت عنده كأنه لم يصل إليه لهان عليه أمره ولم يأخذ منه مأخذه، ولم يخرج عن دائرة كماله.

خامسًا: وإنما الأمور أشباه ونظائر[1]:

«اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْبَاهٌ»:

وعالم الإمكان والفساد متغير غير مستقر على حال، فلا يبقى عمر، ولا

---

(١) أدرجت العنوان ضمن سوابقه لقربه منها مضمونًا وانطباقًا.

يدوم ملك، «الدنيا متصرفة بأهلها حالًا بعد حال».

وهذه الحقيقة القائمة، والسنة الجارية، فإذا رعاها من خبرها ورآها فهو على بينة من أمرها وواقعها مستدلًا بها وقع على مالم يقع فهو يستقبل نظير ما مضى، غير مفاجئ بجديد الحادثات فقديمها كان وانتهى وما يأتي فهو على شاكلته، وفي ذلك تبصرة وذكرى لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وهو نظام عام لا يشذ عنه شاذ من شؤون الدنيا، فالأموال، والأعمار، والضعف والقوة، والجاه والسلطان، وكافة أمور الدنيا عرضة للتبدل والانتقال والبوار والاضمحلال.

وإنَّ امرءًا قد جرَّب الدهرَ لم يخفْ   تقلّبَ عصريهِ لَغيرُ لبيبِ
وما الدهرُ والأيامُ إلاّ كما ترى   رزيَّةُ مالٍ أو فراقُ حبيبِ

الحادية والأربعون: اتعاظ العاقل:

(وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ العِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ، فَإِنَّ العَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ):

أحكم الله ـ جلَّت عظمته ـ خلق الإنسان، وأكمله بأجمل قدرة يمتاز بها عن شركاء جنسه، يميز بها الخير والشر، ويعقل بها دعوة الحق، ويجليها في الأمور فيوفق لأهداها.

ووصفها خالقها وواضعها فيمن سموا بشرفها بأنهم (أولو الألباب)، كما نعت من أعملها فيما خُلقت من أجله بقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن

يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾(١).

إذن فهذا شأن العاقل في حسن تلقيه لدعوة الحق.

ولا يليق بشرف عقله الغضُّ والإعراضُ فضلًا عن التمرد والتنكر، فيلحف بعظيم الزواجر وبليغ التجريج، وقد يتمادى فلا يردعه إلا الدواهي العظمى، والنوازل الكبرى تحل بساحته الضيقة وإلا فهو يشهد دائمًا صروف الزمان ومكاره الدهر تدور وتطحن المال والأولاد والأحباب والنفائس.

وقد حكى القرآن الكريم أخلاق نبي أمته العظيم موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ * فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾(٢).

وكانت عاقبتهم بعد التكبر والعتو ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾(٣).

---

(١) سورة الزمر / ١٧ ـ ١٨.

(٢) سورة الأعراف / ١٣٢ ـ ١٣٥.

(٣) سورة الأعراف / ١٣٦.

وقد جاء التعليل موجهًا ومميزًا بين الخلق: «العاقل بالآداب، والبهائم بالضرب»، فلا يراد للعاقل إذا التوى أن يمد له سوط أو يقرع بعصا فيكون كالدابة حين يصعب قيامها فلا يُغني نداء عال أو نصح بهدوء بل الذي يجدي ضربها فهو لغة تفهمها ومؤثرة في ضبط مسارها.

والعاقل يربأ بنفسه عن هذه الباءة والمباءة.

ولعل خروج الإنسان وجنوحه إلى العنف أوجب حسم مادة فساده بالحدود والقصاص وما إليها من عقوبات الشدة الرادعة.

ومما ورد: «لولم يعص الخلائق لم يخلق الله النار».

الثانية والأربعون: بالصبر واليقين تقهر الهموم وتذل المصائب:

(اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ):

الحياة مسرح الحوادث ومجمع المكاره، والإنسان هدف يرمى وغرض يصاب، وليس للمرء حيلة في الاحتماء والابتعاد عن النوازل فهو عُرضة شاء أم أبى، بل قد ترد الأحزان على القلب، ويقتلها الفكر قبل حدوثها وربما انصرفت وما ألَّمت، وربما كانت منامًا وخيالاً.

وما ذاك إلا لحب النفس والحياة الصافية من الكدر والتكدير، فما هو الجدير بالعاقل والكيِّس الفطِن وهو مضطرب بين ما يحب ويكره؟

الإمام عليه السلام يحدد نهجًا محكمًا يقوى من يحسن أداءه بإزاحة ذلكم الهم والغم والاضطراب المنيخ، وما يتجدد من فوادح وكوارث تمتد بطبعه امتداد حياته، متمثلًا بعنصرين عظيمين فاعلين:

الأول: عزيمة الصبر:

فإنه الركن الحصين والجُنَّة الواقية، والدرع الدلاص.

والحق.. أنك كلما أمعنت النظر، وأجلت الفكر أيقنت ببالغ هذا العنصر وسر تأثيره وامتداد فاعليته.

فلو لم يحتم الإنسان من عوادي الدهر بحماه ويتسلح بقوته لدفع مكاره الزمن (وهي فواقر محطمة مقعدة) لانهار في أول بارقة لعاصفة تلوح في أفقه ثم تتدنى لساحته.

فالصبر الجميل أجمل، وتجرّع مرارته يعقبها حلاوة عاقبته، وآيات الله البينات وافرات مكررات مقررات وأحاديث الهداة المهديين متواترات ومعلمات وشارحات للأبعاد والآثار الواقعية في النشأتين.

وهكذا فيض الحكم وغرر الشعر وفرائده.

وما ذلك كله إلا أن الحياة بطبعها تزخر بالبلايا وأنماط الرزايا، في الأنفُس، والأنفَس من المال والذخائر، والأولاد والأعزاء والأخلاء، والحرية، والكرامة وما لا يحصى من أسباب العناء وعوامل المحنة والشقاء.

وفي نهج بلاغة الإمام عليه السلام روائع حكم الصبر:

«مَنْ صَبَرَ صَبْرَ الأَحْرَارِ وَإِلّا سَلا سُلُوَّ الأَغْمَارِ»[1].

---

(١) حكمة ٤١٣/ ٥٤٨.

السلو: النسيان.

الأغمار: جمع غمير: الجاهل لم يجرّب الأمور.

وفي نظيرها «صبرَ الأكارم».

«مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ أَهْلَكَهُ الجَزَعُ»(١).

«وإِنْ تَصْبِرْ ففي الله مِنْ كلِّ مصيبةٍ خَلَفٌ، يا أَشْعَثُ، إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ القَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ القَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ»(٢).

وقال عليه السلام في سمات المتقين:

«صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً»(٣).

«وَالدَّهْرُ يَوْمَانِ يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلا تَبْطَرْ وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ»(٤).

«وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ»(٥).

«وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ وَلا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لا رَأْسَ مَعَهُ وَلا فِي إِيمَانٍ لا صَبْرَ مَعَهُ»(٦).

«فَلا يَغْلِبِ الحَرَامُ صَبْرَكُمْ»(٧).

«وَيُقْلِقُكُمُ اليَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ وَقِلَّةِ

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٨٩/ ٥٠٢.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٩١/ ٥٢٧.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٣/ ٣٠٤.

(٤) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٩٦/ ٥٤٦.

(٥) نهج البلاغة، حكمة رقم ٤/ ٤٦٩.

(٦) نهج البلاغة، حكمة رقم ٨٢/ ٤٨٢.

(٧) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨١/ ١٠٦.

صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ»[١].

«لا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ»[٢].

ومن حكمة الشعر:

إن الأمـور إذا انسـدت مسـالكها فالصبر يفتح منها كل مـا ارتتجـا
لا تأســينَّ وإن طالــت مطالبــه إذا استعنت بصبر أن تـرى فرجـا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبـواب أن يلجـا

إني رأيـــت وللأيـــام تجربـــة للصـــبر عاقبـــة محمـــود الأثـــر
وقــلَّ مــن جــدَّ في أمــر يطالبــه واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

العنصر الثاني: حسن اليقين:

فهو أنجع مفزع، وأعود مرجع، يتجلى فيه صدق اعتقاد العبد بجلال الرب، وجليل حكمته، وواسع علمه وجميل تدبيره.

فالكون كله بأسره في قبضته، وتصرُّف مشيئته، يقضي ما يشاء ويحكم ما يريد، لا رادَّ له لقضائه، وهو المعطي والمانع والدافع والرافع والمهيمن على الأمر كله وهو أحكم الحاكمين.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٣/ ١٦٨.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٥٣/ ٤٩٩. وتجدرمراجعة مادة (صبر) في (المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة) ص٣٧٠ ـ ٣٧٢.

وبعلمه وحكمته وجميل لطفه يقضي بما فيه صلاح عبده ومملوك أمره، فلا يصنع به إلا ما هو خير له في دنياه وعقباه.

والأسرار خفية غيبية لا يحيط القاصر بها خبرًا، فربما تعجل ما يراه خيرًا وربما برم بما جرى عليه، وتمنى غيره وهو جاهل بالواقع، غافل عن صلاحه الخفي وعما ينفعه أو يضره عاجلًا أو آجلًا.

وهو الشأن المطرد في كافة أموره مما يُقدَّر له ويُقضى عليه، فإذا ملأ قلبَه اليقينُ، وأذعن لتدبير مولاه، وركن إلى حسن الاعتقاد، وحظي بالتسليم المطلق هان عليه ما نزل بساحته وإن عظمت مصيبته، وجلّت محنته.

فإنه يفئ إلى ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾(١).

فتستريح بذلك نفسه، ويطمئن قلبه ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٢).

أجل هذا هو الامتحان الصعب، والمائز الصدق في حسن الانقياد والتسليم وتجلي حقيقة الإيمان، وصدق العزيمة، وترجمة الثقة بالمولى الرب وخلوص التوكل إليه، وقطع العلائق عن سواه فهو المالك الحق الحكيم واللطيف الخبير والرحمن الرحيم.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٣).

---

(١) سورة التوبة / ٥١.

(٢) سورة الرعد / ٢٨.

(٣) سورة لقمان / ١٧.

وبعد.. فما أجمل هدي الإمام عليه السلام ودعاءه:

«وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ والْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ أَلاَ وَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ أَلاَ وَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الحَقِّ والهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ»[1].

وخير ختام ما جاء عن سيد الأنام من دعائه ليلة النصف من شعبان:

«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به رضوانك، ومن اليقين ما تهون علينا به مصيبات الدنيا».

الثالثة والأربعون: الاعتدال وإلاّ الميل:

(مَنْ تَرَكَ القَصْدَ جَارَ):

فلكل أمر ميزانه، وقوامه واعتداله، ومن ثم فإن الأشياء تنسب إلى مقياسها الصحيح، ووضعها المستقيم وهذا هو معنى (القصد).

وذلك قانون عام، ومعيار دقيق لشؤون الدين والدنيا، فلا غلو ولا تقصير فذلك الإفراط والتفريط، وإنما هو الاستقامة.

«من أسرف تعدى الحدود، ومن أمسك قصَّر عنها، والطريق الوسطى سبيل الخير والنجاة»[2].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٧٣/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٥٢٦.

وروائعُ بيان الإمام عليه السلام:

«الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ وَالطَّرِيقُ الوُسْطَى هِيَ الجَادَّةُ عَلَيْهَا بَاقِي الكِتَابِ وَآثَارُ النُّبُوَّةِ وَمِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ وَإِلَيْهَا مَصِيرُ العَاقِبَةِ»(١).

الرابعة والأربعون: الصاحب ومنزلته:

(وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ):

وقد يراد به الصديق فيشمل الحكم العنوانين، وقد يراد به من لا تبلغ منزلته إلى ذلك، ويتلو هذا حديث عن الصديق.

وقد فُسِرَت (مناسب) بأن وضع (الصحبة) قائم على التناسب والانسجام بين المصطحبين في أفكارهما وأذواقهما وعواطفهما فتلتئم بذلك الصحبة وتحسن الرفقة.

وفُسِرت بأنها تحكي مقامًا للصحبة يلحقها بالنسب فيُراعى في حرمتها وحقها ما يُراعى فيه.

ولا منافاة فالتفسير الثاني تتويج للوضع السليم لقيام الصحبة ومن ثَمّ يليق بها أن ترقى إلى لحمة النسب.

وفيما ورد من رأي وشعر ما يبين الوجه:

«وقال بختيوع للمأمون: لا تجالس الثقلاء فإنا نجد في الطب مجالسة الثقيل حُمَّى الروح»(٢).

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٦/ ٥٨.

(٢) بهج الصباغة ٨/ ٣٣١، عن عيون الأخبار لابن قتيبة.

«وكتب رجل على خاتمه: أبرمت فقم، فكان إذا جلس إليه ثقيل ناوله إياه»[١].

أبن لي فكن مثلي أو ابتـغ صـاحبًا كمثلِـكَ إني مبتـغٍ صـاحبًا مـثلي
عزيــزٌ إخــائي لا ينــال مــودتي من القومِ إلا مسلمٌ كامـلُ العقـلِ
ومـا يلبـثُ الإخـوانُ أن يتفرّقـوا إذا لم يؤلف روح شكل إلى شـكل

ومن الخير إيراد شذرة من روائع إمام الحكمة ورب البيان عليه السلام:

أ) «**لا تَصْحَبِ المَائِقَ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ وَيَوَدُّ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ**»[٢].

ب) «**وَاحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ وَاسْكُنِ الأَمْصَارَ العِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ المُسْلِمِينَ وَاحْذَرْ مَنَازِلَ الغَفْلَةِ والجَفَاءِ وَقِلَّةَ الأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَاقْصُرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَعْنِيكَ وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الأَسْوَاقِ فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ وَمَعَارِيضُ الفِتَنِ وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ وَلاَ تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلاَةَ إِلا فَاصِلًا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ وَأَطِعِ اللهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا وَخَادِعْ نَفْسَكَ فِي العِبَادَةِ وَارْفُقْ بِهَا وَلاَ تَقْهَرْهَا وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا إِلاَّ مَا كَانَ مَكْتُوبًا عَلَيْكَ مِنَ الفَرِيضَةِ فَإِنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا وَتَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ المَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ**

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣٣١، عن عيون الأخبار لابن قتيبة.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٩٣/ ٥٢٧.
المائق: الأحمق.

الدُّنْيَا وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الفُسَّاقِ فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ وَوَقِّرِ اللهَ وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ وَاحْذَرِ الغَضَبَ فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ، وَالسَّلاَمُ»(١).

ج) «**صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَاكِبِ الأَسَدِ يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ**»(٢).

الخامسة والأربعون: الصديق الحقّ:

(وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ):

وثمةَّ علاقة تستحكم، وروح تمتزج، وتجاذب متبادل، تنتج ارتباطًا وثيقًا هو (الصداقة).

وركز الإمام عليه السلام بتحديده البليغ الدقيق (**مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ**)، على المرآة الكاشفة لصدق الصداقة.

فالمحضر مظهر للمجاملات والتصنع، والمحاباة والطمع، والحياء والمدارة، وما تمليه طبيعة العلاقات المشتركة بين الأطراف.

أما الغيب فالقيام بالوظائف يبرهن على عمق مودة، وصفاء وإخلاص، ورحمة وإيثار، وجميل عناية وحسن رعاية، وتفقد واهتمام.

ومن دلائل حفظ الصداقة ورعاية حقها: تعاهد الصديق صديقه وعقبه فإن ذلك من الوقاء وحسن العهد ورعاية الحقوق.

وحديث الصحبة والصداقة والأخوة خطير وجليل ودقيق وعميق لما له

---

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم ٦٩/ ٤٦٠.
يفيل: يضعف.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٦٣/ ٥٢١.

من الدور الفعال لنظم علائق المجتمع وشدها على بعضها لحمة متجانسة متماسكة قائمة على أركان البر والتقوى والإحسان والاعتصام بحبل الله وهديه في الصلاح والإصلاح.

والضوابط والمقاييس والتوصيات والحقوق والآثار جليلة عظيمة مهمة وقد تولت تفصيلاتها روايات النبوة والإمامة والهداية والولاية.

وكفى بيانًا لجلال الصداقة أن تقرن في القرآن الكريم بـ(لحمة النسب) ففي سورة النور عطفت: ﴿خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[1]، على وشيجة النسب الأدنين والقرابة القريبة من العمودين وفروعهما مما يعني تبوّأ الصديق مقامًا يلحق بأولئك.

كما أشارت آية الشعراء / ١٠١ في عطفها (ولا صديق حميم)، على سابقتها (فمالنا من شافعين)، دلالة على عظم ما يرجى من نصرة الصديق الحميم في مواطن الهول ومعترك الابتلاء الصعب.

ومن ثم جاء الترغيب في الاستزادة من الأصدقاء رجاء نفعهم في الشدائد والمحن.

قال الإمام الصادقعليه السلام: «أكثروا من الأصدقاء في الدنيا فإنهم ينفعون في الدنيا والآخرة، أما الدنيا فحوائج يقومون بها، وأما الآخرة فإن أهل جهنم قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»[2].

---

(١) سورة النور / ٦١.

(٢) علي والأسس التربوية / ٦٧٣ عن مصادقة الإخوان.

وفي بيان إمام الحكمةعليه السلام تحديد للصداقة الحقّة وصورها الدقيقة:

قالعليه السلام:

أ) «**لَا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقًا حَتَّى يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلاَثٍ فِي نَكْبَتِهِ وَغَيْبَتِهِ وَوَفَاتِهِ**»(١).

ب) «**حَسَدُ الصَّدِيقِ مِنْ سُقْمِ المَوَدَّةِ**»(٢).

ج) «**مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِيَ ضَيَّعَ الحُقُوقَ وَمَنْ أَطَاعَ الوَاشِيَ ضَيَّعَ الصَّدِيقَ**»(٣).

د) «**أَصْدِقَاؤُكَ ثَلاَثَةٌ وَأَعْدَاؤُكَ ثَلاَثَةٌ فَأَصْدِقَاؤُكَ صَدِيقُكَ وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ وَأَعْدَاؤُكَ عَدُوُّكَ وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ**»(٤).

وقد مرّ إيراد هذه الحكمة الشريفة وما يرتبط بها.

وعن أبي عبداللهعليه السلام قال: «**لا تكون الصداقة إلا بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها فانسبه إلى الصداقة، ومن لم يكن فيه شيء منها فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة.**

فأولها أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة، والثانية أن يرى زينك زينه وشينك شينه، والثالثة أن لا تغيره عليك ولاية ولا مال، والرابعة ان لا يمنعك شيئًا تناله مقدرته، والخامسة وهي تجمع هذه الخصال أن لا يسلمك عند

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٣٤/ ٤٩٤.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢١٨/ ٥٠٧.

(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٣٩/ ٥١٠.

(٤) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٩٥/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

النكبات»[١].

خــيرُ إخوانــكَ المشــاركُ في المُــرِّ ... وأيــنَ الــشريكُ في المُــرِّ أينــا

الذي إن شــهدتَ سرَّكَ في القــومِ ... وإنْ غِبْــتَ كــان أُذْنًــا وعَيْنــا

مثـلُ تِـبْرِ العقيـانِ إنْ مسَّــهُ النـارُ ... جــلاهُ الجــلاءُ فــازدادَ زَيْنــا[٢]

ومن طريف حديث الصداقة وجميل آثارها:

«قال الواقدي: أضقت مرة وأنا مع يحيى البرمكي وحضر عيد فجاءتني جارية فقالت: ليس عندنا شيء، فمضيت إلى صديق لي من التجار فعرَّفتُه حاجتي إلى القرض، فأخرج إليَّ كيسًا مختومًا فيه ألف ومائتا درهم، فأخذته وانصرفت إلى منزلي، فما استقررت فيه حتى جاءني صديق لي هاشميٌّ فشكا إليَّ تأخّر غلَّته وحاجته إلى القرض، فدخلت إلى زوجتي، فقالت: أي شيء عزمت؟ قلت: على أن أقاسمه الكيس، قالت: ما صنعت شيئًا، أتيت رجلًا سوقة فأعطاك ألفًا ومائتي درهم، وجاءك رجل له من النبيﷺ رحم ماسّة تعطيه نصف ما أعطاك السوقة! أعطه الكيس كله، فأخرجت الكيس كله، فدفعته إليه، ومضى صديقي التاجر إلى الهاشمي وكان له صديقًا، فسأله القرض، فأخرج إليه الهاشمي الكيس، فلما رأى خاتمه عرفه وانصرف إليَّ فخبرني بالأمر.

---

(١) الكافي ٢/ ٦٣٩.

(٢) بهج الصباغة ٨/ ٣٣٣.

وجاءني رسول يحيى يقول: إنما تأخّر رسولي عنك لشغلي بحاجات الخليفة، فركبت إليه فأخبرته خبر الكيس، فقال: يا غلام هات تلك الدنانير، فجاءه بعشرة آلاف، فقال: خذ ألفي دينار لك، وألفين لصديقك، وألفين للهاشمي، وأربعة آلاف لزوجتك فإنها أكرمكم»[١].

السادسة والأربعون: الهوى عمى:

(وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى):

انجذاب وتعلق وهيام وتطلع بغير رويَّة إلى ما تميل إليه النفس فلا جميل إلا ما يرى، ولا حسن إلا ما يسمع، ولا متعة إلا فيما يجب، فيملك عليه هواه فكره وسمعه، وبصره فلا يحيا إلا ما يهوى، ويميل عن الهدى وذلك عين العمى والردى.

وقد بثّ الإمام عليه السلام التنبيه والتحذير من الوقوع في شرك الهوى.

فقال عليه السلام:

أ) «**وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَدًا**»[٢].

وكشف في خطبة أخرى خطورة ذلك:

ب) «**فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ**»[٣].

---

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤، عن تأريخ بغداد.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٨ / ٧١ ـ ٧٢.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ٤٢/ ٨٣ ـ ٨٤.

ج) «وَالشَّقِيُّ مَنِ انْخَدَعَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ»[١].

قال معاوية في مرض له: «لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي»[٢].

د) «وَتَخَلَّى مِنَ الهُمُومِ إِلاَّ هَمًّا وَاحِدًا انْفَرَدَ بِهِ فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ العَمَى وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الهَوَى وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الهُدَى وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ وَسَلَكَ سَبِيلَهُ وَعَرَفَ مَنَارَهُ وَقَطَعَ غِمَارَهُ وَاسْتَمْسَكَ مِنَ العُرَى بِأَوْثَقِهَا وَمِنَ الحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا فَهُوَمِنَ اليَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ للهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الأُمُورِ مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ كَشَّافُ عَشَوَاتٍ مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ دَفَّاعُ مُعْضِلاَتٍ دَلِيلُ فَلَوَاتٍ يَقُولُ فَيُفْهِمُ وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ قَدْ أَخْلَصَ للهِ فَاسْتَخْلَصَهُ فَهُوَمِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ قَدْ الزَمَ نَفْسَهُ العَدْلَ فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الهَوَى عَنْ نَفْسِهِ يَصِفُ الحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ لاَ يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلاَّ أَمَّهَا وَلاَ مَظِنَّةً إِلاَّ قَصَدَهَا قَدْ أَمْكَنَ الكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ.

وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِمًا وَلَيْسَ بِهِ فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلاَّلٍ وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكًا مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ وَقَوْلِ زُورٍ قَدْ حَمَلَ الكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ وَعَطَفَ الحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ»[٣].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨٦/ ١١٧.

(٢) شرح الأخبار ٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨٧/ ١١٨ ـ ١١٩.

هـ) «فَرَحِمَ اللهُ امْرُأً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعًا وَإِنَّهَا لاَ تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوًى».

وتحدث في هذه الخطبة عن القرآن العظيم فقال:

«وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ»[١].

و) «وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ»[٢].

ويلتقي العشق بالهوى والأماني بالعمى:

«وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَعْشَى بَصَرَهُ وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا»[٣].

«وَكُلَّمَا عَظُمَ قَدْرُ الشَّيْءِ الْمُتَنَافَسِ فِيهِ عَظُمَتِ الرَّزِيَّةُ لِفَقْدِهِ والأَمَانِيُّ تُعْمِي أَعْيُنَ البَصَائِرِ»[٤].

السابعة والأربعون: قرب المودة وبعد العداوة:

(وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ):

وشائج النسب علاقة رحم وباعث تراحم وفق ما تمليه طبيعة الأواصر القريبة، وتهدي إليه أحكام الدين وشرعة الأخلاق.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٧٦/ ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢١١/ ٥٠٦.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٠٩/ ١٦٠.

(٤) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٧٥/ ٥٢٤.

وذلك مقتضى الوضع الأولي إلا أن يمنع أو يحدّ منه مانع أو حاجز.

والبعيد ـ وإن ثبت له حكم عام ـ إلا أنه دون الرحم الماسَّة، ولكنه قد يخص بالامتنان والإحسان فيُقدَّم ـ وهو القصي ـ على القريب الداني.

والسر في الامتياز والتبدل هو (القرب المعنوي)، كما قيل: (رب أخ لك لم تلده أمك).

فالمودة صلة قرب وإن كانت من بعيد غير ذي قربى، والعداوة قاطعة حبل المودة وإن كانت من ذي قربى، فالمدار على السبب لا علقة النسب.

وإنا لنقرأ في كتاب الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[1].

وفي حديث الله ﷻ عن ابن نوح النبي بيان ودلالة:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۞ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾[2].

ولم يُرع لأبي لهب وشيجة النسب:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[3].

وقد قيل في هذا المعنى:

---

(١) سورة التغابن / ١٤.

(٢) سورة هود / ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) سورة المسد / ١ ـ ٣.

كانــت مــودةُ ســلمان لهــم رَحِمًــا   ولم يكــنْ بــينَ نــوحٍ وابنِــهِ رَحِــمُ

لَعَمْرُكَ ما الإنســانُ إلَا ابــنُ دينِــهِ   فلا تتركِ التقوى اتّكالًا على النسبْ

فقد رفعَ الإســلامُ ســلمانَ فــارسٍ   وقد وضعَ الشركُ الشريفَ أبا لهبْ

ومن بيان الإمام عليه السلام:

أ) «**مَنْ ضَيَّعَهُ الأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الأَبْعَدُ**»(١).

ب) «**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالْأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاءُوا بِهِ ثُمَّ تَلاَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا الآيَةَ ثُمَّ قَالَ إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ اللهَ وَإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ وَإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللهَ وَإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ**»(٢).

ج) «**مَوَدَّةُ الآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الأَبْنَاءِ والقَرَابَةُ إِلَى المَوَدَّةِ أَحْوَجُ مِنَ المَوَدَّةِ إِلَى القَرَابَةِ**»(٣).

د) «**القريبُ من قرَّبَتْهُ المودة وإن بَعُدَ نسبُه، والبعيدُ من بعَّدتَه العداوةُ وإن قَرُبَ نسبُه**»(٤).

ومن الطريف:

كتب طوق بن مالك إلى كلثوم بن عمرو يستزيره ويدعوه إلى أن يصل

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٤/ ٤٧١.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٩٦/ ٤٨٤.

(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٠٨/ ٥٢٩.

(٤) بهج الصباغة ٨/ ٣٣٤.

القرابة بينه وبينه، فردَّ عليه كلثوم:

(إن قريبك من قرب إليك خيره، وإن عمَّك من عمَّك نفعه، وإن عشيرتك من أحسن عشرتك، وإن أخص الناس إليك أجداهم بالمنفعة عليك، ولذلك أقول:

ولقد بلوتُ الناسَ ثم سبرتهم وخبرتُ ما فتلوا من الأسبابِ
فإذا القرابةُ لا تقرِّب قاطعًا وإذا المودة أكبر الأسباب

وقال الآخر:

لعمرُكَ ما يضرُّ البعدُ يومًا إذا دنت القلوبُ من القلوبِ[1]

الثامنة والأربعون: الغريب بلا حبيب:

(وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ):

فالطبع الإنساني اجتماعي، والمؤمن يألف ويؤلف، وقد يشذ المرء في طباعه وأوضاعه لؤمًا وحسدًا وخيلاءَ وظلمًا فيُنفَرُ من قربه فلا يزار وهو لا يزور، فلا صلة ولا مودة فيعيش وحيدًا منزويًا غريبًا لا حبيب له ولا قريب منه.

وتلك جنايته على نفسه، فيبوء بسيء فعله.

وربما شذ من حوله لسوء خلائقهم، وانحراف طبائعهم، وامتياز وضعه وواقعه عن أوضاعهم وواقعهم فهم أُمةٌ وحدهم، وهو أُمةٌ وحده.

---

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

وتلك محنة يبتلى بها الأماثل والتبعة فيها على الأراذل، «فالوحدة خير من جليس السوء»، هذا وقد جاء وصف (الغربة) والنعت بها في كلام الإمام عليه السلام في مواطن وأوضاع مما يوسع دائرة الغربة:

فالأولياء المتعلقون بمولاهم عز وجل غرباء في هذه الدنيا:

أ) «**وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ**»[١].

ب) «**وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ**»[٢].

ج) «**الْغِنَى فِي الغُرْبَةِ وَطَنٌ والفَقْرُ فِي الوَطَنِ غُرْبَة**»[٣].

د) «**فَقْدُ الأَحِبَّةِ غُرْبَةٌ**»[٤].

ولعل هذه الحكمة تنسجم مع التفسير الثاني حيث يفقد الرجل من يبادلهم الأنس والمسرة والحنو والشفقة وهم جيله وأترابه وأحبابه ولا يجد منهم خلفًا فيعيش لذلك غربةً وانفرادًا.

التاسعة والأربعون: الحق سبيل جدد لسالكه:

(**مَنْ تَعَدَّى الحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ**):

(فمن سلك الجدد أمن العثار) ولم ينحرف ذات اليمين وذات الشمال، ولم يتخبط في مسراه، بل يبلغ غايته في سلامة مطمئنًا.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٢٧/ ٣٤٩.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣/ ٤٦٩.

(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم ٥٦/ ٤٧٨.

(٤) نهج البلاغة، حكمة رقم ٦٥/ ٤٧٩.

ومن تعدى الحق وتجاوزه فقد تطرَّف وانحرف، وتخبّط وتعثر، حيرة وضلالًا، (فما بعد الحق إلا الضلال)، فيقطع طريقه ويقطع به طريقه، على غير هدى فتضيق عليه المسالك، وتوصد المنافذ، فيمتلكه التيه فيغمّ عليه المولج والمخرج.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].

الخمسون: الاقتصار على القدر سلامة:

(وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ):

فلكل شيء ضوابط وموازين، والشؤون متفاوتة مختلفة، ولكل إنسان طاقاته وملكاته وشأنه الذي يقوى عليه، وقدره الذي يتصف به، والعاقل الكيِّس من عرف قدره وعلم حدّه، ولم يغفل قدره.

وأميل إلى ما قرره السيد الشارح النقوي:

«أي من اكتفى على قدره ومنزلته ولم يتجاوز عن حده وطوره كان القدر أبقى له، وذلك لأن المتعدي عنه لا يقدر على إبقاء ما وقع فيه وادَّعاه لنفسه، وإذا كان كذلك فلا محالة يسقط سريعًا، بخلاف من اكتفى بما هو حاصل له فإنه مطابق لاستعداده ممكنٌ له حفظه»[2].

---

(١) سورة الأنعام / ١٥٣.

(٢) مفتاح السعادة ١٥/ ٢٠٦.

وما ذكره في المقام يجري في جميع الشؤون، ولعمري إنه أصل أصيل يبتني عليه جميع السقطات والهلكات الدنيوية والأخروية كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**رحم الله امرأً عرف قدره ولم يتعدّ طوره**»(١).

وما ذكره الشارح الشيخ التستري:

«إن من اقتصر على قدر ماله في نفقاته ووجوه مصارفه كان أبقى له من أن يتلف كل ماله»(٢).

شعبةٌ ومصداق لا أنه مورده المتعين، وموطنه الخاص.

ولنعم ما قاله الشارح الحكيم الشيخ ميثم:

«نبّهه على وجوب الاقتصار على قدره وهو مقداره ومحله في خلق الله، واقتصاره عليه مبني على معرفته وهو أنه يعلم الفطرة التي فطر الإنسان عليها من الضعف والجور والنقص فيعلم أنه كذلك فيضع نفسه حينئذ عن الترفع عن أبناء نوعه والاستطالة على احد منهم بفضل قوة أو إعجاب بقية(٣) جسمانية أو نفسانية ويقتصر على ما دون ذلك من التواضع ولين الجانب والاعتراف بما جبل عليه من العجز والنقص»(٤).

وعلى هذا النحو جرى الشارح السيد عباس الموسوي عارضًا نماذج من

---

(١) عيون الحكم والمواعظ / ٢٦١.

(٢) بهج الصباغة ٨/ ٣٣٥.

(٣) كذا في المصدر، ولعلها بقوّة.

(٤) شرح نهج البلاغة ٥/ ٦٢.

شؤون معاصرة يحياها مجتمعنا[١].

وما أجمل ما قيل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيعُ

أجل...إنه أبقى لمسكة العقل وشرف الكرامة، وعنوان الصدق، وطيب الذات، وتواضع النفس.

الحادية والخمسون: أوثق الأسباب ما اتصل بالله تعالى:

(وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ):

فالمحور والمدار والركيزة والقوام ارتباط العبد بمولاه، وانقطاعه إلى خالقه، والتجاؤه إلى كنفه وركونه إليه في كافة شؤونه.

وهو أقوى الأسباب وأوثقها بل لا سبب إلا هو، فإن الله ـ سبحانه ـ مسبِّب الأسباب، ومنه التقدير والقضاء وحسن التدبير والإمضاء.

والسبب المتَّصل الموصل إليه: «هو كل ما قرَّب إليه من علم وقول وعمل»[٢].

«والسبب بين الخلائق والخالق كان أولًا النبيﷺ وكتابه تعالى، وبعده كتابه تعالى وعترة نبيه، فقال النبيﷺ كما في مسند أحمد بن حنبل: إني تاركٌ فيكم الخليفتين: كتاب الله حبل ممدود بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي،

(١) الوصية الخالدة / ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٢) شرح نهج البلاغة للبحراني ٥/ ٦٣.

وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[١].

ولا نُجح إلا بسلوك نهج موصل وحبل غير منقطع، وعروة وثقى، فلا رياء ولا شرك، ولا تخبط، ولا إهمال وإغفال، بل الإخلاص المحض، وحمى التوكل، وصدق الانقطاع، وضراعة الدعاء، وابتغاء الوسيلة المرضيِّة الشافعة المشفعة.

هذا وقد مرَّ أوائل هذه الوصية، الإرشاد إلى هذا، وأعاد الإمام عليه السلام تأكيدًا وتذكيرًا وتركيزًا لجلالة الأمر وعظيم موقعه.

الثانية والخمسون: عدم المبالاة صنو العداوة:

(وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ):

فقوام الروابط الاجتماعية، والعلائق الأخوية برعاية الوظائف، والاهتمام المتبادل، والعناية بذوي الحقوق.

وإذا رعى المخلص أخاه، وعناه أمره، وأولاه اهتمامه، فقصَّر الْمُحْسَنُ إليه، وأغفل وتجاهل، وأعرض وأهمل فقد انقطعت عرى المودة بينهما، واستحكم الانفصال فلم تعد الصداقة، ولم تبق الأخوة.

وذلك شأن الجفاء، وشيمة البعداء، وأخلاق الأعداء، فليس بأخ لك من لا يرعى حقك كما ترعى حقه.

والأمر مضطرد في عموم الأصناف، والفئات والطبقات.

---

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣٣٦.

سيَّان في ذلك أمر الرعية والولاة، والولاة والرعية، والأفراد فيما بينهم.

ومن ثم يعتدَّ الوالي من أعرض من رعيته عنه ولم يبال بسلطانه عدوًا، وكذلك نظرة الرعية لواليها إذا لم يُعْنَ بمصالحها، ولم يرفق بها.

وهكذا الأخلاء في تقصير أحدهم وإهماله لحقهم وتنكره لمعروفهم.

وبكلمة: إن إنزال الجفاء وعدم الوفاء منزلة الشنآن والعداء للاشتراك في سوء الصنع وعدم مجازاة الإحسان بمثله، والله العالم.

الثالثة والخمسون: ربَّ ما لا ترجو خير مما ترجو:

(قَدْ يَكُونُ اليَأْسُ إِدْرَاكًا إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكًا):

فالغيب محجوب، والمرء مترع بالأماني، وتحثه الآمال والأطماع إلى امتلاك كل شيء فيسعى لتحقيق ذلك جاهدًا.

والمسكين لا يدري أين يكمن صلاحه؟ فربما كان في حرمانه، والسلامة في عدم نيله.

ولو تحقق له كل ما يرجو لكان في ذلك بلاؤه وعناؤه.

إذن: ربما كانت العافية في الفقدان، والعطب في الوجدان.

ورحم الله الشيخ مغنيه فقد شرح مقولة الإمامعليه السلام وأورد مثالًا:

«والمعنى ربما يتمنى المرء لنفسه شرًا من حيث يظن أنه خير محض، ولا ينكشف ذلك إلا بعد أن يناله ويمارسه، ومثاله أن يتمنى الزواج من امرأة اعجبته من أول نظرة، حتى إذا تم ما أراد، وباشر وعاشر قال:

﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[١] »[٢].

إذن فالمقابلة بين اليأس والطمع، وقد تكون العافية والعاقبة في اليأس وعدم تحقق المأمول، ويكون العطب وسوء المنقلب في الطمع والرغبة في المرجو.

هذا واقع البشر في استماتتهم فيما يهوون من ملك وسلطان وأحلام وآمال، وما يعقب ذلك إذا ما حصَّلوا ما أمَّلوا من خيبة وحسرة وبلاء وشقاء شواهد على صدق هذه الحقيقة والحكمة البالغة.

الرابعة والخمسون: ومن العورة ما يبقى مستورًا:

(لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ):

الله ﷻ عالم بالسر وما يخفى ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[٣].

ومن الناس من تحسن علانيته وسيرته، ويقبح باطنه وسريرته، فيقوى على حفظ سره، وكتمان أمره، وهو في واقعه موغل في النفاق، فيهلك وهو عند الله من الهالكين وعند الجاهل بواقعه من الصالحين.

وفي ذلك دعوةٌ للفرد للصلاح سرًا وعلانية قلبًا وقالبًا في واقعية وموضوعية مع الذات والآخرين حقًا وصدقًا.

---

(١) سورة مريم / ٢٣.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٥٢٣.

(٣) سورة غافر / ١٩.

وإرشادٌ لعدم الاسترسال في الثقة وحسن الظن بالكافَّة ـ ولا سيما مع سوء الزمان اعتمادًا على الظاهر، وركونًا إلى الحمل على السلامة ـ فلذلك موارده ومواطنه ـ ولا تنافي بينه وبين التحفظ وأخذ الحائطة، واليقظة وعدم الاستغفال.

يعطيك من طرفِ اللسانِ حـلاوةً   ويروغُ عنـك كـما يـروغُ الثعلـبُ

الخامسة والخمسون: الفرصة وإصابتها:

(وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ):

أ) كثيرًا ما تعرض للإنسان الفرص، فيُعرِض عن اغتنامها والانتفاع بها وفيها، فتلمَّ به ولا يصيبها.

ب) وربما فاتته لأنها لم تحط بساحته ولم تعرِّج عليه.

ج) وربما سعى لاستثمارها، وجهد لاستغلالها ولكنه لم يوفق لنيل ما يرجو لموانع وعوائق لا حيلة له لدفعها ورفعها.

أجل.. إن العُمر والنعم الأخرى هي في واقعها فرص متاحة لإنجاز أعمال كثيرة يقوى ذو الهمَّة اليقظ والعاقل الكيِّس على تحقيق النافع المثمر منها مما ينسجم مع قابلياته وميوله وغاياته في شؤون الدنيا والآخرة.

وهذا ما ينبغي له فعله والعناية به وإلا كان مُقَصِّرًا قد أخطأ حظه.

السادسة والخمسون: وربما أخفق المتوقع ونجح غير المتوقع:

(وَرُبَّمَا أَخْطَأَ البَصِيرُ قَصْدَهُ وَأَصَابَ الأَعْمَى رُشْدَهُ):

وما على المرء إلا سلوك جادَّة الحق ونهج الصواب، وإصابته الغرض وبلوغه الغاية خارج عن تدبيره وتقديره، ولا غضاضة عليه في ذلك.

كما هو شأن الرزق سعةً وتقتيرًا، فيناله الأحمق والعاجز ومن لا يسعى له بل رزقه يسعى إليه، ويحرم منه الباذل جهده والبصير الحاذق في التدبير.

فلا غرو لو أخطأ البصير الخبير فيما أعمل فيه فكره، وسلك مناهجه، ولا غرابة لو أصاب الأعمى وهو المحجوب الذي لا يهتدي إلى غايته سبيلًا، ولعل السر يكمن في التوفيق، وهو غالب على إتقان المقدمات الموصلة إلى نتائجها بحسب الطبع والوضع.

وربما كان الامتحان والابتلاء، وتقدير جريان الأمور وفق المصالح التي تخفى على الكافة، فلا يليق بالمؤمن التبرم والجزع والأسف على ما لم يدرك.

وفي ذلك السلوة عند الاخفاق، وباعث الشكر على التوفيق، فلله تعالى في خلقه شؤون، والشؤون شجون.

السابعة والخمسون: العجلة في الشر ندامة:

(أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ):

المؤمن خيرٌ كله، مأمول الخير مأمون الشر، مأمور بالأول ومنهي عن الآخر، مع اجتماع القدرة على الفعل والترك.

فالشرور واسعة الموارد كثيرة المواطن والمظان.

والخير محدود في جهات، محفوف بقيوده، مخصوص بزمانه وظروفه.

ومن ثمَّ تحسن وتجمل المبادرة إلى فعله، والمسارعة إلى أدائه، فربما فات من غير أوبة أو تدارك.

ومن الشر تعجل الشر، فهو في واقعه جرم وخطيئة وإن تأخر اقترافه، فكيف بالمبادرة والمسارعة إليه؟!

ويحمل هدي الإمام عليه السلام وبغاية من الرفق واللطف دعوة رائدة لنبذ الشر في غيابة العدم.

فالنفس يستميلها الإغراء، وتستهويها المغريات فتأخذ بمجامع القلب عوامل الافتتان به، وبواعث الإثارة نحو لذائذ ومتع تأسر الفؤاد والسمع والبصر.

فإذا توقف متأملًا، ونظر مفكرًا، وقلَّب ما غزا قلبه، وخبر واقع ما هفت إليه نفسه، ولم يرتمِ في أحضان الشهوات المحرمات، حيث الوقت متسع، والفرص آتية متاحة كان ذلك أدعى للتأمل والمحاسبة والخوف من الوقوع في الخطيئة فيقوى عزمه وتستد إرادته فلا يتعجل بل يترك فتهدأ النفس عن الانفلات إلى فعل السوء والحرام، فكأنه مخادعة للنفس بأن الشر مقدور وتحت اليد كل آن، فلا ضرورة للمبادرة مادام قيد الإمكان، ومقدور الاختيار فعلًا فهو مقدور كذلك تركًا.

وإن تجدد له باعث وحرَّكه نحو الشر محرك عاود النظر في وخيم العواقب فيرجئ كما أرجأ فيقوى بذلك على الهيمنة على نفسه وضبط نزعاته وكبح جماح أهوائه.

والنص جاء: (آخر الشر) والشر جامع لما يقابل الخير من كافة المساوئ والمحرمات والرذائل الأخلاقية والخلال الدنيئة.

وبعد.. فالمقصود الأسنى والهدف الأسمى ترك الشر بكل صوره وأشكاله والعناية بإحياء الخير والمسارعة إلى فعله، وإعمار الوقت بإقامته.

وذلك هو التقوى والصلاح والفلاح والنجاح في العاجل والآجل.

الثامنة والخمسون: إيجابية السلب:

(وَقَطِيعَةُ الجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ العَاقِلِ):

فلابد في وضع الأمور في نصابها، وإجراءها مجاريها، ورعايتها كما يليق بها.

فإرشاد الجاهل، وتنبيه الغافل، وهداية الضال، وظائف قويمة، ومهام عظيمة، تبصيرًا وإرشادًا، وإقامة للحجة، وقطعًا للعلل والأعذار.

وكل هذا إذا أجدى نفعًا، ووافى قبولًا، وصادف موطنًا.

وأما إذا أعيت الحيلة، وذهب الرجاء، وخاب الأمل، فلا عائدة ولا فائدة، فالترك أولى، والهجر أحرى، فإن الصلة حينئذ لا موضع لها ولا موقع، فينقلب الموقف، ولا دواء أنجع من القطيعة ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾(١).

فهو على شاكلة نبذ الأحمق، ولا يقطع الشر إلا الشر، وترك الجواب هو الجواب.

---

(١) سورة الحجر / ٣.

هذا وقد مرَّ نظير ذلك في مواطن مما سبق.

ويكون ذلك بمثابة صلة العاقل والقرب منه، والإفادة من معرفته، وعشرته ففي ذلك الخير كله، وفي ضده الشر كله، لتمايز الخلائق، وتمايز الصفات واختلاف السمات.

«قال عمير بن يزيد: كنت عند الرضا عليه السلام فذكر محمد بن جعفر بن محمد فقال: إني جعلت على نفسي ألا يظلني وَإِيَّاهُ سقف بيت أبدًا. فقلت في نفسي: هذا يأمرنا بالبر والصلة ويقول هذا لعمه.

فنظر إليَّ فقال: هذا من البر والصلة، إنه متى يأتيني ويدخل عليَّ فيقول فيَّ فيصدقه الناس، وإذا لم يدخل عليَّ ولم أدخل عليه لم يُقبَل قوله إذا قال»[(١)].

ونحو ذلك توبيخه عليه السلام لأخيه زيد ـ المعروف بزيد النار.

ومن الشعر في ذلك:

إذا أنا بالمعروفِ لم أكُ صادقًا ... ولم أشتم النكسَ اللئيمَ المذَمَّما

ففيمَ عرفت الشرَّ والخير باسمِهِ ... وشقّ لي اللهُ المسامعَ والفما[(٢)]

وقال الآخر:

أبا حسنٍ ما أقبحَ الجهلَ بالفتى ... ولَلْحِلْمُ أحيانًا من الجهلِ أقبحُ

إذا كان حلمُ المرءِ عونَ عدوِّهُ ... عليه فإن الجهلَ أعفى وأروحُ[(٣)]

---

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣٣٩.

(٢) بهج الصباغة ٨/ ٣٣٩.

(٣) بهج الصباغة ٨/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

التاسعة والخمسون: الزمان خوَّان مهين:

(مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ):

الحديث عن الزمان حديث عن الدنيا، والغرض من ذلك الحياة التي نحياها، مجمع الخلق ومسرح الأحداث، ومتقلب الأوضاع، وتبدل الأحوال، والطغيان والأهوال، ونعيم وشقاء، وشدَّة ورخاء، وفقر وغنى، وصعاليك غدت ملوكًا، وملوك انحدرت فاستقرت صعاليك، إلى مشاهد مثيرة وغرائب عجيبة وتحولات محيرة في الفرد والجماعات والأمم والحضارات والأفكار والمذاهب والسلم والحرب.

وعلى هذا المنوال نسجت الدنيا أوضاعها، واصطبغت بذلك طباعها، فحضارات سادت ثم بادت، وتخلفها أخرى أمثالها فتفنيهم وتستبدل بهم قومًا آخرين، يقضون وطرًا ثم يرحلون.

وهكذا حتى يتصرم عمر الدنيا، ويفنى الزمان، وتُبَدَلُ الأرض غير الأرض، فـ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[1].

إذن فليس الزمان بمستقر على حال، بل شأنه الاضطراب والتبدل والانقلاب، وما كان كذلك فلا يركن إليه، ولا يعول عليه، ولا يوثق بوضعٍ من أوضاعه حيث التغير من طباعه.

ومن اطمئن إلى الزمان وأمن مكره فقد خدعته نفسه، وغرَّته حبائله، وما

---

(١) سورة الرحمن / ٢٦ ـ ٢٧.

أدق وألطف أسلوب التقابل في الحكمة العالية، وعمق ما تحمل من دلالات.

فالآمن يقابله الخائن، والمُعَظِّم يقابله المُهين.

فواعجبًا: نأمن من يخوننا، ونعظم من يهيننا!! وقد ساءت النتيجة كما ساءت المقدمة.

هذا والإمامعليه السلام لهج بالحديث عن الدنيا والزمان مكررًا ذلك كثيرًا في خطب متعددة، وخطبة وكتب مفردة، وقد سلف الذكر متعددًا في هذا الكتاب الشريف.

وما ذاك إلا صيحة مدويِّة وصرخة عالية، ونداء مجلجل ينفذ إلى القلوب لتتأمل في الحياة وتلونها، وتعاكس صورها، ووضعها وطبعها، فيكون من يحياها على بصيرة وبينة من أمرها لينتفع منها وفيها، وليملكها ـ إن يتم له ذلك ـ ولكن لا يدعها تملك عقله ولبه، وروحه وضميره، وحواسَّه وجوانحه وجوارحه.

الستون: (ما كلُّ رامي غرضٍ يُصِيبُ):

(لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ):

وكثيرًا ما جاءت حكميات الإمامعليه السلام بهذا النحو من الأسلوب، وتشاكل اللفظ، وتقارب المعنى.

وفي مثل هذا التسلية لمن رام أمرًا فلم يوفق لبلوغه، فالإنسان عرضةً للخطأ والصواب.

ولئلا يُعجب أمرؤٌ لو أصاب هدفه دائمًا، فربما امتلكه الغرور، ولئلا ينتقص غيره ممن هو دونه في ملكاته.

الحادية والستون: السلطان والزمان:

(إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ):

فالضرورة تقضي والعقل يحكم:

بحتمية نظم أمر الرعية بقيام الراعي فلابد للأمة من إمام برًا كان أو فاجرًا.

فهو المتولي لإصلاح شأنهم، وحملهم على الانضباط، وبذلك تقوم سوق معاشهم، وتستقيم أوضاعهم، وتصلح أحوالهم.

ومن يُناط به هذا الدور الفاعل لا بد من تحليه بمؤهلات وملكات يقوى بها على إدارة رعيته، وحياطة مصالحهم، وصيانتهم عن المفاسد والإخلال بموازين الحق والعدل، وسوقهم نحو الخير على صراط مستقيم.

فإن كان الراعي موجهًا من قبل الإله الرب عز وجل فهو المصطفى المميز، والمختار الأكمل، والجامع لكافة الكمالات، المؤهل لحمل الأعباء، وأداء الوظائف الإلهية الربانية لرعاية الخلق والرعية، وحملهم على الجادة القويمة.

وهذا ما تكفلت به قضية (الإمامة والخلافة) وقد أُشبِعَت بحثًا، واستوعبت كافة الضوابط وعامة الوظائف، فالحاكم كما يقول عليه السلام: «**السُّلْطَانُ وَزَعَةُ اللهِ فِي أَرْضِهِ**»(١).

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٣٢/ ٥٣٣. والوزعة: جمع وازع، وهو الحاكم يمنع من مخالفة الشريعة.

وإن كان الراعي غير من اختاره الله سفيرًا عنه وواسطة بينه وبين عباده سواء اختاره الناس أو ورثه عمن سبقه، أو تغلب فحكم، فهو في المركز الأعظم، والمحور المؤثر الفاعل فلابد له من القيام بمهامه من سياسة الأمة ببسط العدل، وإقامة الحق، وضبط الأمر، وإشاعة الإحسان، وتوفية الحقوق، ومحاسبة الولاة، وحسن السيرة في كافة ما يُقَوِّم من تولى أمره.

ومن الطبيعي: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[1].

فصلاح الراعي صلاح رعيته، وفساده فسادهم، والناس على أديان ملوكهم.

وكل هذا بحسب الاقتضاء، لا العلَّة التامة، فهو مما يقتضيه الوضع السليم والسير الطبيعيين ولكنه قد يتخلف.

وأعظم شاهد على ذلك قيام الصفوة المنتخبة من الله ﷻ أنبياء وأئمة هدى، داعين إلى الله تعالى مبلِغين أحكامه قائمين بالقسط في خلقه فما آمن بدعوتهم، وما اهتدى بهديهم إلا القليل كما حكى الله تعالى وقوله الحق والصدق في قصة نوح عليه السلام وقد قضى داعيًا قومه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[2]، فكانت الحصيلة: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا

(١) سورة الأعراف / ٥٨.

(٢) سورة العنكبوت / ١٤.

كَانُواْ يَفْعَلُونَ * وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٞ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٞ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾(١).

كما حكى عظم حلمه وأناته عن أفاعيل بني إسرائيل: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقْتُلُونَ ﴾(٢).

ومن المفارقة العجيبة اللافتة أن يستعبدهم الأرذال فيحكموهم بالجور ويستأصلون شأفتهم وهم لهم سامعون ولدعوتهم مجيبون، كما نصَّ واقعهم القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٞ ﴾(٣).

وقد تكررت الآية الكريمة متحدة المعنى متقاربة الألفاظ في سورة الأعراف آية ١٤١ وسورة إبراهيم آية ٦.

---

(١) سورة هود / ٣٦ ـ ٤٠.

(٢) سورة المائدة / ٧٠.

(٣) سورة الأعراف / ٤٩.

ولقد مَنِيَ إمام الحق والهدى إبَّان حكمه، وفترة عهده بالبلاء المبرم من الأمة: من أعدائه، ومن كان على الظاهر يواليه، فمُنِيَ عليه السلام بالخذلان والتنكر والبرم بعدله، وجميل سياسته، وحسن تدبيره ورعايته.

وقد بثَّ همومه، ولواعج أحزانه وأشجانه وآهاته وحسراته في مواطن عدة ومواقف كثيرة، حتى ضاق بهم ذرعًا.

حتى قال عليه السلام:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلاَءِ القَوْمُ عَلَيْكُمْ لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا وَدَعَوْتُكُمْ سِرًّا وَجَهْرًا فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا أَ شُهُودٌ كَغُيَّابٍ وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ أَتْلُو عَلَيْكُمُ الحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ البَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ البَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ الحَنِيَّةِ عَجَزَ الْمُقَوِّمُ وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ، أَيُّهَا القَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ الغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ الْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ لَوَدِدْتُ وَاللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي

بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةَ مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ»(١).

وقال عليه السلام:

«مَا تَكْفُونَنِي أَنْفُسَكُمْ فَكَيْفَ تَكْفُونَنِي غَيْرَكُمْ؟ إِنْ كَانَتِ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَاتِهَا وَإِنَّنِي الْيَوْمَ لأَشْكُو حَيْفَ رَعِيَّتِي كَأَنَّنِي الْمَقُودُ وَهُمُ الْقَادَةُ أَوِ الْمَوْزُوعُ وَهُمُ الْوَزَعَةُ»(٢).

ومن ثمَّ فقد أقام الله وهو أحكم الحاكمين، من يتولى إرشاد خلقه ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(٣).

وبعد..

فالسلطان مالك الأزمة والأمور، متولٍّ للشؤون الخطيرة، وموغل التأثير في البلاد والعباد.

فصلاحه وفساده، وطهارة وخبث سريرته، وحسن وقبح سيرته تنعكس إيجابًا وسلبًا في سعادة وشقاء من يحكمهم ويرعى شؤونهم.

«اطّلع مروان بن الحكم على ضيعته بالغوطة فأنكر منه شيئًا فقال لوكيله: ويحك إني لأظنّك تخونني، قال: أ تظنّ ذلك ولا تستيقن؟ قال: وتفعل؟ قال:

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٩٧/ ١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٦١/ ٥٢٠.

(٣) سورة النساء / ١٦٥.

نعم والله إني لأخونك، وأنت تخون الخليفة، والخليفة يخون الله، فلعن الله شرّ الثلاثة»[١].

الثانية والستون: اختر رفيق طريقك:

(سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ):

وهي لفتة أخلاقية رائعة، ومحاسن التربية الدينية الهادفة ومظهر للترابط الاجتماعي.

فالوحدة وحشة، والطريق ظرف الحوادث، والرفيق مؤنسٌ رفيقه، وقد عُنيت التربية الدينية بضوابط رفيق الدرب والصاحب في السفر، وحسن انتقائه، وتحليه بما يُرجى منه زمان الانتقال والارتحال، كما أولت عنايتها بالسفر وآدابه من عدة أصحابه وما ينبغي أن يتحلوا به من خلق في حديثهم ومزاحهم وطعامهم، وجميل تعاونهم، وحسن تقاربهم مالًا ونفقةً وخدمة إلى سنن عالية، وشرعة راقية.

والحديث في ذلك جمّ وافر أكتفي بإيراد:

أ) عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجرًا وأحبهما إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه**»[٢].

ب) وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حق المسافر أن يقيم عليه**

---

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣٤٠.

(٢) الكافي ٢/ ٦٦٩.

أصحابه إذا مرض ثلاثًا»[١].

ومن المحتمل تطبيق المعنى في هذه الحكمة الجليلة بما يتفق ومذاق أهل المعنى والعرفان:

بأن الرفيق الدائم في مسيرة الطريق هو العمل، فإنه القرين الذي لا ينقطع ولا ينفصل بل هو السائر مع صاحبه خيرًا كان أو شرًا، مقترنٌ به في قبره ويوم حشره ونشره فليكن نعم القرين.

فإنه أولى بحسن الاختيار من الصاحب في سفر قصير المدة، منتهي الغاية، محدود النفع والأثر في الحياة الدنيا.

والسفر الحقيقي رحلة الآخرة، فآه ثم آه من قلة الزاد وبعد السفر، وحراجة المنقلب، وهول المطلع، والله المعين وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وقد قيل: الرفيق إما رحيق وإما حريق.

ففي حديث قيس بن عاصم وقد وفد مع جماعة من بني تميم على النبي صلى الله عليه وآله فقال له: يا رسول الله عِظنَا موعظة ننتفع بها فإنا قوم نقر بالبرية، فكان مما قال له صلى الله عليه وآله: **وإن لا يدلك يا قيس من قرين يرفق معك وهو حي وترفق معه وأنت ميت، فإن كان كريمًا أكرمك الله، وإن كان لئيمًا أساءك ثم لا يحشر إلا معك، ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحًا، فإنه إن صَلُحَ أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك، ثم صاغ الموعظة شعرًا:**

---

(١) الكافي ٢/ ٦٧٠.

تخــيَّر خليطًــا مــن فعالــك إنــما قرينُ الفتى في القبرِ ما كان يفعـلُ
ولا بد بعـد المـوتِ مـن أن تعـدَّه ليــوم يُنــادى المــرءُ فيــه فيُقْبِــلُ
فإن تكُ مشغولًا بشيءٍ فـلا تكـنْ بغيرِ الـذي يـرضى بـه اللهُ تُشْـغَلُ
فلن يصحبَ الإنسانَ من بعدِ موتِـهِ ومن قبلِهِ إلا الذي كـان يعمـلُ(١)

الثالثة والستون: جارك قبل دارك:

(وَعَنِ الجَارِ قَبْلَ الدَّارِ):

وتمثل هذه الحكمة نظرة إيمانية، واجتماعية حيث تسكن النفس إلى مواطن الأمان، ومجمع الإيمان.

فيأمن بوائق جاره، ويسعد بجواره، يتفقده ويتعرف أمره، فيسعفه ويقضي حاجته، ويحيا همَّه، ويعيش أجواء الإيمان، في جوار من هو على شاكلته، فلا يرجى منه إلا الخير.

ولقد تناولت الآثار أبعاد حسن الجوار مما يدلل على عمق النظرة التربوية الهادفة، وجميل عطائها إذا ما روعيت حدودها وضوابطها، وأديت حقوقها.

فمن الهدي في ذلك:

أ) عن أبي عبدالله عليه السلام عن أبيه عليهما السلام قال: «**قرأت في كتاب علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب أن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه**».

---

(١) مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار ٢/ ١٥٠ ـ ١٥١، ملخصًا.

ب) وعنه عليه السلام قال: «**حسن الجوار يزيد في الرزق**».

ج) عن أبي مسعود قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: «**حسن الجوار زيادة في الأعمار وعمارة الديار**».

د) وعنه عليه السلام قال ـ قاله والبيت غاصٌّ بأهله ـ «**اعلموا أنه ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره**».

هـ) عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع، قال: وما من أهل قرية يبيت (و) فيهم جائع ينظر الله إليهم يوم القيامة**».

و) وعنه عليه السلام قال: «**من القواصم الفواقر التي تقصم الظهر جار السوء، إن رأى حسنة أخفاها وإن رأى سيئة أفشاها**».

ز) عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أعوذ بالله من جار السوء في دار إقامة، تراك عيناه، ويرعاك قلبه، إن رآك بخير ساءه وإن رآك بشر سرَّه**».

ومن الطريف:

تحديد الجوار وسعته لينتشر المعروف والإحسان، وتنعقد الأواصر، وتعمر الأجواء بالإيمان وتبادل الحقوق والقيام بأمرها.

فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**حدّ الجوار أربعون دارًا من كل جانب من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله**»[1].

---

(١) الكافي ٢/ ٦٦٦ ـ ٦٦٩.

ومن اللافت:

تعميم الجوار حتى في مدافن الموتى فيختار قرب قلوب الصالحين لتشمله بركاتهم ورحمات الله الهابطة عليهم.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ادفنوا موتاكم وسط قومٍ صالحين، فإن الميت يتأذّى بجار السوء كما يتأذّى الحيّ بجار السوء**»[١].

وجاء في أحكامنا الفقهية:

«يستحبُّ أن يدفن الميت في أشرف البقاع، فإن مات في بلد لا أحد من الأئمةعليهم السلام استُحِبَّ نقله إلى بعض مشاهدهم، فإن تعذّر دُفِنَ في مقبرةٍ من يُذكر بخير وفضيلة من شهداء أو صالحين»[٢].

الرابعة والستون: تجنب الهزل ولو حكاية ورواية:

(إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكًا وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ):

فالدين قويم، وشرع متين، وشعاره الانضباط في الخلائق، والانبساط اللائق، فلا رهبانية مطلقة، ولا انغلاقة مطبقة.

فللجدِّيَّة مجالها الواسع، وللمفاكهة مساحتها المشروعة، ولا تنافي بينهما كما لا انحصار في إحداهما.

---

(١) كنز العمال ١٥/ ٥٩٩.

(٢) تحرير الأحكام، للعلامة الحلّي ١/ ١٣٣.

والحق إنها طريقة مثلى، وسمة فضلى، نمرقة وسطى، ويكمن الخلل في تجاوز الحدود، ونبذ القيود ومجانبة الاعتدال.

والإمام عليه السلام يوجّه محذرًا من استمراء اللهج بالتفكه في المجلس والدأب على استثارة النفوس بما يبعث على الضحك بذكر ما لا يليق ولا ينسجم بحفظ اللسان والمروءة.

ولا يعني إرشاده استهجانه المطايبة في القول، وبواعث السرور والانبساط مع رعاية الضوابط الشرعية، فإن ذلك من المحاسن التي يقرُّها الدين ويثني عليها مادامت في انتظامها وحدودها.

وحياة الهداة(١) وسيرتهم وحديثهم على ذلك وفي ذلك حافلة بالطريف من الأريحية والانشراح والتبسم والضحك، بل ومرغبة في التخلق بذلك.

فإلى نماذج من ذلك:

١ـ عن معمَّر بن خلاد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام فقلت: جعلت فداك، الرجل يكون مع القوم فيجري بينهم كلام يمزحون ويضحكون؟ فقال عليه السلام: «**لا بأس ما لم يكن.**

فظننت أنه يعني الفحش، ثم قال: **إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأتيه الأعرابي فيهدي له الهدية ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا فيضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وكان إذا اغتم يقول: ما فعل الأعرابي ليته أتانا**».

---

(١) وقد عقد الشيخ المجلسي في بحار أنواره بابًا فيه ذكر مزاحه وضحكه ج١٦/ ٢٩٤ ـ ٢٩٩.

٢ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «**ما من مؤمن إلا وفيه دعابة.**

قلت: وما الدعابة؟ قال: **المزاح**».

٣ـ وعنه عليه السلام قال: «**كيف مداعبة بعضكم بعضًا؟** فقلت: قليل، قال: **فلا تفعلوا**[1] **فإن المداعبة من حسن الخلق وإنك لتدخل بها السرور على أخيك، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يداعب الرجل يريد أن يسرَّه**».

٤ـ وعن أبي عبدالله بن محمد الجعفي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «**عن الله عز وجل يحب المداعب في الجماعة بلا رفث**».

٥ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام كثرة الضحك تميت القلب، وقال: «**كثرة الضحك تميث الدين كما يميث الماء الملح**».

٦ ـ وفي رواية أخرى: «**كثرة الضحك تذهب بماء الوجه**».

٧ـ وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إذا قهقهت فقل حين تفرغ: اللهم لا تمقتني**».

٨ ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «**إياكم والمزاح فإنه يذهب بماء الوجه، ومهابة الرجال**».

٩ ـ وعنه عليه السلام قال: «**لا تمار فيذهب بهاؤك أو لا تمازح فيجترأ عليك**»، وعن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: «**كان يحيى بن زكريا** عليهما السلام **يبكي ولا يضحك، وكان عيسى بن مريم** عليهما السلام **يضحك ويبكي، وكان الذي يصنع عيسى** عليه السلام

---

(١) فسِّرت بـ(أي لا تفعلوا من قلة المداعبة بل كونوا على حد الوسط).

أفضل من الذي كان يصنع يحيى عليه السلام»(١).

هذا وقد نَعَتَ أميرَ المؤمنين عليه السلام أعداؤه الجفاة بأنه ذو دعابة لما يمتاز به من سجاحة الخلق ولين الطبع، ولما امتازوا به من خشونة الطينة، ووعورة العريكة.

وبعد..

وبعد فإن هذه الحكمة العالية تنعى خلق البطَّالين، وتماديهم في الفضول باللهو العابث، وإشغال ناديهم بمنكر القول والفعل، مما لا ينفك عن فاحش اللفظ، وكشف العورات والسوآت، وهتك الحرمات.

ولا تعني حملة الهدى وأرباب الصلاح، ودعاة الإصلاح من حسن مؤانسة، وجميل مفاكهة، وترويح النفس، وجمام القلب وفقًا لجِبِلَّتهم الطيبة، ومزاجهم الأريحي، وأخلاقهم الدمثة.

الخامسة والستون: توجيهات حول المرأة:

مقدمة:

للإحاطة بشؤون المرأة، واستجلاء الموقف منها، وتلقي ضوابط النظر إليها، وأنماط التعامل معها لابد من التركيز أولًا على واقعها وحقيقة أمرها على ضوء الهدي الديني المعرِّف بملكاتها، والمحدد لدورها وصلاحياتها.

---

(١) الروايات: الكافي ٢/ ٦٦٣ ـ ٦٦٥.

ومن ثمَّ يعطف على ذلك أقوال الهداة الإلهيين، والمربين الربانيين، فهم لا ينطلقون إلا من رؤية دينية ثاقبة، ونظرة تربوية مستوعبة، أقامت الأمور في نصابها، ووزنتها في موازين قسطها وعدلها.

ولبيان الحقيقة أعرض ما يلي عبر النقاط التالية:

الأولى: تساوي الخلق:

أ) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾(١).

ب) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ﴾(٢).

ت) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣).

ث) ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾(٤).

ج) ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾(٥).

---

(١) سورة فاطر / ١١.

(٢) سورة النساء / ١.

(٣) سورة الحجرات / ١٣.

(٤) سورة النجم / ٤٥ ـ ٤٦.

(٥) سورة الشورى / ٤٩.

الثانية: تساوي التكليف والجزاء:

أ) ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾[1].

ب) ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾[2].

ت) ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ * وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[3].

وعلى هذا النسق ما تقرؤه من تعاطف الصفات العاليات والسمات المشتركات عملًا وجزاء:

ث) ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم

---

(١) سورة آل عمران / ١٩٥.

(٢) سورة النساء / ١٢٤.

(٣) سورة التوبة / ٧١ ـ ٧٢.

﴿مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾[١].

وفي قوله ﷻ:

ج) ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[٢].

وكل ما ورد في شرع الله تعالى من حكم فهو مشترك بين الصنفين، إلا ما اختصت بأحدهما في ذاته أو كيفيته.

الثالثة: التفاوت تكوينًا وتشريعًا:

أ) ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾[٣].

ب) ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾[٤].

ت) ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾[٥].

ومن المعلوم من دين الله تعالى:

---

(١) سورة الأحزاب / ٣٥.

(٢) سورة الحديد / ١٢.

(٣) سورة آل عمران / ٣٦.

(٤) سورة النساء / ٣٤.

(٥) سورة البقرة / ٢٢٢.

١ ـ اختلاف سهام المواريث بين الذكر والأنثى.

٢ ـ ترك العبادة فترة الحيض والنفاس.

٣ ـ الجهاد والحرب، ومرجعية الأحكام والتقليد، والقضاء، والشهادات وغيرها مما حفلت به النصوص الدينية، فضبطت حدوده، وحددت ضوابطه مما لا مجال لشرح مسائله.

الرابعة: المولى عدل حكيم:

وعدله وحكمته قائمان في تكوينه وتشريعه، فتفاوتُ العقل والعاطفة في الصنفين توظيفٌ لهما في مواطنهما، واختلافُ الأحكام منسجمٌ مع ما يراد منهما ولهما.

ومن الدين القويم والعقل السليم الإذعان والتسليم للإرادة الإلهية والحكمة الربانية.

وسيَّان في ذلك تجلي الأسرار والوقوف على الحقائق وعدم الإحاطة بها هنالك، فما عسى الإنسان الناقص أن يعرف الكنه ويخبر الواقع.

وما دام الأمر كله للمهيمن على الأمر كله فالمرء على هدي من ربه وبيِّنةٍ من دينه وبصيرة في انقياده وتسليمه.

فالمرجع إلى الله الرب العدل الحكيم والعليم المحيط ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

---

(١) سورة الملك / ١٤.

فلا ظلم، ولا جهل، ولا محاباة، فالكل خلقه وعباده، خلقهم كما أراد، وشرَّع لهم ما فيه بقاؤهم وصلاحهم ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾.

وبعد..

فهذه ركيزة الأحكام، وقواعد النظام، وضوابط التشريع.

وللإمامعليه السلام حديث في مواطن عديدة حول (المرأة)، وحديثه عنها ناظر إلى طبيعتها والسمة العامة في شخصيتها، ومن الطبيعي أن ذلك لا يعني: أن كل امرأة مفضولة، وكل رجل فاضل، فسُلم الكمالات ومدارج الملكات يمتاز في بلوغها الأماثل، ويسبق فيها أقوام ويلحق آخرون.

قرر فيهاعليه السلام جملة من شؤونها، ونبذة من وظائفها، ونهجًا في التعامل والتعايش معها.

وسأعرض في هذا الفصل مقالة الإمامعليه السلام هنا وفي مواطن أخرى.

فأقول وبالله التوفيق ومنه الهداية والسداد:

أولًا: المشورة والرأي:

«وَإِيَّاكَ وَمُشَوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ»:

وطلب المشورة وإسعاف الرأي قضية تتبع موضوعها، فربما كان رأي الأنثى أسدَّ وقولها أرشد إذا كان فيما تحيط به خبرًا.

ولكن الحديث ليس في ذلك، وإنما هو ناظر إلى طبيعة الأمر أولًا.

وإلى طبيعة ما يطلب فيه الرأي ويستعان بالمشورة على إدراكه والمقولة

الفصل فيه.

فإدارة الحرب، ونظم الشؤون العظام وما يدخل في هذا الفلك يناط بالإدراك الدقيق، وصلابة الموقف بقلب لا تحركه العواصف، ولا تميله العواطف.

والرجل في ذلك أمكن، وبه أولى وأليق.

وهذا ما نصّ عليه الإمام عليه السلام في المفردتين: الأفن، الوهن، والأفن بالسكون النقص، وبالتحريك ضعف الرأي، والوهن الضعف.

ومن الطبيعي أن من يحمل هذه السمة في رأيه وعزيمته فإنه في مشورته وقدح رأيه يفرغ ما يحمله وتحويه جوانحه.

ولعله لذلك جاء «**شاوروا النساء وخالفوهنَّ**».

ولنحو ذلك جاء قوله عليه السلام:

«**وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الوَاحِدِ**»(١).

وهو قول الله تعالى في قرآنه:

﴿**وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ**﴾(٢).

وقد تمثل أيضًا في أمر شرعي يعود كذلك إلى طبيعة نوعية المرأة أو هو

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨٠/ ١٠٦.

(٢) سورة البقرة / ٢٨٢.

نتيجة الإذعان إلى حكم الخالق الحكيم المبدع، الذي فاوت بين الصنفين كما فاوت في مواطن قبول شهادتين وردها وأنحاء ذلك مما أملته الشريعة من أحكام في هذا الشأن.

وليس القصد ـ والله أعلم ـ أن كل رجل أكمل عقلًا وأتم ذكاء من كل امرأة[1].

ثانيًا: الحجاب حجاب من الفتنة والبلاء:

وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ»:

أ) وموضوع الستر والحجاب ورعايته شعبة من نظر الدين الدقيقة للمقدسات وصون الحرمات، وحفظ النواميس برؤية مميزة حكمًا وموضوعًا.

وقد أفاض دستور الإسلام وقانون التشريع قرآنًا كريمًا وهديًا نبويًّا شريفًا في أبعاد ذلك وآثاره، وكافة ما يلتقي بتحقيق أهدافه، وما ينجم من سوء عند تجاوز حدوده.

وهو حديث واسع متشعب الأطراف أُفرِدت فيه بحوث وكتب تناولت تحليله وتعليله وإيجابياته مما لا متسع لتناوله هنا، وقد تناول السيد محمد تقي النقوي في شرحه (مفتاح السعادة) ١٥/ ٢٢٠ ـ ٢٢٨، طرفًا من الموضوع مقدمًا له مقدمات ممهدة.

---

(١) الأخلاق من نهج البلاغة / ٣١٩.

ونظرًا للتفاعل الطبيعي بين الذكر والأنثى والتجاذب العاطفي بين الصنفين، وما تحمله المرأة من عنصر الإثارة والتحريك، جاء تشريع الستر والحجاب عاملًا مهمًا وحاجزًا منيعًا لصدِّ عادية الهيجان الغريزي ولسد منافذ الفتنة والافتتان والتفاعل تعبيرًا وانفعالًا عاطفة مشتركة بين الصنفين.

ومن ثمَّ شمل التوجيه والتحذير كلا الطرفين.

وقد عُني هذا المقطع بتحصين المرأة بالغضِّ من أبصارهنَّ وعدم ملء أعينهن من الرجال، واعتداد ذلك من وظيفة القائم بتربيتهنَّ والتأكيد على أن تحقيق الستر والحجاب كاملًا هو الضمان لصونهنَّ والكفيل بسلامتهنَّ، وهو انتزاع قرآني من قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[1].

وقوله ـ جلَّت حكمته ـ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2].

ب) الخلوة أعظم خطرًا:

«وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ»:

وتناول الإمام عليه السلام (الخلوة) بالأجنبية وأنها مظنة الفساد والشر فالمجال

---

(١) سورة النور / ٣١.

(٢) سورة الأحزاب / ٥٩.

الضيّق والانفراد مهيِّئان معِدَّان لإبراز مشاعر وممارسة عواطف متبادلة ونظرة مريبة ومسرح لخواطر شيطانية جاذبة لمجتمعين في خلوتهما آمنين من أعين الرقباء، فيتأتى لهما ما لا يدركاه في الملأ فهما إذ ذاك في حجاب وإن رقَّ الحجاب.

والتعبير بـ(من لا يوثق به عليهنَّ) دقيق، فمضمون الملكات مأمون، لغض بصره، وعفة فرجه، وخوفه من ربه، فلا يخشى تجاوزه، ولا يظن به إلا خيرًا.

ج) وربما كانت المعرفة بريد سوء:

(وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ):

فالمعرفة القائمة مظنة للاتصال المريب مما قد ينجم عنها سلبيات هتك الحجاب والخلوة.

ولا سيما في هذا الزمن النكد التعيس من توفر سبل الاتصال وإتاحة الارتباط إذا خفي الرقيب، وأمن السامع الناظر، فالظرف متاح وقد حلا وقت الحديث، واستغل الشيطان الفرصة فنفث وسوسته وأغرى من يصطادهم لبث عواطفهم.

وقد نبَّه الإمامعليه السلام على الدقيق من مكامن الخطر بسدِّ منافذ السوء ومظان الوقيعة في الإثم صونًا للحرمات وحفظًا للمقدسات ورعاية للنواميس وحياطة للشرف.

ثالثًا: دورها وواقعها:

«وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ»:

فقد أُعِدَّت إعدادًا قويًا يضمن صلاحها، ويكفل سلامتها، ويوفر كرامتها ويحفظ شخصيتها من الابتذال والامتهان.

ويتمثل ذلك فيما عرضه عليه السلام هنا في صورتين:

الأولى: خاصة نفسها:

فتُعنى بما خُلِقت له، وهيئت لأجله، فترتقي مراقي الكمال بالعلم والإيمان والعمل الصالح لتتبوأ بذلك أعلى المراتب وأسمى المقامات.

وتتولى وظائفها (زوجًا) و«جهاد المرأة حسن التبعل» بكل ما ترمي إليه الكلمة وفق ما تمليه المعارف الدينية والمكارم الأخلاقية والمحاسن النفسية.

وترعى(أمًّا) تربية أفلاذ كبدها فتحوطهم بجميل عنايتها، وتسكب عواطفها الإيمانية، لتحضنهم في حجرها الكريم، وتنضحهم من معدنها الطيب ما تقرُّ به العين ويثلج به القلب.

الثانية: ريحانة لا قهرمانة:

(خير متاع الدنيا المرأة الصالحة)، فهي متعة النظر، سرور النفس، سكن القلب، رَوح ورُوح وريحانة طيبة الريح.

فمن طبعها الرقة واللطف، يُرفَقُ بها كما يُرفَقُ بالقوارير، فلا تُحَمَّلُ

الأعباء، ولا تُثقَلُ بالمشاق ولا تكلف بالصعاب، ولا تجشم عناء إدارة الأمور.

وطريفٌ جدًّا:

أن لا تلزم المرأة بخدمة زوجها والقيام بوظائفها، بل على الزوج توفير وتهيئة جملة من شؤونها كما قُرِّرَ وحُرِّرَ مفصلًا فيما لهما وعليهما من حقوق وما يحسن بهما ومنهما.

رابعًا: حدود وضوابط:

أ) ونؤكد بدءًا على هذه الحقيقة:

إن ما ترمي إليه هذه الوصايا هو التأكيد على طبيعة الأنثى التكوينية والتقائها بالحكمة التشريعية.

ولا تحمل على الإطلاق ذرَّة من الانتقاص، ولا خردلة من احتقار، وإنما هو تناسب الحكم للموضوع بل وحكاية عن التكريم.

ومما يتسق هذا المساق:

أ) تجاوز كرامة نفسها:

«وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا»:

إن للمرأة كرامتها الموفورة، وتمثل رعايتها، والحفاظ عليها، والعناية بشخصيتها.

وليس من كرامتها ولا إكرامها أن يُفتح لها الباب مشرعًا لما هو خارج عن دائرة صلاح ذاتها.

وما ألطف تعبير الإمام عليه السلام (بكرامتها) فهي طافحة بالتقدير والتوقير.

ب) شفاعتها:

«وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا»:

فهي رقيقة القلب، ملؤها عاطفة، يغريها حسن الظن، ويطريها الثناء، سريعة التفاعل والانفعال، فتُستَغَلُّ لذلك، فينجم عنه ما يشينها لا ما يزينها، ويعمُّ ضرره عليها وعلى سواها، فإبعادها عن التشفع إحسان وتكريم، لا إساءة وتحطيم، وعافية لها ولغيرها من عناء وشقاء، وراحة قلب.

الهادي العباسي وأمّه:

«قيل: إن وفاة الهادي كانت من قبل جوارٍ لأمّه الخيزران كانت أمرتهن بقتله... وكانت الخيزران في أول خلافة ابنها تقتات عليه في أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبل في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذّل فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمور الملك... وكانت كثيرًا ما تكلّمه في الحوائج فكان يجيبها إلى كلِّ ما تسأله، حتى مضت أربعة أشهر من خلافته، وانثال الناس عليها وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدو إلى بابها، فكلمته يومًا في أمر لم يجد إلى إجابتها سبيلًا، فاعتلّ بعلة فقالت: لا بدّ من إجابتي، قال: لا أفعل... قالت: إذن والله لا أسألك حاجة أبدًا، قال: إذن والله لا أبالي، وحمي وغضب، فقامت مغضبة... فقال: ... والله لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوّادي أو أحد من خواصّي أو

خدمي لأضربنّ عنقه وأقبضنّ ماله...»[(١)].

خامسًا: إنما الغيرة في موضعها:

«وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ»:

فالأمر دقيق وحسّاس، وإذا لم يوضع موضعه فينقلب مرضًا وخطرًا، فالغيرة في واقعها دين وإيمان، (ورَغِمَ أنفُ مَن لا يغار).

وفي ذلك رعاية للحرمات، وحفظ العرض والنسل، والصون من الوقوع في المأثم، ولكن ذلك كله يجب أن يكون في نصابه وحدوده، فلا يسترسل في سوء الظن واستحكام الشك، وتغلغل الريبة، فذاك داء خطير وشرٌّ مستطير.

إذن فهو محكوم بالضوابط، قائم بالواقعية، منوط بالحق والصدق، لا العواطف ورجم الظنون، وباعث الأهواء والخيال الفاسد.

وقد جمع الإمامعليه السلام في هديه الجامع ما يتعلق بالطرفين وما ينبعث من سلبيات أثر ذلك.

فنهى أولًا مؤكدًا عن (التغاير) في غير مظنته، فذلك مما لا يجوز للمؤمن استباحته، والوقوع في خطيئته.

وثانيًا إلى بيان سلبية ذلك نتيجة لسلبية الغيرة المذمومة متمثلة في:

«فإنها تشجع المرأة السقيمة[(٢)] على الخيانة، وتغري البريئة بها، وتقول في

---

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

(٢) كذا ولعلها السليمة.

نفسها: كنت أحرص على ثقته بأمانتي وعفافي، أما وقد أصبحت عنده في مكان الريب فلم يبقَ ما أحرص عليه»(١).

فقد عادت موطن ريب وموقع تهمة فربما بعثها ذلك إلى اقتراف الجريمة لأنها وصمت بها وهي لم ترتكبها، فيهون عليها فعلها ولو سرًّا حيث لا يزيد الأمر بعد أن مضى السهم بما فيه.

وتعيش وهي بريئة عليلة حيث ترى عين بعلها تنظرها جانية خائنة، فهي تحيا وإياه في قلق واضطراب، وسقم ينفذ في أعماقها.

وفي الشعر الحكمي نظم هذا المعنى:

ما أحسن الغيرة في حينها ... وأقبح الغيرة في غير حين

من لم يزل مُتَّهِمًا عرضَهُ ... مناصبًا فيها لرجم الظنون

يوشك أن يغريَها بالذي ... يخاف أو ينصبَها للعيون

حسبك من تحصينها ضمها ... منك إلى خيم كريم ودين

لا تظهرنْ يومًا على عورةٍ ... فيتبع المقرون حبل القرين

وقال الآخر:

يا أيها الغائر من لا تغر ... إلا لما تدركه بالبصر

ما أنت في ذلك إلا كمن ... بيَّته الدبّ لرمي الحجر

(١) في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٣١.

جماع القول:

أ) إن المرأة خلق الله المكرم، وأمته، أبدع خلقها كما يريد ويراد منها، فشرع لها وظائفها بعلم محيط، وحكمة بالغة، وإحسان ورفق.

ب) ولئن اختصت بأحكام فما هو إلا وفق مصالحها، وقوام أمرها.

ج) وأما الكمالات، وفضائل الملكات فذلك هو المضمار وميدان السباق، لا ميزة فيه لذكرٍ على أنثى، ولا فضلَ لأحدهما إلا باستحقاق ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وهذا ما قامت عليه حياة البشر وتفاوتت فيه درجاتهم سبقًا ولحوقًا، فكم من امرأة سمت على الكثير من الرجال علمًا وإيمانًا واستقامة وخيرًا، وبذل خير، وشجاعة قلب، وجميل مواقف[١].

د) وهل الرجال متساوون في قدراتهم وفضائلهم وامتيازاتهم؟!

هـ) ومن العدل والإنصاف أن لا نقصر النظر على ما يتراءى من النعت بالنقص، فيفهم منه الانتقاص، بل لا بد من النظر إلى مواطن الإطراء والإشادة والإجلال والتكريم.

وبعد..

«فإن من الضروري لمعالجة أي موضوع استقراء كامل نصوصه ودراسة ركائزه ومنطلقاته وسائر ملابساته حتى نقف على الحقيقة فيه، ولا يتأتى مثل

(١) فتلك (أمُّ المؤمنين) الأولى، المثل الأعلى، وصفية بنت عبد المطلب، ونسيبة بنت كعب (أم عمارة)، والسيدة الحوراء (زينب بنت علي)، وسواهن، وأما (فاطمة بنت محمد) فلا يقاس بها أحد، فهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.

ذلك بدراسةٍ جزئيةٍ وإغفال أخرى»[١].

هذا وقد سبق عرض الموضوع في جملة من أطرافه في (الأخلاق من نهج البلاغة)/ ٣١٦ ـ ٣٢٢، متناولًا أحاديث أخرى في هذا الشأن[٢].

---

(١) الأخلاق من نهج البلاغة / ٣٢٢.

(٢) مقولة عجيبة ورأي غريب:

«وأيضًا نقل صاحب كتاب (كيف يحيا الإنسان) قصة هندوكية يرجع تأريخها إلى أربعة آلاف عام، تعكس رأي الإمام عليه السلام عن المرأة بكل وضوح.

وهي:

أن الله عندما خلق المرأة أخذ من الأزهار جمالها، ومن الأمواج ضحكتها، ومن قوس قزح ألوانه، ومن الطيور أغاريدها، ومن النسيم قبلاته، ومن الحمل وداعته، ومن الثعلب مكره، ومن زخاخ المطر تقلبه، ونسجها كلها في مخلوقة أنثى، وقدمها إلى آدم لتكون زوجة له.

وسُرَّ آدم بها، وما عاشرها أيامًا، حتى جاء إلى ربه وقال له: ابعد عني هذه المرأة، فإني لا أستطيع العيش معها، فأخذها منه، ولكن آدم أحس بعدها بالوحشة والغربة، فعاد إلى ربه وقال: أعطني حوائي فأنا لا أستطيع العيش بدونها، فأعادها إليه...، ولم تمضِ أيام حتى عاد بها آدم إلى ربه وقال: عجزت عن حملها ولا حاجة لي بها، فخذها عني، فأخذها عنه، ولكن عاد وطلبها بعد أيام، فقال الله له: أقسمْ بأن لا تغير فكرك من جديد، فأقسم ورضي نصيبها معه.

ومعنى هذه القصة بطولها أن المرأة شرٌّ لا بد منه منذ آدم وإلى يوم يبعثون...

وأيضًا معنى هذا أن رأي الإمام في المرأة واحد من مئات».

في ظلال نهج البلاغة ٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

ولا أدري بماذا أعلق بغير القول: أنها قصة هندوكية، وما أجمل ما جاء في حديث أهل البيت عليهم السلام:

«عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إن الله عزّ وجلّ خلق آدم من طين ثم ابتدع له حوَّاء، فجعلها في موقع النقرة التي بين وركيه، وذلك لتكون المرأة تبعًا للرجل، فقال آدم: يا ربّ ما هذا الخلق الحسن الذي آنسني قربه، فقال الله: يا آدم هذه أمتي حوَّاء، أفتحب أن تكون معك؟ تؤنسك وتحدثك وتكون تبعًا لأمرك؟ فقال: نعم يا ربّ ولك بذلك عليَّ الحمد والشكر ما بقيت.

السادسة والستون: تدبير العمل ووظيفة كل عامل:

(وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ):

فذلك من جميل النظم، وحسن الإدارة، وصلاح الأمر، ودقة المحاسبة.

فإذا كان العمل متعدد الجوانب، واسع الأطراف، فلا يتأتى أداؤه وافيًا بغرضه محققًا نتائجه إلا بتوزيعه وتخصيص كل عامل بمهمة توكل إليه، فيعلم بذلك قيامه فيها، وأداؤه لها، أو إخلاله وتقصيره فيها، فيقف على الموفي والمقصر فيكافي ويجازي كُلًا بما يستحقه.

وأمّا إذا كان الأمر مشاعًا فالموكول إليهم يتواكل بعضهم على بعض ويرمي كل منهم غيره بالتقصير، ولا يعرف رب العمل العامل والمهمل يثيب أو يعاقب مضافًا إلى عدم إنجاح الغرض.

وقد ركز الإمام عليه السلام وأكَّد هذه النظرة الإدارية في عهده العظيم لواليه مالك الأشتر رضي الله عنه وأولاه عنايته:

فقال الله عز وجل: فاخطبها إليّ، فإنها أمتي، وقد تصلح لك زوجة للشهوة، وألقى الله عليه الشهوة وقد علمه قبل ذلك المعرفة بكل شيء.

فقال: يا ربّ، فإني أخطبها إليك، فما رضاك لذلك؟

فقال الله عز وجل: رضاي أن تعلمها معالم ديني، فقال: ذلك لك عليَّ يا ربّ إن شئت ذلك لي، فقال الله عز وجل: وقد شئت ذلك وقد زوجتكها، فضمّها إليك».

وسائل الشيعة ١٤/ ٢.

«ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ[١] وَابْعَثِ العُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ والوَفَاءِ عَلَيْهِمْ»[٢].

«وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ لاَ يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا وَلاَ يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ الزِمْتَهُ»[٣].

السابعة والستون: العشيرة جناح وأصل:

(وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ):

والأصل في ذلك قول الله عز وجل:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[٤].

وقوله جلَّت حكمته:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٥].

فالإنسان فرع لمن سبقه من عموديه وسلسلة أجداده فهو امتداد لهم وأصل لمن نسل منه، وشريك لمن قرُبت لحمته وشدَّته أواصر قرباه.

وبذلك تنمو أسرته، وتتسع عشيرته، وتربطهم في ذلك رحمٌ ماسَّة،

---

(١) الحديث عن عمّال المناطق.

(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣/ ٤٣٥ ـ ٤٣٧.

(٣) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣/ ٤٣٥ ـ ٤٣٧.

(٤) سورة النساء/ ١.

(٥) سورة الحجرات / ١٣.

ووشيجة متدانية، أو متباعدة.

ولقد رعى الدين العظيم الرحم ووشائج القربى، وأواصر النسب، وأحكم نظامها، وشرَّع لها حقوقًا وِفْقَ رُتَبِها، تولَّتْ بيانَها وشرحَها الآياتُ والرواياتُ ورعتْها حقَّ رعايتِها، ورتَّبت عليها آثارها في الحياة والممات.

وما أروع وأجمع مقولة الإمامعليه السلام مفتتح كلمه:

«وإكرام» فهي مكرمة وكرامة وتكريم تحيط بمكارم الأخلاق في كافَّة الشؤون ومختلف الأنحاء قولًا وعملًا للمحسن منهم والمسيء صِلةً وبِرًّا ودفع عادية.

وقد علَّل وجوب إكرام العشيرة بموجباتها:

أ) **جناح الطائر**: فهم قوة الصعود ومحركه، ولو قص جناحاه لما نهض وطار بل يقبع عرضة للخمول والافتراس.

ب) **الأصل والمنبت**: فمن معدنهم تفرَّع، وإلى دوحتهم ينتمي، وإليهم ينتهي ولا يليق بذي مروة أن يتنكر لمنبثَقٍ نَجَمَ منه.

ج) **سلطان القوة**: ومظهر الشوكة والقدرة، وعنوان العز والمنعة.

وقد تناولعليه السلام دور العشيرة في ثنايا خطبه وحكمه:

«أيُّها النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ عَنْ عِتْرَتِهِ وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وألسِنَتِهِمْ وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ

مِنَ المَالِ يَرِثُهُ غَيْرُهُ.

ومنها: **أَلاَ لاَ يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ القَرَابَةِ يَرَى بِهَا الخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لاَ يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ وَلاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ المَوَدَّةَ»**(١).

وقال عليه السلام:

«**الْحِلْمُ عَشِيرَةٌ**»(٢).

فالمرء بفضل تخلقه بالحلم يكسب من يعاشره، وينال مودتهم، لأنه ذو أناة لا يعجل في مقابلتهم بالسوء، ولا يسرع إليه الغضب، فهو بذلك محبوب، ومرغوب في صحبته، فكأن من حوله أسرته وعشيرته.

مسك الختام:

(اسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ القَضَاءِ لَكَ فِي العَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلامُ):

ولقد ختم الإمام الوصي الموصي عليه السلام وصيته الرائدة وبنودها الخالدة وتعاليمه القويمة، ومناهجه الحكيمة:

بالضراعة إلى الله عز وجل واستيداعه:

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٣/ ٦٥.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٤١٨/ ٥٥٠.

أ) دينه فإنه عصمة أمره، وقوام سعادته وفوزه، وزاده إلى آخرته، ومعاده وبما يعنيه الدين من جوامع الحق ومجامع الكمالات، سلامة في عقيدة وإيمان وحسن في عمل والتزام، وفضائل الأخلاق وفواضلها.

ب) دنياه ففيها حياته، وأداء وظائفه، ومزرعة آخرته ومعاشه، وفيها الأهوال وتقلب الأحوال، والصراع مع النفس والهوى، والشيطان، ومخالطة الخلق.

وكل ذلك عوامل للزيغ والضلال والانحراف عن مبادئ الحق والسقوط في الهاوية والانحطاط عن مدارج الكمال.

فلا غنى للصبر عن رعاية الرب وتوفيقه وتسديده حتى يصلح عمله وتحسن خاتمته، فكل خير منه وإليه، ولا يدفع ويمنع السوء سواه، عظمت قدرته ووسعت رحمته.

إذن لا محيص من مدِّ العبد نظره إلى جلال الرب فيودعه دينه ودنياه وهو ـ سبحانه ـ الذي لا تضيع ودائعه.

وهو ـ وحده ـ المسؤول خير القضاء في كل آن عاجله وآجله دنيًا وآخرة.

ولقد كان صدر هذا الهدي القويم القويم والتوجيه العظيم:

«فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله أَيْ بُنَيَّ، وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الله إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ».

وفي ختام هذا السفر النفيس الأنفس هذا الاستيداع المنبئ عن شدة المراقبة وجميل المحاسبة واستمطار التوفيق والرحمة واستكمال النعمة ليسعد باللقاء يوم الموافاة.

هذا وقد جاء هذا الاستيداع مثبتًا بصيغة الطلب تارةً، وبصيغة الخبر تارةً أخرى (اِسْتَوْدِعِ، أَسْتَوْدِعُ).

ولعل ما يعزز الأولى:

(زاد في رواية الكليني والحلبي)، «واستعنْ باللهِ على أمورِكَ فإنه أكفى مُعِينٍ»[1].

وبعد..

فسلامُ اللهِ وصلواتُهُ وبركاتُهُ على مُنْشِيها والمُوصِي بها، الإمامِ الوصيِّ ربِّ الحكمةِ ومَلِكِ البيان، وعلى وصيِّهِ الإمامِ الحسنِ بنِ عليٍّ عليهما السلام سيِّدِ شبابِ أهلِ الجنةِ سبطِ النبيِّ وريحانَتِه صلى الله عليه وآله.

(١) بهج الصباغة ٨/ ٣٥٣.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١ـ **الأحكام الفقهية العبادات والمعاملات**، السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم، الطبعة الرابعة عشر ١٤٣٢هـ، مؤسسة الحكمة للثقافة الإسلامية، النجف الأشرف، العراق.

٢ـ **الأخلاق من نهج البلاغة**، محسن علي المعلم (المؤلف)،

٣ـ أدب **الطف أو شعراء الحسين**عليه السلام، جواد شبر، طبعة ١٤٠٩هـ، دار المرتضى، بيروت، لبنان.

٤ـ **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**، الشيخ المفيد، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، دار المفيد، بيروت، لبنان.

٥ـ **الأزهار الأرجية في الآثار الفرجية**، فرج العمران، طبعة ١٣٨٤هـ، مطبعة النجف، النجف الأشرف، العراق.

٦ـ **أعيان الشيعة**، السيد محسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.

٧ـ **الإمام المجتبى أبو محمد الحسن بن علي**عليهما السلام، حسن المصطفوي.

٨ـ **أنساب الأشراف**، أحمد بن يحيى البلاذري، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

٩ـ **بحار الأنوار**، الشيخ محمد باقر المجلسي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان.

١٠ـ **بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة**، محمد تقي التستري، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، مطبعة سبهر، طهران، إيران.

١١ـ **تحت راية الحق في الرد على فجر الإسلام**، عبد الله السبيتي العاملي، طبعة ١٣٥١هـ، مطبعة العرفان، صيدا، لبنان.

١٢ـ **تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الإمامية**، العلاّمة الحلّي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، مطبعة اعتماد، قم المقدسة، إيران.

١٣ـ **تذكرة الخواص المعروف بتذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة**، سبط ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، دار العلوم، بيروت، لبنان.

١٤ـ **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، طبعة ١٤١٢هـ، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٥ـ **الثاقب في المناقب**، ابن حمزة الطوسي، طبعة ١٤١٢هـ، مؤسسة أنصاريان، قم المقدسة، إيران.

١٦ـ **جامع أحاديث الشيعة**، آقا حسين الطباطبائي البروجردي، طبعة ١٣٩٩هـ، المطبعة العلمية، قم المقدسة، إيران.

١٧ـ **الجمل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة**، محمد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد)، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ، مطبعة ظهور.

١٨ـ **الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة**، يوسف البحراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، إيران.

١٩ـ **حياة الإمام الحسن بن علي**، باقر شريف القرشي، الطبعة العاشرة ١٤٢٧هـ، مطبعة شريعت، قم المقدسة، إيران.

٢٠ـ **الخصال**، علي بن محمد بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق)، طبعة ١٤٠٣هـ، منشورات جماعة المدرسين، قم المقدسة، إيران.

٢١ـ **خصائص الأئمة**، الشريف الرضي، طبعة ١٤٠٦هـ، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية، مشهد المقدسة، إيران.

٢٢ـ **دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام**، النعمان بن محمد المغربي، طبعة ١٣٨٣هـ، دار المعارف، القاهرة، مصر.

٢٣ـ **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**، آقا بزرگ الطهراني، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ، دار الأضواء، بيروت، لبنان.

٢٤ـ **زوجات الإمام الحسن**عليه السلام، **أكاذيب وحقائق**، جعفر مرتضى العاملي، مركز نشر وترجمة مؤلفات العلاّمة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي.

٢٥ـ **سير أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد الذهبي، الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ،

مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٢٦ـ **شرح أصول الكافي**، محمد صالح المازندراني، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٢٧ـ **شرح نهج البلاغة**، ابن أبي الحديد، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ، دار إحياء الكتب العربية.

٢٨ـ **شرح نهج البلاغة**، ميثم البحراني، دار العالم الإسلامي، بيروت، لبنان.

٢٩ـ الصحيفة السجادية، من أدعية الإمام السجادعليه السلام.

٣٠ـ **صلح الإمام الحسن**عليه السلام، محمد جواد فضل الله، طبعة ١٣٩٩هـ، دار الزهراءعليها السلام، بيروت، لبنان.

٣١ـ **الصواعق المحرقة**، أحمد بن حجر الهيثمي، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ، مكتبة القاهرة، القاهرة، مصر.

٣٢ـ **علي إمام الدين والدولة**، محسن علي المعلم (المؤلِّف)، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، دار الهاديعليه السلام، بيروت، لبنان.

٣٣ـ **علي والأسس التربوية**، حسن القبانچي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، مطبعة الهادي، قم المقدسة، إيران.

٣٤ـ **عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية**، محمد بن علي الأحسائي (ابن أبي جمهور)، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، مطبعة سيد الشهداء، قم المقدسة، إيران.

٣٥ـ **عيون الحكم والمواعظ**، علي بن محمد الليثي الواسطي، طبعة ١٣٧٦هـ، دار الحديث، قم المقدسة، إيران.

٣٦ـ **الغارات**، إبراهيم بن محمد الثقفي، مطابع بهمن.

٣٧ـ **الغدير في الكتاب والسنة والأدب**، عبد الحسين أحمد الأميني، الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٣٨ـ **الفصول المهمة في معرفة الأئمة**، علي بن محمد المالكي (ابن الصباغ)، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، مطبعة سرور، قم المقدسة، إيران.

٣٩ـ **فقه الرضا**عليه السلام، تحقيق مؤسسة آل البيتعليهم السلام، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، الناشر: المؤتمر العالمي للإمام الرضاعليه السلام، مشهد المقدسة، إيران.

٤٠ـ **في ظلال نهج البلاغة**، محمد جواد مغنية، الطبعة الأولى ١٩٧٢م، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، لبنان.

٤١ـ **القول الحسن في عدد زوجات الإمام الحسن**عليه السلام، وسام برهان البلداوي، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، نشر العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء المقدسة، العراق.

٤٢ـ **الكافي (الأصول من الكافي)**، محمد بن يعقوب الكليني، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ، دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران.

٤٣ـ **كشف الغمة في معرفة الأئمة**، علي بن عيسى الأربلي، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، دار الأضواء، بيروت، لبنان.

٤٤ـ **كشف اللثام عن قواعد الأحكام**، محمد بن الحسن الأصفهاني (الفاضل الهندي)، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، إيران.

٤٥ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علي المتقي بن حسام الدين الهندي (المتقي الهندي)، طبعة ١٤٠٩هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٤٦ـ **لسان العرب**، ابن منظور، طبعة ١٤٠٥هـ، الناشر: نشر أدب الحوزة، قم المقدسة، إيران.

٤٧ـ **مائة منقبة من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من ولده** عليهم السلام، محمد بن أحمد القمي (ابن شاذان)، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدسة، إيران.

٤٨ـ **المجالس السنية**، محسن الأمين، طبعة ١٤٠٦هـ، دار التعارف، بيروت، لبنان.

٤٩ـ **مدارك نهج البلاغة ودفع الشبهات عنه**، هادي كاشف الغطاء، الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ، شركة صبح، بيروت، لبنان.

٥٠ـ **المدائح النبوية في الأدب العربي**، زكي مبارك، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، دار الجيل، بيروت، لبنان.

٥١ـ **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، ميرزا حسين النوري الطبرسي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، لبنان.

٥٢ـ **مسند نهج البلاغة**، محمد حسين الجلالي، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ، مطبعة عمران، قم المقدسة، إيران.

٥٣ـ **مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار**، عبد الله شبر، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ، مؤسسة النور، بيروت، لبنان.

٥٤ـ **مصادر نهج البلاغة وأسانيده**، عبد الزهراء الحسيني، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.

٥٥ـ **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، طبعة ١٣٩٩هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

٥٦ـ **المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة**، كاظم محمدي ومحمد دشتي، طبعة ١٤٠٦هـ، دار الأضواء، بيروت، لبنان.

٥٧ـ **معجم متن اللغة**، أحمد رضا، طبعة ١٣٧٧هـ، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

٥٨ـ **مفردات غريب القرآن**، الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني)، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، دفتر نشر الكتاب.

٥٩ـ **المناقب**، الموفق بن أحمد الخوارزمي، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، إيران.

٦٠ـ **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، ميرزا حبيب الله الخوئي، طبعة ١٣٩٨هـ، المطبعة الإسلامية، طهران، إيران.

٦١ـ **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي، طبعة ١٣٨٦هـ، المطبعة الإسلامية، طهران، إيران.

٦٢ـ **منهاج السعادة في شرح نهج البلاغة**، محمد تقي النقوي، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ، مطبعة زنبق، طهران، إيران.

٦٣ـ **موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتأريخ**، محمد الريشهري، طبعة ١٤٢١هـ، دار الحديث، قم المقدسة، إيران.

٦٤ـ **نهج البلاغة**، من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ضبطه الدكتور صبحي الصالح، الطبعة الثانية ١٩٨٢م، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.

٦٥ـ **الهداية والتربية الإيمانية**، علي حسين مكي، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، المؤسسة الدولية، بيروت، لبنان.

٦٦ـ **هل هو**: مبادئ الوصول إلى علم الأصول، العلامة الحلي، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ، مكتب الإعلام الإسلامي، قم المقدسة، إيران.

٦٧ـ **الوافي بالوفيات**، الصفدي، طبعة ١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.

٦٨ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ابن خلكان، دار الثقافة، لبنان.

٦٩ـ **وقعة صفين**، نصر بن مزاحم المنقري، طبعة ١٣٨٢هـ، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، مصر.

المحتويات

الفصل الأول

جولة في محاور

الفصل الثاني

النص الشريف

الفصل الثالث

من الوالد إلى الولد

الفصل الرابع

البصيرة والبيِّنة في الأمر

الفصل الخامس

محطات الوصية الإلهية